mugool.com

الثقافة الإسلامية

المستوى الأول (١٠١)

تأليف

الشيخ عبد الرحمن حبنكة | الشيخ محمد الغزالي

مراجعة

الدكتور محمد إبراهيم علي | الدكتور حسين حامد حسان

مركز النشر العلمي
جامعة الملك عبد العزيز
ص ب ١٥٤٠ ـ جدة ٢١٤٤١
المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى : ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) .

الطبعة الثامنة عشر : ١٤١٩هـ (١٩٩٨م) .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حبنكه ، عبـد الرحمن

الثقافة الإسلامية : المستوى الأول ١٠١/ عبد الرحمن حبنكة ، محمد الغزالي - ط١٨ - جـدة

ص ؛ سم

ردمك X - ٠١١-٠٦-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦ - ١٨٧-٠٦-٩٩٦٠ (ج ١)

١ - الثقافة الإسلامية - كتب دراسية ٢ - التعليم الجامعي - السعودية

أ - الغزالي ، محمد (م. مشارك) ب - العنـوان

ديوي ٢١٤ ١٩/٢٠٦٢

رقم الإيداع : ١٩/١٠٦٢

ردمك : X - ٠١١-٠٦-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦ -١٨٧-٠٦-٩٩٦٠ (ج ١)

مطابع جامعة الملك عبدالعزيز

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
بحمد الله وحسن توفيقه أصبحت مادة الثقافة الاسلامية مادة اجبارية « متطلبات جامعة » على جميع طلاب الجامعة بأختلاف مستوياتهم الدراسية .
واهتماما بهذه المادة من كلية الشريعة والدراسات الاسلامية باعتبارها الكلية المشرفة على تدريس هذه المادة فقد طلبت من بعض أساتذة مادة الثقافة الاسلامية بقسم الدعوة وأصول الدين بالكلية وضع منهج لهذه المادة يساعد الطلاب الدارسين على فهمها ويشرح بعض مفرداتها يكون فى يد الطالب حسب مستواه . وقد وزع منهج هذه المادة على أربعة مستويات حسب المنهج المعتمد .

نسأل الله أن ينفع به وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ؟

عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية

راشد بن راجح الشريف



بسم الله الرحمن الرحيم

الثقافة الاسلامية

منهاج المستوى الأول (١٠١)

اولا : أهداف مادة الثقافة الاسلامية

يقصد من تدريس هذه المادة فى مختلف الكليات الجامعية تحقيق ما يلى :

١ ـ ترسيخ العقيدة الاسلامية الصحيحة وفق الأسس العلمية التى هدى اليها القرآن والسنة وأرشدت اليها المعارف والعلوم المختلفة ٠

٢ ـ تزويد الطالب الجامعي فى أى فرع من الفروع الجامعية بالمبادىء والنظم وكليات المعارف الاسلامية الأساسية التى من شأنها أن تحميه من التيارات الفكرية الغازية المعارضة لمفاهيم الاسلام ولنظمه ، والعاملة بتوجيه مقصود لهدمه وسلخ المسلمين عن دينهم ٠

٣ ـ ايضاح واقع التفكير العلمي والعقلى فى الاسلام من خلال دراسة المبادىء والنظم وكليات المعارف الاسلامية النظرية والعلمية ، ومن خلال دراسة نماذج من التاريخ العلمي عند المسلمين ٠

٤ ـ تسليح الأجيال المثقفة بما يستطيعون به الدفاع عن دينهم ومبادئهم وأمتهم وتاريخها المجيد، وبمايستطيعون به العمل على نشر الاسلام والتبشير به ضمن الأوساط العلمية التى يتاح لهم الدخول فيها فى مستقبل حياتهم وضمن زوايا اختصاصاتهم ٠

٥ ـ حل كبريات المشكلات التى أثارتها النظريات العلمية المعاصرة وذلك عن طريق عرض مفاهيم الاسلام عرضا علميا معاصرا ، كنظام الاقتصاد الاسلامى ومفاهيمه السليمة الخالية من عيوب النظم الأخرى وكنظام الأسرة ونظام الحكم والاخلاق الاسلامية وأسس كل ذلك الفكرية والفلسفية والايمانية وفوائدها وثمراتها الفردية والاجتماعية ٠

٦ ـ ربط الأجيال المثقفة بمصادر الشريعة الأساسية « القرآن والسنة » وتبصيرها بما فيهما من عناصر حق وخير وهداية وقوة لمن عمل بوصاياهما مع ما فيها من دفع الى اغتنام السعادتين الدنيوية والأخروية ٠

٧ ـ الاسهام فى تكوين المسلم الصالح الذى لاتفتنه بهارج « أعداء دينه وأمته » ويعمل فى خدمتهما بكل طاقاته ، ويضحى فى سبيلهما بكل ما يملك ٠

٨ ـ شحن قلوب الاجيال المثقفة بالعاطفة الاسلامية الرشيدة، وتغذيتهم بما يدفعهم الى تطبيق الاسلام فى سلوكهم الفردى والاجتماعى ٠

٩ ـ ملء قلوب الأجيال المسلمة بروح الاعتزاز بدينهاوأمجاد أمتها وملء نفوسها بالأمل بمستقبل عظيم ، علما وحضارة وقوة وسلطانا فى الأرض ، اذا هى استعادت تمسكها بعقيدتها ونظام دينها واتخذت الاسلام منهج حياة علمية لها ٠

١٠ ـ ضرورة أن يكون الطالب فى المملكة العربية السعودية فى مركز القيادة الدينية بين طلاب العالم الاسلامىفكريا وسلوكيا ، باعتبار أن هذه المملكة هى قلعة الاسلام الأولى ، ومنطلق الدعوة اليه ٠ ولتحقيق هذه الأهداف لابد أن تشتمل مادة « الثقافة الاسلامية » على العناصر الرئيسية التالية :

(أ) عرض عام للقواعد الاسلامية الكبرى الاعتقادية والعملية عرضا علميا منطقيا مقتبسا من المصادر الأساسية للاسلام (القرآن والسنة) .

(ب) بيان للأسس العامة التى قامت عليها قواعد الاسلام الاعتقادية والعملية ، كالحق والخير ، والعالمية ، والشمول، والمثالية والواقعيةومواقعهما.

(جـ) تعريف عام بمنهج الاسلام العملى ونهجه العلمى للفرد المسلم والجماعة الاسلامية .

(د) بيان الوسائل الكبرى التى وضعها الاسلام في منهجه لاقامة بناء الامة الاسلامية وبناء حضارتها وعلاقتها مع الأمم الأخرى .

(هـ) بيان مصادر التشريع الاسلامى ، ووصل الطالب الجامعى بنصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وتحصينه من حركات الغزو الفكرى المركز ضدهما وضد كل المفاهيم والتطبيقات الاسلامية .

ثانيا ـ مفردات منهاج المستوى الأول (١٠١)

(أ) التعريف العام بمادة الثقافة الاسلامية :

يتناول لمحة اجمالية عن عناصرها ، والغاية منها وضرورتها ومستندها .

(ب) العقيدة الاسلامية : (أوالتصور العام للوجودفيالاسلام)

١ ـ الكون أو الطبيعة فى نظر الاسلام : خصائص الكون ـ حدوثه ـ حاجته الى خالق ـ قوانينه السببية ـ نظرات العلماء الماديين المؤمنين اليه ـ خصائص العرض القرآنى للكون ـ وكونه منطلقا ومؤديا الى التفكير العلمى عند المسلمين ومؤديا الى الايمان بالله المدبر للكون ـ مكانة العقل فى المجالين العلمى والايمانى أخذا من القرآن .

٢ ـ الله : خالق الكون ومدبره ـ صفاته أخذا من دلائل القرآن وبياناته ـ لم يخلق الله هذا الكون ومافيه من أحداث وكائنات عبثا ـ الله خالق الأسباب والمسببات ـ وسننه الجارية فى مخلوقاته من الكون والانسان وغيرهما ونتائج هذه الفكرة .

٣ ـ الانسان : واقعه فى هذا الوجود ـ تساؤلاته الكبرى ، من أين ؟ ولم ؟ وما هو المصير ؟ عناصر تكوينه ، ومراحله ، وميوله ، وغرائزه فى واقعه ، خصائصه الكبرى (العقل ـ الارادة ـ الغرائز ـ والأهواء والشهوات) ـ تصور مسئوليته من خلال معرفة خصائصه ـ صلته بالكون من جهة وبالخالق من جهة أخرى .

الابتلاء والتكليف والجزاء وحدود المسؤولية ـ واقع الانسان الارادى بين الخير والشر ـ القضاء والقدر ومواقعه ـ والربط بينه وبين حرية ارادة الانسان ومسئوليته من جهة ـ وبين كون الله خالق كل شىء من جهة أخرى .

٤ ـ حاجة البشر الى من يلفت نظرهم الى العقائد الأسلامية الكبرى والى من يبين لهم الشرائع والتكاليف وغيبيات الجزاء الأكبر .

النبــوة : باعتبارها الوسيلة المختارة للفت النظر وتبليغ الشرائع ـ وباعتبارها واقعا تاريخيا . طريق اثبات النبوة ودلائل صدق الرسول

الوحــى : هو الصلة بين الله وبين الأنبياء ـ ظاهرة الوحى وخصائصها ودلائلها ـ مهمة الرسول الأساسية ـ وظائفه فى تاريخ الانسانية ـ وأثر ذلك ـ تعدد الرسالات السماوية وتعاقبها ـ وشمولها للأمم السابقة ـ ووحدة أصولها وتكاملها ـ ختمها برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ـ خصائص نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

٥ ـ حاجة البشر الى نصوص دينية ثابتة تكون هى المرجع فى أيديهم بعد الرسل ـ الكتب السماوية ـ وجوب الايمان بها ـ دخول التحريف الى الكتب السابقة ـ حفظ الله القرآن من أى تغيير أو تحريف ووعده بذلك .

٦ ـ الحياة الآخرة ومسئولية الانسان العظمى ـ استدلال القرآن على وجودها بأدلة عقلية تتصل بحكمة الخالق وعدله وأنه لم يخلق هذا الكون عبثا ـ تفصيلات من الحياة الآخرة لا تدرك الا عن طريق النبوة عن الوحى ـ أهم ما فيها من عقائد غيبية سمعية .

٧ ـ الايمان بالملائكة وسائر السمعيات التى لا يمكن أن تدرك بالعقل من لوازم الايمان بالنبوة (أهم التفصيلات الضرورية من ذلك) .

(ج) العبادة :

١ ـ مفهومها وحقيقتها ـ كونها وظيفة الانسان الأولى فى وجوده فى هذه الحياة ـ خصائصها وأنها لا تكون لغير الله ـ ولا وساطة فى العبادة بين العبد وربه ـ يجب التقيد فيها بالصورة التى شرعها الله ـ اليسر فيها ورفع الحرج والمشقة عنها ـ ملاءمتها للفطرة الانسانية ـ الغاية منها وحكمتها بوجه عام .

٢ ـ مجالاتها وشمولها للدين كله فى جميع أحكامه ـ تنوعها وشمولها لقطاعات الانسان المختلفة الداخلية والخارجية (الفكرية ـ القلبية ـ النفسية ـ الجسدية الشاملة لكل الجوارح) ـ عبادات ايجابية وعبادات سلبية ـ آثارها وثمراتها الفردية والاجتماعية .

٣ ـ أفضليتها تكون بتخصص كل عبادة فى وقتها المطلوبة فيه ـ وتخصيص كل عمل فى وقته المحقق للمصلحة الأفضل ـ وباتباع مرضاة الله حيث كانت .

٤ ـ الاخلاص فى العبادة أساس قبولها عند الله ، ضرورة ملاحظة ابتغاء وجه الله فيها (النية) .

٥ ـ عبادات الاسلام وشعائره الكبرى ، أسرارها وآثارها فى الحياة والحكمة منها .

(د) الاخـــلاق :

١ـ تحديد مفهوم الأخلاق ـ بيان مواقع الاخلاق فى السلوك الداخلى والخارجى ·

٢ ـ الأسس الايمانية الاعتقادية والأسس الفطرية للأخــلاق ، الضمير الاخلاقى ، وتربيته ، وضبطه بالتزام طاعة الله ، وصيانته بتقوى الله ·

الغاية من السلوك الاخلاقى ابتغاء مرضاة الله تعالى ورجاء ثوابه والخوف من عقابه ـ أثر النية في الأخلاق الاسلامية ·

٣ ـ دخول الاخلاق فى القطاعات الانسانية المختلفة الداخلية والخارجية (أخلاق الفكر ـ أخلاق الاعتقاد ـ أخــلاق النفس ـ أخلاق السلوك الظاهر الحسى) ·
تناول الأخلاق لجانبى السلوك الفردى والسلوك الاجتماعى

٤ ـ الأسس العامة لمفردات الاخلاق الفاضلة وأضدادها أسس الأخلاق السيئة قاعدة الاخلاق الاجتماعية الـكبرى « أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ·

معـــالجة موجزة لطــائفة من مفردات مكـــارم الأخــلاق ومصادرها مثل (الحلم والأناة ـ الصبر ـ الصدق والأمانة ـ العفة ـ حسن المعاشرة ـ التسامح والعفو ـ الكرم والجود ـ الايثــار ـ التضحية ـ الشجاعة ـ الجــرأة فى الحــق ـ « الشجاعة الأدبية » الصراحة في محلهـــا ـ الحكمة فى تصريف الأمور ـ الرجــوع الى الحــق والاعتراف به ـ التواضع ولين الجانب ـ الرقة ـ الوفاء ـ الحزم ـ الحذر ـ التفاؤل ـ القناعة) ·

الأخلاق الاجتماعية ورقيها فى الاسلام ـ وأثرها في وحدة الجماعة الاسلامية وتنمية روابط المودة والاخاء (الفرد والمجتمع وترابطهما فى الاسلام) ·

٥ ـ موقف الاسلام من الميــول والغرائز (الدوافع النفسية) وتوجيهاته فيها « الطعام ، الشرب ، الغريزة ، التملك ، المسكن واللباس والأثاث ، الزينة ، التصوير ، اللهــــو واللعب ، القوة والعمل ، المعرفة والعلم) ٠

٦ ـ عناية القرآن والسنة بتزكية النفس وتهذيبها ٠

٧ ـ تفاوت مراتب مفردات مكارم الاخـلاق من أعلى المراتب وجوبا الى أدناها استحبابا واضدادها تتنازل فى الدركات من أدنى المراتب كراهة الى أقصاها تحريما ٠ حرص الاسلام على تقويم الاخلاق أبلغ من حرصــه على الاستكثار من العبادات العملية ـ وسلامة النفس من المساوىء الخلقيــة أهم من سلامة السلوك الظاهر من كثــير من المعــاصى والذنوب الظاهرة ٠

٨ ـ الوسائل التربوية لاكتساب مكـارم الاخـــلاق وتنميتها والخلاص من الامراض الخلقية «الاقناع بالمفاهيم الاخلاقية الايمانية ، التدريب والتكليف ، البيئة وأثرها في التربية الاخلاقية ، القدوة الحسنة وأثرها ، العبادة ومراقبة الله، الرقابة الاجتماعية ، الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قواعد الجزاء » وغيرها ٠

القسم الأول

العقيدة الاسلامية

كتب هذا القسم الاستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني



أهمية العقيدة فى كيان الانسان

يتسم سلوك الحيوان بأنه مظهر من مظاهر دوافعه وغرائزه المنضبطة فطريا بحدود حاجاته ومصالح جسده ، فاذا أشـبعت حاجاته كف وعف ، وقلما يتجاوز الحيوان حدود ما ينفعه الى ما يضره ، وذلك بكوابح من غريزته ٠

أما الانسان فقد جعلت غرائزه ودوافعه وأهواؤه وشهواته رعية تحت سلطة ارادته الحرة ، ومنح بالاضافة الى ارادته عقلا يمكن أن يدرك فيه خيره وشره وما ينفعه وما يضره ، ليـكون الموجه لارادته والمحرك لعواطفه ، فاذا استرشدت ارادته بعقله وكان ادراكه للأمور صحيحا سليماً استقام سلوكه بمقدار سلامة وصحة ادراكه للأمور ٠ واذا تخاذلت ارادته فخضـعت لأهوائه وغرائزه وشهواته ودوافعه ومطالب نفسه كان كالأنعام بل كان أضل سبيلا ، لان هذه العناصر فى نفسه لا كوابح لها من أصل فطرتها ، بعد أن منح الانسان البديل عن هذه الكوابح من عقله وسلطان ارادته ، وحين تصبح هذه العنـاصر هى الحاكمة على ارادة الانسـان وهى صاحبة السـلطان تأخذ به الى افراط أو تفريط يضره ويهلكه ٠

وحين نلاحظ أنواع سلوكنا العادى فى الحياة نجد أن ارادتنا تتصرف بتوجيه من مفاهيمنا الثابتة فى نفوسنا ، وهذه المفاهيم الثابتة تمثل فينا مجموعة عقائدنا فى الحياة ٠ ومثال ذلك أننا لا نضع أيدينا فى النار لأن لدينا مفاهيم ثابتة عن النار وهذه المفاهيم توجه ارادتنا الى أنواع خاصة من السلوك تجاه النار فنحن نعتقد أن النار تحرق ونعتقد أن الحريق اذا مس أجسادنا آلمنا وأتلف من أجسامنا ما نحن بحاجة ماسـة اليه ، وكل ذلك مكروه لنا لذلك فاننا نوجه ارادتنا للكف عن كل تصرف نكره نتائجه وعواقبه ٠ ولنفس الأسباب فاننا لا نشرب كأسا لذيذة نشتهيها اذا سقط فيها سم قاتل ٠

من هذا ندرك أهمية مفاهيمنا الثـــابتة وهي مجمـوعة عقائدنا ، فى توجيه ارادتنا الى أنواع من السلوك نتصور انها تجلب لنا مصلحة أو نفعاً أو لذة ، وهذه أمور نخبها • أو نتصور انها تدفع عنا مفســدة أو مضرة أو الما وهذه أمور نكرهها • والمفاهيم متى غدت ثابتة راسخة فى نفوسنا واطمأنت قلوبنا اليها وأصبحت عواطفنا تتأثر بها كانت عقائد راسخة لدينا ، وهذا المستوى من رسوخ المفاهيم مع طمأنينة القلب اليها وتأثر العواطف بها هو ما يطلق عليه لفظ (الايمان) ومشتقات هذا اللفظ •

وهذا الايمان هو الركن الاساسى الذى بدأ الاسلام به في تكوين شخصية المسلم لأنه هو الجذر الأول في بنـاء شخصيته ، وهو العنصر الأساسى المحرك لعواطفه والموجه لارادته • ومتى صحت عناصر الايمان فى انسان استقامت الأساسيات الكبرى لديه فسلك طريق الحق والخير والرشاد واستطاع التحكم بأنواع سلوكه وضبطها فيما يدفع عنه الضر والألم والمفسدة ، العاجل من ذلك والآجل ، وفيما يجلب له النفع واللذة والمصلحة العاجل من ذلك والآجل وهذا ما يطلبه منا الاسلام •

وقد أدرك حديثا الباحثون من غير المسلمين قيمة العقائد فى توجيه سـلوك الانسان فبـدأوا يتحدثون عنها تحت عنـوان (أيديولوجيات) ولكنهم ما استطاعوا أن يصلوا الى المسـتوى الذى وصل اليه الاسـلام اذ هو يبنى فى الفرد المسـلم ايمانا لا يضارعه ولا يشـابهه اى عنصر اعتقادى (ايديولـوجى) يحاولون غرسه فى نفس الفرد من أفرادهم •

أعظم مطـالب الانسان فى الحيـاة :

اتفق البـاحثون من الفلاسفة وأهل الملل والنحل وأصحاب المذاهب وكل ذى فكر معتبر فى الحياة على أن بلوغ السـعادة أعظم مطلب ينشده الانسان فى الحياة • ويبحث النـاس عن الوسيلة التى يمكن أن تحقق لهم السعادة المنشودة •

فيتصورها طلاب المال بجمع أوفر نصيب منه ، فيجرون وراء تحصيله وجمعه ، ثم يكتشفون بالتجربة أن المال ربما كان سببا لمتاعبهم وآلامهم وشقائهم ، وأنه ليس هو الجسر الموصل الى السعادة • ويتصورها طلاب الجاه والسلطان بالظفر بأكبر نصيب منهما . فيجرون وراءهما ويقاتلون من أجلهما، فاذا ظفر منهم ظافر بما يريد لم يجد أن الجاه والسلطان من أسباب ظفره بالسعادة المنشودة ، وربما اكتشف بالتجربة أنهما كانا من أسباب متاعبه وآلامه الكثيرة وأنه قد اجتاز جسرا الى غير الغاية التى ينشدها •

وهكذا نجد طلاب اللذة والاستمتاع بالشهوات ينتهون بعد التجربة الى أنها لم تحقق لهم السعادة المنشودة ، بل قد تجلب لهم آلاما ومتاعب كثيرة مقيمة وأما لذاتهم فقد كانت بمثابة رذاذ يبرد حرارة حاجات النفس . ثم يجف هذا الرذاذ بسرعة . ولا يبقى منه الا الذكرى . وقد يخلف عواقب سيئة مؤلمة اذا لم يكن محدودا بحدود المصلحة العاجلة والآجلة . وبحدود الخير الذى آذن الاسلام به •

ولدى الملاحظة نجد أن المؤمنين بالاسلام يحسون بمشاعر السعادة فى قرارة نفوسهم . ويذوقون حلاوة طمأنينة القلب وان لم يكن لديهم ما يحبون من مال أو جاه أو سلطان وان لم ينالوا ما يشتهون من لذات جسدية فى الدنيا ، ويشعرون أيضا بهذه المشاعر السعيدة الحلوة وان كانت أجسادهم تعانى آلاما مرة ، لأنهم يؤمنون بأن رضا الله يحفهم . وبأن سعادة أخروية عظيمة دائمة مقيمة لا ترحل تنتظرهم بفضل من الله ورحمة وأن غمرأ من اللذات وأنواع النعيم قد أعد لهم فى جنات الخلد، فهم يعيشون فى أجواء هذا الرجاء الحلو سعداء ، وهم سيكونون بها يوم الدين فى واقع تطبيقى سعداء سعادة لا يستطيع التصور العالى أن يصل الى ادراك مستواها العظيم •

فالايمان الذى جاء به الاسلام هو الكفيل بتحقيق أعظم ما ينشده الانسان فى حياته ، انها السعادة الخالدة العظمى ، التى تبدأ فى الحياة الدنيا بطمأنينة القلب ورضاه ، وبالأمل الحلو

الدائم بالخلود السعيد المغمور بأعظم ألوان النعيم . وتنتهى بواقع تطبيقى نفسى وجسدى وروحى يصب فيه المؤمن من السعادة الخالدة ما هو فوق مستوى التصور والأمل .

الأسئلة الكبرى الملحة فى نفس الانسان :

ثلاثة أسئلة تلح على الانسان في داخله وتضعه أمام مشكلات ثلاث يطلب حلها ، فاما أن يعيش فى قلق وحيرة تجاهها واما أن يطرحها عن فكره طرحا كليا ويعيش فى دوامة كما تسيره مطالب حياته ، واما أن يظفر بحلها حلا صحيحا يطمئن اليه قلبه ، وتهدأ اليه نفسه فيسير فى حياته بهديه .

أما السؤال الأول فهو :

من الذى أوجدنى بعد أن لم أكن شيئا مذكورا ؟

وأما السؤال الثانى فهو :

ما هى الغاية التى وجدت من أجلها مزوداً بخصائص من عقل وارادة حرة ، وغرائز وأهواء وشهوات فى حياة ذات مسالك متشعبة فيها الخير والشر ؟

وأما السؤال الثالث فهو :

الى اين المصير بعد عبور جسر هذه الحياة وما هى النتائج التى تترتب على أعمالى فيها ؟

وقد أعطانا الاسلام الأجوبة على هذه الاسئلة الملحة ، ولفت أنظارنا الى الأدلة العقلية والبراهين الواقعية التى تدل عليها ، وقدم لنا الحل لأكبر المشكلات المحيرة للانسان فى هذه الحياة .

فابان لنا أن الله هو الذى خلقنا من العدم ، وقدم لنا الأدلة على ذلك من ظواهر الكون ومن أنفسنا ، وعرفنا أن الله أزلى أبدى له كل صفات الكمال وهو منزه عن كل صفات النقصان . وأبان لنا أن حكمة الله اقتضت أن يخلقنا بهذه الخصائص التى منحنا اياها ليمتحننا ويبلو ارادتنا فى ظروف هذه الحياة ، وقدم لنا الأدلة القطعية على ذلك ، وهى الأدلة المستندة الى حكمة الخالق وعلمه وقدرته .

وأبان لنا أن وراء هذا الامتحان حكمة الجزاء بالثواب أو بالعقاب ، وأن الجزاء الأمثل لا يكون فى ظروف هذه الحياة الدنيا وانما ادخره الله لحياة أخرى تكون بعد هذه الحياة ، فاليها يكون المصير ، ووضع فى أيدينا الأدلة اليقينية الدالة على ذلك ، وهى الأدلة المستندة الى حكمة الخالق وعلمه وقدرته ٠

وحين يجد الانسان الجواب الصحيح على هذه الاسئلة الثلاثة تنحل لديه المشكلات الكبرى فى تصوراته لهذه الحياة ، وتتضح له معالم الطريق الذى يجب عليه أن يسلكه ٠

وقد يتفرغ عن هذه الأسئلة الثلاثة أسئلة أخرى ، وتأتى العقيدة الاسلامية فتجيب عليها الجواب الصحيح المقرون بالأدلة والبراهين الصحيحة ، منها الأسئلة التالية :

١ ـ من الذى يبلغنا عن الله مواد إمتحاننا ؟

والجواب : الرسول

٢ ـ كيف يتصل الله بالرسول ؟ والجواب : بالوحى

٣ ـ هل ينزل الله لنا بيانات تكون فينا نصوصا ينقلها خلف عن سلف ؟

الجواب : نعم ، ينزل كتبا هى الكتب السماوية الربانية ٠

وسوف تكون دراستنا للعقيدة الاسلامية فى فصول متتالية

الفصــل الأول

الايمان بالله تعالى جل جلاله

١ ـ وجود الخالق حقيقة ثابتة والشعوربه أمر فطرى في الأنفس

أول شعور يشرق فى أعماق الانسان اذا تأمل فى نفسه وفى الكون من حوله شعوره بوجــود قوة كبرى مهيمنة على الكون ، تمنحه التدبير والتنظيم . وتتصرف فيه بالحياة والموت . والبناء والفناء ، والتغير والتطور . والحركة والسكون . وجميع أنواع التغيرات الحكيمة التى تجرى فيه ·

ان الانسان ليشعر بهذه الحقيقة ويؤمن بها ايمانا عميقا . سواء استطاع أن يقيم الدليل البرهانى على صدق هذا الشعور أو لم يستطع ، فدليل الفطرة ودليل البداهة شاهد حق يسبق الشواهد النظرية وقد يكون أدق منها وأصدق ·

وحسب الانســان في ايمانه واعتقاده بشيء ما أن يوافق شعوره الفطري واحساسه البديهى النتائج النظرية التى يتوصل اليها الباحثون من علماء وفلاســفة ، أو أن يتفق شعوره واحساسه مع الشعور والاحساس الصــادق للكثرة الكاثرة من المجموعة الانسانية · بل ربما يقال : ان سلامة الفطرة وصفاء الاحساس الخفى من أهم الوسائل الاساسية فى شعور الانسان فى أطوار حياته . واذا قلنا ان الشــعور الفطرى فى الانسان بوجود قوة كبرى مهيمنة على الكون خالقة عليمة حــكيمة من الدلائل الصادقة على وجود الخالق فلنا على ذلك أمثلة كثيرة من واقع حيــاة الانســان فى تكوينه الفطرى . اذ يوافق شــعوره الفطرى ما هو كائن فعلا ، أو ما يجب أن يكون بشكل لا يقبل الزيادة عليــه أو النقصان منه بأى مقــدار قل أو كثر ، مهما تقدمت البحوث العلمية والكشوف التجريبية ·

ان كثيراً من علومنا ومعارفنا ليس لها دليل في أنفسنا غير شعورنا الفطرى بها ، ومهما تقدمت العلوم والمكتشفات فانها لا تزيدنا عنها شيئاً غير ما توصلنا اليه بفطرتنا .

فمن أمثلة ذلك : انسياق الطفل حديث الولادة بفطرته الأولى الى ارتضاع ثدى امه دون أن يتعلم ذلك من معلم ، ودون أن يدركه بدليل عقلى أو حسى ظاهر .

والأم تشعر بعاطفة الأمومة سواء علمت أن السر في ذلك حفظ الطفل بالرعاية والتربية حتى يصبح قادراً على الاستقلال بنفسه أو لم تعلم .

كما أننا جميعا مسوقون باحساس الفطرة والغريزة الى مطالب عيشنا ، ولو لم ندرك الغرض من وراء هذا الاحساس ، اننا نحس بالجوع فنأكل سواء علمنا أن الأكل وسيلة من وسائل حياتنا أو لم نعلم ، ونحس بالبرد فنتخذ الوقاية منه سواء عرفنا أن البرد من عوامل الهدم في بناء جسدنا أو لم نعرف، ونحس بالشهوة للحموض مثلا دون أن نعلم بأنها ضرورية لجسمنا لتحلل المواد الكلسية وغيرها من المعادن في الأطعمة ، تتمثل في أجسامنا تمثلا صحيحا ، ونشعر بوجود روح فينا ، أو سر حياتنا ، فندافع عنها ونحرص على بقائها ، دون أن نحس بها باحدى حواسنا الظاهرة ، وقد لا يستطيع الكثير من الناس أن يقيم البرهان على وجودها ، وعلى الرغم من ذلك فهو يشعر بها ويعتقد بوجودها .

ثم ألسنا نشعر في داخلنا بالعواطف والوجدانيات كالحب والبغض والرغبة والكراهية ؟ فما الدليل على وجودها فينا وهى متغلغلة في داخلنا ؟ هل نستطيع أن نقيم عليها دليلا أكثر من أننا نشعر بها ؟ وهى حق لا شك فيه .

اننا نشعر بالشهوة ونشعر بالألم ، فهل نستطيع أن نثبت ذلك بأكثر من أننا نشعر به ؟ ان الشعور بها دليل على وجودها ، لكن كيف هى موجودة ؟ هنا نحاول أن نبحث

هذه بعض أمثلة وهناك أمثلة أخرى غيرها لا تكاد تستقصى .

ومما لا شك فيه أن هذه الفطرة وهذه الاحساسات العميقة فينا لم توجد فينـــا عبثا بل هى فطرة صادقة موافقـة للواقع الكونى ، وموافقة لحاجتنا ، ومهما تقدم العلم فلن يستطيع الغض من أمر هذه الفطرة ولن يستطيع اهمالها أو الاستعاضة عنها الا قليـلا ، مالم تكن الفطرة فى الانســان شاذة مريضة والمريض الشاذ يجب علاجه .

ومن هذه الاحساسات الفطرية الصـــادقة فينـا احسـاس الانسان بوجـود الخالق ، وتلهفه دائمـا لمعونته وامداداته . وشعوره بحاجة هذا الكون الكبير فى نظامه واتقانه وما فيه من ابداع وحياة وموت الى قدرته وعلمه وحكمته سبحانه . إنه شعور فطرى تشترك بالاحساس به جميع الخلائق المدركة ، على اختلاف نزعاتها ومستويات ثقافاتها ، فى البيئات البدائية ، وفى المدن المتحضرة ، وفى منتديات المثقفين وفى قاعات العلوم والفنون والمختبرات .

انه شعور مشترك بين جميع النـــاس يقوم في نفس الطفل الصغير والانسان البـــدائي والانسان المتحضر ، والجـــاهل والعـــالم ، والباحث والفيلســوف ، والعبقرى ، والخبير فى المعمل ، كل هؤلاء يشعرون بشعور مشترك أن الله حق .

ان القوة القابضة على ناصيةكل شيء العالمةبكل شيء الحكيمة المريدة لاشك فيها . هذه هى صبغة الله فى كل مخلوق مدرك ، وفطرته التى فطر الناس عليها . وفى الاشارة الى هذه الحقيقة عن الله يقول الله تعالى فى القرآن الكريم حكاية عن الرســـل

« قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض » (١)

---

(١) سورة ابراهيم : الآية ١٠ .

واعـــلاناً عن هذه الفطرة القائمـــة فى الانفس المدركة

قال تعـالى :

« صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » (١)

وقال تعـالى :

« فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر النـاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢)

انها فطرة لا تنطمس الا فى نفس من بالغ فى الانحراف من الناس بدافع غير أخلاقى ، ليرضى شيئاً فى نفسه فعشى على مرآة فطرته الصافية وشد عصائب الجهل والعناد على حسه المضىء ·

وهكذا فقد تظلم مرآة الفطرة فى الانســان بدخان نـار الشهوات وبعض الغرائز النفسية العاتية المستكبرة أو بسحب الشـكوك المـادية . فتختفى عنها بعض الحقائق الظاهرة فى الكون ·

وعند ذلك تدعو الضرورة الى اقامة الأدلة النظرية ، ليزال بها عن طريق العقل الظاهر ما غشى على مرآة الفطرة بظلمات الشهوات والغرائز النفسية ، والشكوك المادية ، ونستطيع أن نسمى هذه العوارض الطارئة على مرآة الفطرة (أمراض الحاسة الفطرية) ·

٢ ـ العلم يوصل الى الايمـان بالله ثم الى الايمان بكل عقائده ومبادئه :

واذا تركنا الفطرة ودليلها كان البحث العلمى ـ بما فيه من استدلال نظرى واختبار وتجربة فى المادة وأسرارها وكوامنها ، هو سبيلنا للتعرف على حقيقة وجود الخالق جل وعلا ·

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٨ ·

(٢) سورة الروم : الآية ٣٠ ·

الحقيقة لا تخشى البحث :

ان البحث العلمى المتجرد عن الهوى والتعصب المذموم والمناد لابد أن يصل بالباحث الى الايمان باللّٰه تعالى وبصفاته الجليلة والى كل مبدأ قرره الاسلام ، وعلمنا به بطريق قاطع .

ولذا فاننا نرى أن الاسلام دفع الناس الى العلم والمعرفة بالزام والحاح ، وقذف بهم الى دق أبواب المعارف المغلقة بكل وسيلة مقبولة ، وبكل جرأة وشجاعة وتصميم وحث كل فكر على البحث والتأمل والنظر للوصول الى المعرفة الحقة . ولم يجعل على العقول حجابا ساترا ، لأنه لا يخشى على عقائده ومبادئه من أى بحث علمى سليم ولأنه على يقين من أن البحث العلمى السليم والتأمل والنظر السديدين البريئين من الهوى والتعصب الذميم لابد أن توصل أصحابها الى ذات النتائج التى قررها الاسلام ودعى اليها ونادى بها فى عقائده ومبادئه ، فهو مطمئن من جهة أى بحث علمى ينشد الحقيقة ، مهما كان نوعه . شريطة أن يكون منصفا بعيدا عن الهوى والتعصب الذميم ، وذلك وفق القاعدة المشهورة بين العلماء (ان الحقيقة لا تخشى البحث)

الصداقة بين الاسلام والبحث العلمى :

وهذا ما يجعلنا نرى الصداقة تامة بين الاسلام والبحث العلمى المتجرد المنصف . وأنه ليس بينهما اى تنافر أو اختلاف .

وحين نلاحظ فى الظاهر نوعا من التخالف بين بعض القضايا المقررة فى علوم الاسلام وبعض القضايا الأخرى المقررة فيما توصل اليه البحث العلمى فذلك لا يعدو واحدا من أمور ثلاثة :

الأمر الأول : أن البحث العلمى لم يصل الى مرحلة الحقيقة المقطوع بها فى الموضوع الذى يخالف ما هو مقرر فى علوم الاسلام ، وعند ذلك نسكت الدعوى الناطقة بأن هذا المخالف لما هو مقرر فى الاسلام حقيقة علمية مقطوع بها . ونقول

للبحث العلمى تابع بحثك لتصل الى الحقيقة ، وستجد نفسك بين يدى الحقيقة المقررة فى الاسلام .

الأمر الثانى : أن يكون المنقول عن الدين الاسلامى ليس منقولا نقلا صحيحا صادقا وفق المنهج المعتبر علميا فى نقل النصوص .

الأمر الثالث : أن يكون قد وقع خطأ فى تفسير النص الدينى المقطوع به من قبل بعض المجتهدين . ومعلوم أن الحقائق الدينية الاعتقادية ليست ملزمة بالنتائج المخطئة التى يتوصل اليها ذوو الرأى والاجتهاد والتفسير حسب آرائهم واجتهاداتهم وتفسيراتهم غير اليقينية .

أما الحقائق المقطوع بها فى الدين والنتائج التى يتوصل اليها العلم بطرقه اليقينية القاطعة فان بينهما تمام التوافق ، ولابد أن يلتقيا على نقطة من الحقيقة واحدة ذلك لأن الحق لا يتعدد قطعا فى الأمور الاعتقادية ولا فى الحقائق الثابتة .

سعة صدر الاسلام للنقاش المنصف البرىء :

ولما كانت عقيدة الاسلام ومبادئه فى جانب الحقيقة فاننا نرى الاسلام واسع الصدر لكل نقاش منصف برىء من الهوى والتعصب ، يتقبل اى نقاش متجرد ينشد الحقيقة ، كما يتقبل كل تأمل ونظر ومقارنة ولذا : فقد طلب من المسلمين أن يكونوا فى نقاشهم وجدالهم بالحق متحلين بسعة الصدر ورحابه النقاش وعلمهم ما يلى :

أولا — أن يبحثوا بتجرد ويقولوا للخصوم :

« وانا أواياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين (١) » .

ثانيا — أن يجادلوا بالتى هى أحسن اذا ألجأهم الأمر الى الجدل .

---

(١) سورة سبأ : الآية ٢٤

قال الله تعالى معلما رسوله :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١) »

وذم الجهلة الذين يجادلون بالباطل من غير علم . فقال تعالى:

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (٢) »

البحث العلمى يوصل الى الايمان :

والنتيجة الحتمية للبحث العلمى المنصف فى ظاهرة الوجود الكونى أن يصل الباحثون الى حقيقة الايمان بالله تعالى وعظيم صفاته ، وأن يشهدوا بذلك اذا كانوا متجردين منصفين. وهذا ما أعلنه القرآن الكريم فى قول الله تعالى :

« شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم (٣) » .

ومتى وصلوا الى هذا الايمان وتحققوا من هذه المعرفةفلابد أن يكونوا أكثر الناس خشية لله تعالى . قال الله تعالى :

« انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور (٤) » .

فالعلماء هم الذين يصلون ببحثهم وعلمهم الى المعرفة الحقة، ومع المعرفة الحقة تكون بواعث الخشية .

ولذلك مجد الاسلام العلماء والباحثين ومن النصوص الكثيرة فى ذلك قوله تعالى :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الالباب (٥) » .

---

(١) سورة النحل : الآية ١٢٥

(٢) سورة الحج : الآية ٨ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

(٤) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

(٥) سورة الزمر : الآية ٩ .

وقوله تعالى :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير (١) ·

ونهى عن اتباع مالاعلم للانسان به ، فقال الله تعالى :

« ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا (٢) ·

ان العالم المادى متى تجاوز فى تفكيره حدود ظواهر المادة وصل حتما الى الايمان ·

ومتى سمح العالم المادى الناظر فى الطبيعة لنفسه أن تتجاوز حدود ظواهر المادة وبدأ يتساءل عن تفسير لها وتعليل وبدأ يفكر فى غاياتها بتأمل وامعان ، وبدأ يبحث فى النظام الجامع لها ، وفى قوانينها الثابتة ، فانه لابد أن يصل حتما الى الايمان بوجود الخالق جل وعلا ·

أما اذا حجز نفسه فى حدود ظواهر المادة فقط ، ومنع فكره من أن يجول فى التفسير والتعليل والغاية ، فاننا قد لا نرى فى نفسه أثرا للتأملات الكبرى ، ولكن نشهد شهادة حق أنه عطل فى فكره زاوية بحث كبرى ، ورضى لنفسه بالجهل الكامل من هذه الناحية ، معرضا عن الحقيقة مستهينا بأمرها مشغولا بما يقدم للجسد مطالبه ·

.. وهذا الفريق من العلماء الماديين الواقفين عند حدود المادة هم الذين عناهم القرآن الكريم بقوله تعالى :

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٣) » ·

ولكننا نلاحظ أن الغالبية العظمى من العلماء بما فيهم الباحثون الماديون ما يفتأ الشوق للمعرفة فيهم ــ وهو أصل من أصول الفطرة الفكرية فى الانسان ــ يلح عليهم بالبحث وتجاوز ظواهر المادة ، ثم لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام حقيقة وجود الله تعالى ، مهما حاولوا التهرب منها ·

---

(١) سورة المجادلة : الآية ١١ ·

(٢) سورة الاسراء : الآية ٣٦ ·

(٣) سورة الروم : الآية ٧ ·

ولذلك : مانزال نطالع أقوال العلماء الكونيين وأقوال الفلاسفة الباحثين واعترافاتهم على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم الفكرية . فنلاحظ فيها اعترافاتهم الخاشعة بالخالق الواحد جل وعلا .

انها حقيقة وجود الله المنبثة دلائلها فى كل شىء .

٣ ـ دلائل وجود الخالق سبحانه منبثة فى كل شىء :

لقد بث الخالق دلائل وجوده فى كل شىء من الكون ، فكلما تأمل العقلاء فى هدا الكون الكبير المتدفق حكمة وابداعا تجدد لهم فى كل تأمل جديد برهان جديد يشير الى الخالق العظيم .

فالساذج من الناس ينكشف له من الدلائل على وجود الخالق والبراهين على وحدانيته وعظمته دلائل تتناسب مع مستوى تفكيره وثقافته .

والذكي يزيد فى التأمل فيصل الى الحقيقة نفسها ، ولكن بدلائل أكثر وأدق وأعمق ، والفيلسوف الباحث تضطره الحقيقة بعد البحث والتأمل أن يعلن وجود الخالق المبدع بمستوى من الأدلة أكثر عمقا وأدق فلسفة وغوصا الى أعماق أسرار الأشياء .

والعالم التجريبى ينكشف له فى كل تجربة صادقة دليل جديد على ارتباط المادة بسبب أولى فعال عليم مريد قادر وهو الخالق سبحانه .

والعبقرى لابد أن يصادف فى مجال عبقريته مئات الأدلة التى تجعله يذعن فى قرارة نفسه بوجود الخالق العظيم .

والفطرى بفطرته الصافية ووجدانه السليم يتحسس ببساطة لاتعقيد فيها ، فيشعر بأن لهذا الكون خالقا كبيرا فيؤمن به .

فسبحان الخالق الذى جعل كل شىء في الكون يشير الى وجوده وكمال صفاته ، ولو أخذنا أفراد البشر منذ نشأة الانسان حتى عصرنا هذا لوجدنا أنه ما من انسان استطاع أن يعيش وهو عاقل مدرك منصف ثم يموت دون أن يعتقد بقوة مهيمنة على

الكون تسيره وتدبر أمره . وان تنازعته الشكوك والتساؤلات في فترة من حياته .

فكبار علماء الدنيا وفلاسفة الكون في عصور التاريخ على اختلافها يعتقدون بوجود الخالق سبحانه . واليك طائفة من أقوالهم واعترافاتهم .

٤ ــ أقوال علماء الكون والفلاسفه في الايمان بوجود الخالق :

اليك بعض ما يؤنسك عن هذه الحقيقة التي عرضناها لك من أقوال العلماء والفلاسفة في العالم . لعلها تنفعك في المحاجة وان لم تزدك ايمانا بربك .

ان أقوال علماء الكون وفلاسفته التي يعلنون فيها وجود الكائن الأعظم والمدبر الحكيم (الله) كثيرة وهنا ننقل اليك طائفة منها :

جاء في كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ثلاثون مقالا لثلاثين من كبار العلماء الأمريكيين في الاختصاصات العلمية المختلفة من علوم الكون السائدة في العصر الحديث .

وقد أثبت هؤلاء العلماء في مقالاتهم هذه وجود الله جل وعلا عن طريق ما وجدوه من الادلة الكثيرة المنبثة في مجالات اختصاصاتهم العلمية .

وهو كتاب حسن في بابه لانه يطلع القارىء على نوع من الادلة الكونية التي تفرض سلطانها على العلماء . من خلال ملاحظاتهم وتجاربهم واختباراتهم العلمية . فتقول لهم :

« أفي الله شك فاطر السموات والأرض » (١) .

فيقولون بتجرد وخشوع :

« آمنا بالله ربنا العليم الحكيم القدوس خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير »

---

(١) سورة ابراهيم : الآية رقم ١٠ .

كما يجد القارىء فى الكتاب الرد الكافى على مروجى الالحاد الذين يزعمون أن العلوم تبعد عن الايمان بالله ·

ان هذه الدعوى خرافة يتلفظ بها مفترون دساسون مغرضون فالعلم مؤمن ويدعو الى الايمان بالله ، ولكن الجاحد هو الهوى والغرض الجانح ، وهما اللذان يدعوان الى الالحاد والجهل وطمس البصائر عن الحق ، فرارا من ملاحظة عدل الله فيما يأمر به من خير وما ينهى عنه من شر ·

واليك بعض مقتطفات من هذه المقالات جمعتها لك مع شىء من التصرف :

(أ) جاء فى المقالة الأولى من الكتاب تحت عنوان « نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد ؟ » كتبها « فرانك الن » عالم الطبيعة البيولوجية :

اذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته ؟

هناك احتمالات أربعة للاجابة على هذا السؤال :

١ ــ فاما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال ، وهذا يتعارض مع ما سلمنا به من أنه موجود ·

٢ ــ واما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم وهذا مرفوض بداهة ·

٣ ــ واما أن يكون هذا الكون أزلى الوجود ليس لنشأته بداية ، وهذا الاحتمال يساوى ما يقوله المؤمنون بالله بالنسبة لأزلية الخالق ، لكن قوانين الكون تدل على أن أصله وأساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو اذن حدث من الأحداث ، ولا يمكن احالة وجود هذا الحدث المنظم البديع الى المصادفة عقلا ، ولذلك فهذا الاحتمال باطل أيضا ·

٤ ــ واما أن يكون لهذا الكون خالق أزلى أبدعه ، وهو الاحتمال الذى تقبله العقول دون اعتراض ، وليس

يرد على اثبات هذا الاحتمال ما يبطله عقلا فوجب الاعتماد عليه .

(ب) جاء فى المقالة الثانية من الكتاب تحت عنوان (اختبار شامل) كتبها « روبرت موريس بيدج » عالم الطبيعة ، أول من اكتشف الرادار فى العالم سنة ١٩٣٤ م :
وجدنا أناسا موهوبين يحدثوننا عن الغيب يقولون : انهم رسل الله وما حدثونا به قسمان :

١ ـ قسم يقولون فيه ان لهذا الكون خالقا واحدا يجب الايمان به .

٢ ـ وقسم يخبروننا فيه عن بعض أمور الغيب التى ستحدث .

أما القسم الثانى فقد وقع كما أخبرونا به بعد مئات السنين . وأيدت الأيام وأثبت التاريخ صدق هذه النبوءات جميعها . وهى من الأشياء التى عجزت العلوم حتى اليوم عن أن تجد لها تفسيرا ، فدل ذلك على صحة رسالتهم وصدق أخبارهم . ووجب أن تصدقهم فيما أخبرونا به عن الله تعالى وصفاته ، وهو القسم الاول ، لأن عقولنا لاتمنع منه ، بل عندنا من الشعور الداخلى مايثبته .

ثم قال : « ان الايمان بوجود الله من الأمور الخاصة التى تنبت فى شعور الانسان وضميره وتنمو فى دائرة خبرته الشخصية » .

(ج) جاء فى المقالة الثالثة من الكتاب تحت عنوان (درس من شجرة الورد) كتبها «ماريت ستانلى كونجدن» عالم طبيعى وفيلسوف عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية جاء فيها ما خلاصته :

١ ـ ان كثيرا من الأمور التى نسلم بها انما نعتمد فيها على الاستدلال المنطقى .

ومن أمثلة ذلك :

كثير من استنتاجاتنا اليومية فى حياتنا العادية ، العلوم الفلكية التى ليس بيننا وبينها اتصال مادى مباشر ، بحوث الذرة واستخدام قوانين الكتلة والطاقة فى استنباط صفات الذرة وتركيبها وخواصها . مع العلم بأن العلماء لم يروا الذرة حتى الآن بطريقة مباشرة ، وقد أيدت القنبلة الذرية الأولى ما وصل اليه العلماء من قوانين ونظريات حول تركيب الذرة غير المنظورة ووظائفها .

ومن أمثلة ذلك : وجود الله فاننا نستطيع أن نصل الى معرفته عن طريق الاستدلال المنطقى الذى يقوم على تفسير النتائج بنظائرها أو مثيلاتها .

٢ ــ برغم أن العلوم لا تؤيد وجود عالم غير مادى تأييدا كاملا . لأن الدائرة التى تعمل فيها تقع فى حدود المادة ، فانها لا تستطيع أن تنفى بصورة قاطعة وجود عوالم أخرى غير مادية وراء العالم المادى .

٣ ــ نستطيع بطريقة الاستدلال والقياس بقدرة الانسان وذكائه فى عالم يفيض بالأمور العقلية أن نصل الى وجوب وجود قوة مسيطرة مدبرة تسير هذا الكون وتدبر أمره .

وختم مقاله بما يلى :

« ان جميع ما فى الكون يشهد على وجود الله سبحانه ، ويدل على قدرته وعظمته . وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية ، فاننا لانفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادى الله وعظمته » .

ذلك هو الله الذى لانستطيع أن نصل اليه بالوسائل العلمية المادية وحدها ولكننا نرى آياته فى أنفسنا وفى كل ذرة من ذرات هذا الوجود ، وليست العلوم الا دراسة خلق الله وآثار قدرته » .

(د) جاء فى المقالة الرابعة من الكتاب تحت عنـوان (النتيجة الحتمية) كتبها « جون كليفلاند كوثران » من علمـاء الكيمياء والرياضيات ، رئيس قسم العـلوم الطبيعية بجامعة دولث ٠

بدأ مقالته بكلمة « لورد كليفن » وهـو من علمـاء الطبيعة البارزين فى العالم « اذا فكرت تفكيرا عميقـا فان العلوم سوف تضطرك الى الاعتقاد فى وجود الله » ثم شرع فى مقالته وهى تتلخص بما يلى :

١ ـ تقسم العوالم الى ثلاثة أقسام :

(١) العـالم المـادى ٠
(٢) العـالم الفـكرى ٠
(٣) العـالم الروحى ٠

٢ ـ ان التطورات الهـامة التى تمت فى جميع العـلوم الطبيعية خلال السنين المئـة الأخيرة بمـا فى ذلـك الكيمياء قد حدثت بسبب استخدام الطريقة العلمية فى دراسة المـادة والطاقة ٠

وعند استخدام هذه الطريقة تبذل كل الجهودللتخلص من كل احتمال من الاحتمالات الممكنة التى تجعل النتيجة التى نصل اليها راجعة الى محض المصادفة ٠

٣ ـ أسهب فى الأمثلة العلمية عن طريق الـكيمياء التى تثبت أن سلوك أى جزء من أجزاء المادة مهمـا صغر لايمكن أن يكون سلوكا عشوائيا، ناجما عن المصادفة، بل كل شىء يسير وفق قانون يهيمن على سلوكه ٠

٤ ـ ثم قال : فهل يتصور عاقل أو يفـكر أو يعتقـد أن المـادة المجردة من العقل والحكمة قـد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ؟ أو أنها هى التى أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها ؟

لاشك أن الجواب سوف يكون سلبيا. وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ، ولـكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة وعلى ذلك فان المادة ليست أبدية . ومعنى ذلك أيضا أنها ليست أزلية اذ أن لها بداية .

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة ولا تدريجية بل وجدت بصورة فجائية .

وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذى نشأت فيه المواد . وعلى ذلك فان هذا العالم المادى لابد أن يكون مخلوقا ، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان .

فاذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى يخضع لها ، فلابد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى متصف بالعلم والحكمة .

(هـ) جاء فى المقالة الخامسة من الكتاب تحت عنوان « فلننظر الى الحقائق دون ميل أو تحيز » كتبها « ادوارد لوثر كيسيل » أستاذ أحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسسكو .

١ ــ أضاف البحث العلمى خلال السنوات الأخيرة أدلة جديدة على وجود الله زيادة على الأدلة الفلسفية التقليدية .

٢ ــ لقد عمت بلادنا فى السنوات الأخيرة موجة من العودة الى الدين . ولم تتخط هذه الموجة معاهد العلم لدينا .

ولا شك أن الكشوف العلمية الحديثة التى تشير الى ضرورة وجود اله لهذا الكون قد لعبت دورا كبيرا فى هذه العودة الى رحاب الله والاتجاه اليه .

٣ ــ يرى البعض أن الاعتقاد فى أزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد فى وجود اله أزلى .

ولكن القانون التانى من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأى ، فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لايمكن آن يكـون أزليـــا ، ولا يقتصر ما قدمته العلوم على اثبات أن لهذا الكون بداية . فقد أثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ خمســة بلايين سنة • والواقع أن الكون لا يزال فى عملية انتشار مستمر تبدأ من مركز نشأته •

٤ ـ لو أن المشتغلين بالعلوم نظروا الى ماتعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذى ينظرون به الى نتائج بحوثهم ولو أنهم حرروا عقولهـــم من سلطان التـــأثر بعواطفهـــم وانفعالاتهم ، فانهم سوف يسلمون دون شك بوجود الله . وهذا هو الحل الوحيد الذى يفسر الحقـــائق . فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا دون شــك الى ادراك وجود السبب الاول الذى هو الله •

(و) جاء فى المقالة السادسة من الكتاب تحت عنوان « استخدام الأسلوب العلمى) كتبها « وونتر أوسكار لندربرج » عالم الفسيولوجيا والكيمياء،وعميد معهد هورمل سنة ١٩١٩•

١ ـ ارجع هذا العالم فى مقاله فشل بعض العلماء فى فهمهم وقبولهم لمـــا تدل عليه المبادىء الأساسية التى تقـــوم عليها الطريقة العلمية من وجود الله والايمان به الى أسباب لا صلة لها بالبحث العلمى ، وخص بالذكـــر منها سببين اثنين :

الأول : ماتتبعه بعض الجماعات أو المنظمات الالحـــادية أو الدولة من سياسة معينة ترمى الى شيوع الالحاد ومحاربة الايمان بالله ، بسبب تعارض عقيدة الايمان بالله مع صالح هذه الجماعة أو مبادئها •

الثانى : المعتقدات الفاسدة التى تجعل الناس منذالطفولة يعتقدون بآلهةعلىصورة الانسان.وعندما تنموالعقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية فان تلك الصورة التى تعلوها منذ الصغر لايمكن أن تنسجم مع أسلوبهم فى التفكير ، أو مع منطق مقبول. وأخيرا عندما تفشل جميع المحاولات فى التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة (ينظر الكاتب من خلال الديانة المسيحية الشائعة المحرفة) وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية .

ومن ثم فلا يحبون العودة الى التفكير فى هذه الموضوعات التى تدور حول وجود الله .

٢ ـ وبعد أن نبه هذا العالم فى مقاله على ما سبق وجه الى الاعتماد فى الايمان بالله على أساس روحانى ، وأوضح أن الايمان بالله مصدر لسعادة لا ينضب معينها فى حياة كثير من البشر .

٣ ـ ثم قال : « أما المشتغلون بالعلوم الذين يرجون الله فلديهم متعة كبرى يحصلون عليها كلما وصلوا الى كشف جديد فى ميدان من الميادين . اذ أن كل كشف جديد يدعم ايمانهم بالله ويزيد من ادراكهم وابصارهم لأيادى الله فى هذا الكون » .

(ز)جاء فى المقالة السابعة من الكتاب تحت عنوان (الأدلة الطبيعة على وجود الله) كتبها « بول كليرانس ابرسولد » أستاذ الطبيعة الحيوية ومدير قسم النظائر والطاقةالذرية فى معامل أوج ريدج ، وعضو جمعية الأبحاث النووية والطبيعة النووية :

١ ـ بدأ هذا العالم مقاله بكلمة للفيلسوف الانجليزى « فرانس بيكون » منذ أكثر من ثلاثة قرون :

(ان قليلا من الفلسفة يقرب الانسان من الالحاد أما التعمق فى الفلسفة فيرده الى الدين) ثم أيد كلمة هذا الفيلسوف بالشرح ٠

٢ ـ استدل على وجود الله تعالى بدليل اتفاق الناس في الشعور المشترك بوجوده فقال :

(وقد لمس الناس عامة ـ سواء بطريقة فلسفية عقلية أو روحانية أن هناك قوة فكرية هائلة و نظاما معجزا فى هذا الكون يفوق ما يمكن تفسيره على أساس المصادفة أو الحوادث العشوائية التى تظهر أحيانا بين الأشياء غير الحية التى تتحرك أو تسير على غير هدى ، ولاشك أن اتجاه الانسان وتطلعه الى البحث عن عقل أكبر من عقله وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع لكي يستعين به على تفسير هذا الكون يعد فى ذاته دليلا على وجود قوة أكبر ، وتدبير أعظم ، هى قوة الله وتدبيره ٠

٣ ـ ثم قال : وبرغم أننا نعجز عن ادراكه ادراكا كليا أو وصفه وصفا ماديا ، فهناك مالا يحصى من الأدلة المادية على وجوده تعالى ، وتدل أياديه فى خلقه على أنه العليم الذى لانهاية لعلمه ، الحكيم الذى لاحدود لحكمته ، القوى الى أقصى حدود القوة ٠

(ح)جاء فى المقالة السادسة عشرة تحت عنوان «منطق الايمان» كتبها (جورج هربرت بلونت) أستاذ الفيزياء التطبيقية ، وكبير المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة كاليفورنيا قال : ـ

١ ـ انني أومن بالله وأكثر من ذلك أنني أكل اليه أمرى ففكرة الألوهية بالنسبة الى ليست مجرد قضية فلسفية ، بل ان لها فى نفسى قيمتها العلمية العظمى ، وايمانى بالله جزء من صميم حياتى اليومية ٠

٢ ـ ثم بعد أن قرر مبدأ الأمور البديهية التى نقبل بهـا قبول تسليم وايمان . قال : وكذلك الحال فيمـا يتعلق بوجود الله ، فوجوده تعالى أمر بديهى من الوجهـة الفلسـفية ، والاستدلال بالأشياء على وجود الله • كمـا فى الاثباتات الهندسية لا يرمى الى اثبات البديهيات ولـكنه يبدأ بهـا ، فاذا كان هناك اتفاق بين هذه البديهية و بين مانشـاهده من حقائق هذا الكون ونظامه فان ذلك يعد فى ذاته دليلا على صحة البديهية التى اخترناها •

٣ ـ ثم قسم الأدلة الى أنواع فقال :

والأدلة أنواع منها : الادلة الكونية ، ومنهـا الادلة التى تقوم على ادراك الحكمة . ثم الادلة التى تكشف عنها الدراسات الانسانية •

فالأدلة الـكونية : تقوم على أساس أن الكون متغير ،وعلى ذلك فانه لايمكن أن يكون أبديا ، ولابد من البحث عن حقيقة أبدية عليا •

أما الأدلة التى تبنى على ادراك الحكمة : فتقوم على أساس أن هناك غرضا معينا ، أو غاية وراء هذا الكون ، ولابد لذلك من حكيم أو مدبر •

وتكمن الأدلة الانسانية وراء طبيعة الانسـان الخلقيـة ، فالشعور الانسانى فى نفوس البشر انما هو اتجـاه الى مشرع أعظـم •

٤ ـ ناقش وضع الملحدين فقال :

« ويلاحظ أن للملحدين منطقهم ولكنه منطق سلبى ، فهم يقولون : ان وجود الله يستدل عليـه بشواهد معينـة وليس ببراهين قاطعة ، وهذا من وجهة نظرهم يعنى عدم وجوده تعالى

انهم يردون على الأدلة الكونية بقولهم : ان المادة والطاقة يتحول كل منهما الى الآخر بحيث يمكن أن يكون الكون أزليا .

كما أنهم ينكرون النظام فى الكون ويرونه مجرد وهم :

وهكذا ينكرون الشعور النفسى بالعدالة والاتجاه نحو موجه أعظم .

ومع ذلك لا يستطيعون أن يقيموا دليلا واحدا على عدم وجود الله ، ومن منطقهم أن الأدلة المقدمة لاثبات وجود الله لا تعتبر كافية من وجهة نظرهم .

وهناك فئة أخرى من الملحدين لا يعترفون باله لهذا الكون لأنهم لايرونه ، ولكنهم لا ينفون وجود اله فى كون آخر غير هذا الكون ، ولاشك أن هذا موقف مائع متضارب لا يستند الى أساس سليم .

فاذا قارنا بين الشواهد التى يستدل بها المؤمنون على وجود الله ، وتلك التى يستند اليه الملحدون فى انكار ذاته العلية ، لاتضح لنا أن وجهة نظر الملحد تحتاج الى تسليم أكثر مما تحتاج اليه وجهة نظر المؤمن ، وبعبارة أخرى نجد المؤمن يقيم ايمانه على البصيرة ، أما الملحد فيقيم الحاده على العمى .

وأنا مقتنع أن الايمان يقوم على العقل ، وأن العقل يدعو الى الايمان ، واذا كان الانسان يعجز أحيانا عن مشاهدة الأدلة فقد يكون ذلك راجعا الى عدم قدرته على أن يفتح عينيه .

(ط) وهكذا تتسلسل مقالات هؤلاء العلماء الثلاثين من كبار العلماء الماديين المنصفين على هذا الأسلوب العلمى ، الذى يقررون فيه حقيقة وجود الله تعالى ، وهم يعلنون خشوعهم وخضوعهم بين يدى عظمته وقدرته وحكمته جل جلاله ، مقتبسين من أدلة الكون التى لا تحصى مايقنعهم في ايمانهم بالله تعالى .

وقد عرض بقية أصحاب المقالات الأخرى المثبتة فى كتاب : « الله يتجلى فى عصر العلم » أدلتهم على وجود الخالق كل ضمن مجال اختصاصه العلمى ، معتمدين فيها على الأسس التالية :

١ ـ الكون منظم بأبدع نظام وأدقه وهو موافق فى نظامه للحكمة بأرقى ما يمكن أن تكون ، سواء فى قوانينه العامة أو فى شذوذاته .

٢ ـ لايمكن أن يقبل العقل احالة هذا النظام البديع الى المصادفة ، فوجب أن يكون منظما بارادة منظم ذى قوة لانهاية لها ، وحكمة لا يوجد أحكم منها ، وعلم واسع محيط .

٣ ـ ان العلوم الانسانية تؤيد أن لهذا الكون بداية، وأنه قد بدأ بشكل مفاجىء ، وكل ما له بداية فلا بد أن يكون له مبدىء خالق ، لانه لايمكن أن يخلق نفسه بنفسه .

٤ ـ الخبرة الشخصية لكل انسان تدله على وجود الخالق .

٥ ـ لا يمكن أن تكون فكرة وجود الله خاطئة، وهى الفكرة التى يتفق على الشعور بها الناس على اختلافهم .

٦ ـ لايوجد دليل واحد للمنكرين ولكن لكل مثبت أدلة كثيرة من خلال ملاحظاته الخاصة ، مهما يكن مستوى ثقافته ومدى ذكائه .

وبعد أن عرضنا أقوال جمهرة كبار العلماء الماديين الذين عاصروا النهضة العلمية الحديثة ، ورافقوا تطور العلم الى أحدث مكتشفاته ومنجزاته ، وهناك آخرون كثيرون منبثون فى مختلف المدن الكبرى ومراكز الحضارة والعلم الحديث ، نقدم اليك نماذج من أقوال بعض العلماء والفلاسفة الكونيين ، ممن لهم شهرة كبرى فى تاريخ العلوم الكونية ، والفلسفة الانسانية المنطقية .

(أ) من أقوال تشاد والسن :

« ان مايطلب الى أى انسان سواء أكان مؤمنا أو ملحدا هو أن يبين لنا كيف تستطيع المصادفة أن تخلق هذا الكون » .

(ب) من أقوال العالم الطبيعى والكاتب اللامع (أولفروندل):

« كلما تقدمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف . فالفهم الحقيقى للعلوم يدعو الى زيادة الايمان بالله » .

(ج) من أقوال العلامة البرت اينشتين صاحب النظرية النسبية وهو حجة فى الرياضيات وفى الطبيعيات .

« ان أصحاب العبقريات الدينية فى جميع العصور قد عرفوا بهذا النوع من الشعور الديني الذى لاينتمى الى نحلة ، ولا يتمثل الله فى أمثلة بشرية » .

اننى لأرى أن أهم وظيفة من وظائف الفن والعلم هى أن يوقظا هذا الشعور وأن يستبقياه حيا فى الذين تهيأوا له » (١) .

(د) من أقوال « سير أرثر أدنجتون » من أكبر العلماء الرياضيين فى العالم : « ان تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لايسيغه العلم الحديث . وان الكون أحرى أن يفسر بالنسب الرياضية فى عقل عاقل . ولكن الانسان هو سر الكون الأكبر . وهو الذى يدرك هذه النسب ، ويدرك ما بين عقله وعقل الكون من علاقة وثيقة » (٢) .

(هـ) قال (هرشل) وهو من فلاسفة القرن الثامن عشر : انه كلما اتسع نطاق العلوم تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة وعلماء الأرضيات والهيئة

---

(١) (٢) نقلا من كتاب (الله) لعباس محمود العقاد .

والطبيعيات والرياضة يهيئون بمساعيهم واكتشافاتهم كل مايلزم لانشاء معبد العلوم ، اعلاء لكلمة الخالق (١) ٠

(و) وانظر الى مادون من آراء «لسقراط» عن تلميذه «أفلاطون» من فلاسفة اليونان القدماء : « هذا العالم يظهر لنا على هذا النحو الذى لم يترك فيه شيء للمصادفة ، بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية ، وتلك الغاية متجهة الى غاية أعلى منها ، وهكذا يتم الوصول الى غاية نهائية منفردة وحيدة ٠

من أين نشأ هذا النظام الكامل فى تفرعاته ؟ المحفوف بالعظمة والجلال من كافة نواحيه ، ليس من الممكن أن يحمل ذلك على المصادفة ٠

فلو أمكننا أن نقول : انه نشأ من تلقاء نفسه لصح لنا أن نقول : ان ألواح « بوليكلت » و « زونكريس » حدثت من تلقاء نفسها ٠

واذا ما نظرنا الى أن العناصر التى تحتوى عليها الكائنات كثيرة الى درجة لا يمكن أن يحصرها العقل كان من المحال أن نحمل وجود ذلك كله على المصادفة فلابد اذن

من وجود عقل أعلى ٠٠ وهو الصانع الوحيد لأن الطبيعة أثر يتجلى فيه الاتحاد الدال على وحدانية الصانع ، الذى ينفذ حكمه كنفوذ الفكر فى الحال بدون أى خطأ وهو حاضر غالب ـ أى عالم قادر ـ ومع هذا فمن المستحيل ادراكه بالحواس ، فهو كالشمس التى تمس جميع الأبصار لكنها لا تبيح لأحد أن ينظر اليها (٢) ٠

---

(١) هذا القول وما جاء بعده من اقوال منقولة من كتاب «عقيدة المسلم» للشيخ محمد الغزالى ٠

(٢) من تاريخ التصوف للاستاذ « محمد علي عيني بك ٠

(ز) وقد شرح « لابلاس » دليل الحركة الكونية وأبان قوة هذا الدليل فى حسم الشبهات التى يثيرها الجاحدون فقال :

« أما القدرة الفاطرة فقد عينت جسامة الأجرام الموجودة فى المجموعة الشمسية وكثافتها ، وثبتت أقطار مداراتها ، ونظمت حركاتها ، بقوانين بسيطة ولكنها حكيمة ، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس ، والتوابع حول السيارات ، بأدق حساب ، بحيث أن هذا النظام المستمر الى ما شاء الله لا يعروه خلل .

هذا النظام المستند الى حساب يقصر عقل البشر عن ادراكه والذى يضمن استمرار واستقرار المجموعة ازاء مالا يعد ولا يحصى من المخاطر المحتملة ، لا يمكن أن يحمل على المصادفات فى نظر « لابلاس » الا باحتمال واحد من أربعة تريوليونات . وما أدراك ما أربعةتريوليونات ؟ انه عدد من كلمتين ، ولكن لا يمكن أن يحصيه المحصى الا اذا لبث خمسين ألف عام يعد الأرقام ليلا ونهارا ، على أن يعد فى كل دقيقة ١٥٠ عددا .

(ح) وقال سبنسر : وقد عرف عنه أنه غير متدين : « اننا مضطرون الى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الادراك ، وأن الأديان كانت أول من قبل هذه الحقيقة العلوية ولقنها » .

(ط) كتب « كميل فلامريون » فى كتاب « الله فى الطبيعة » : اذا انتقلنا من ساحة المحسوسات الى الروحيات فان الله يتجلى لنا كروح دائم موجود فى كل شىء .

ليس هو سلطانا يحكم من فوق السماوات بل نظام مستتر مهيمن على كافة الموجودات ، ليس مقيما فى جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة ، بل ان الفضاء اللا نهائى مملوء به فهو موجود مستقر فى كل نقطة من الفضاء وكل

لحظة من الزمان ، أو بتعبير أصح : هو قيوم لا نهـــائى ، منزه عن الزمان والمكان والتسلسل والتعاقب ·

ليس كلامى هذا من جملة عقائد ما وراء الطبيعة المشكوك فى صحتها . بل من النتائج القاطعة التى استنبطت مـــن القواعد الثابتة للعلم . كنسبة الحركة وقدم القوانين ·

ان النظام العام الحاكم فى الطبيعة وآثار الحـــكمة المشهودة فى كل شىء المنتشرة كنور الفجر وضياء الشفق فى الهيئة العامة لا سيما الوحـــدة التى تتجلى فى قانون التطور الدائم تدل على أن القـــدرة الالهية المطلقـــة هى الحوافظ المستترة للكون ، هى النظام الحقيقى ، هى المصدر الأصلى لكافة القوانين الطبيعية وأشكالها ومظاهرها » ·

وكميل فلامريون . فيلسوف ينكر اليهودية والنصرانية ولا يعرف الاسلام ولكنه يعرف الله الواحد من ادمانه النظر فى العلوم بالأكوان ، وأمثاله كثيرون ·

(ى) نشرت جريدة « المصرى » القاهرية تلغرافا أذاعته وكالة «رويتر» على العالم كله ، جاء فيه: نيويورك ـ ر ـ استفتت مجلة « كوليرز » المعروفة عددا كبيرا من علمـــاء الذرة والفلك وعلم الأحياء (البيولوجيا) والرياضة ·

فأكدوا أن لديهم أدلة وقرائن كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنـــايته ورحمته وعلمـــه الذى لاحد له ·

ويقول الدكتور (راين) انه ثبت من أبحاثه فى المعامل أن فى الجسم البشرى روحا أو جسماً غير منظور ·

وقال عالم آخر : انه لا يشك فى أن الكائن الأعظم ـ وهو ما تسميه الأديان السماوية الله ـ هو الذى يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهـــر والقوانين الخـــارقة فى هـــذا الوجود ·

تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

٥ ـ اختلاف الناس فى ذات الخالق بعد الايمان بوجوده :

وبعد أن عرفنا أن العقلاء المنصفين كلهم قد استووا فى الاشارة الى خالق مدبر . وفى الايمان بذى قدرة عظيم مهيمن ، نلاحظ أنهم قد اختلفت مداركهم فى تصور ذاته وتحديد صفاته .

فمنهم من استطاع أن يفهم أنه لابد أن يكون مجردا عن مشابهة كل شيء مادى أو يسرى فى المادة . أو تتصف به المادة . وأن يكون واجب الوجود قائما بذاته لا اله الا هو لا يحتاج الى مكان ولا يجرى على ذاته زمان .

وهذه الحقيقة عن ذات الخالق هى الحقيقة التى جاءت الديانات السماوية لتروى بها غلة كل عالم باحث مفكر ، ولتطمئن بها كل ذى فطرة صافية طاهرة سليمة . وكل ذى عقل نافذ وقاد . ولتصحح بها تصورات المجسمين الماديين . والمشركين الذين تنازعتهم الأوهام والتقاليد واستحوذت عليهم الشياطين فشوهت صفاء فطرتهم . ولتحرر بها العقول البشرية من قيود المحسات وتنطلق بها الى آفاق التجريد العقلى، حتى يكون الانسان أهلا لما كرمه الخالق به اذ منحه هذا العقل الذى يستطيع أن يدرك به وجود الخالق، وتنزهه عن مشابهة الحوادث، واتصافه بكل صفة من صفات الكمال .

وكان من هؤلاء الناس الذين آمنوا بوجود الخالق صنف تخيل ذات الخالق بالمادة ، أو بما يشابه الأجساد المادية ، أو بالقوى السارية فى ذرات المادة بحسب قصر مداركه وتقيده بواقعه الذى يحسه فى نفسه ، أو فى الكون من حوله ، ولو أن هذا الصنف أصغى بتفهم وتعقل للمنطق الجلى الواضح ، الذى نزل به الوحى على الرسل لم يقع بكل هذه التخيلات الباطلة التى يرفضها العقل بقليل من التأمل والنظر المتجردين المنصفين .

٦ ـ الالحاد والملحدون :

ثم لا نجد الالحـــاد الا عند مغفلين مضـــللين ، أو مقلدين متعصبين ، أو مجرمين شـهوانيين ، أو مسـتكبرين مغـرورين بالنذر اليسير الذى تعلموه من ظواهر الكون ، فظنوا أنفسهم عرفوا كثيراً وجهلوا أنهم ما غمسوا بعد أكفهم فى شاطىء بحر صغير من بحور علم الكون ٠

وذلك أنه قد تطغى على الانسان شهواته وملاذه وأنانيته ، فيحاول أن يتهرب من بعض الحقائق التى يشعر بها فى قرارة نفسه ، ارضاء لغرائزه وشهواته التى أخذت صبغة الانحراف والشـذوذ ، أو ارضـــاء لأنانيته فى كبره واستعلائه وحبه للسيطرة والاجرام ٠

ويصح لنا اذا أمعنا النظر أن نقول : ان الالحاد بالله وانكار وجوده بعد وضوح الدلائل من خلال تأمل الانسان فى نفسه وفى الكون من حوله ليس الا تهربا من الفضيلة والحق والخير والجمال ، لتبرير أعمال الرذيلة والظلم والقبح وقلب الحقائق، ارضاء للنزوات والشهوات الجانحة الجامحة ٠

هل يستطيع أذكى واعلم ملحد فى الدنيا أن يأتينا بدليـــل واحد مقنع يدل على عدم وجود الخالق سبحانه ؟ ان الملحدين مهما اجتمعوا لذلك فلن يستطيعوا . ما يضر الملحد لـو عقل وأنصف ـ على فرض انه لم تقم لديه الدلائل القاطعة على وجود الخـالق بحد زعمه الفاسـد ـ ان يؤمن بقوة ظنية لا يوجـد ما يعارضها لا فى الظن ولا فى الوهم . فضلا عن اليقين . وهذه القوة اذا تم الايمان بها تجعل منه ومن النـاس جميعا سـعداء فضلاء ، يعيشون عمرهم عيش الرفاهية والنعيم والطمأنينـة النفسية والمحبة للخير ، بينما لا توجد قوة أخرى فى الدنيـا تستطيع أن تقف فى وجه غرائز الانسان الشاذة المجرمة وأنانيته الظالمة المستكبرة ٠

أليس يقوم فى ظن الملحدين احتمال صدق دعوة الرسل الذين يكذبونهم . وماذا ستكون حجتهم بين يدى الله اذا قال لهم يوم القيامة كذبتم رسلى . وأعرضتم عن البراهين التى بثثتها فى الوجود الدالة على وجودى ، والدالة على عدلى ، فحق عليكم عقابى ؟ .

بمثل هذا النوع من الاستدلال ناقش المؤمن من آل فرعون الذى يكتم ايمانه فرعون ومن معه . قال تعالى :

« وقال رجل مؤمن من ال فرعون يكتم ايمانه : أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لايهدى من هو مسرف كذاب » (١)

ان الملحد ليلحد بالله الحق ثم تراه يجرى وراء أوهام تافهة لا حقيقة لها فى الواقع . على توهم أن لديها بعض اللذائذ والشهوات النفسية ، أو بعض الاصلاح الفردى أو الاجتماعى .

وفيما كتبه « أندرو كونواى ايفى » من العلماء الطبيعيين ذوى الشهرة العالمية من سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٤٦ تحت عنوان (وجود الله حقيقة مطلقة) يقول :

« ويظهر أن الملحدين أو المنكرين بما لديهم من الشك لديهم بقعة عمياء أو بقعة مخدرة داخل عقولهم تمنعهم من تصور أن كل هذه العوالم سواء ما كان منها ميتا أو حيا تصير لا معنى لها بدون الاعتقاد بوجود الله . وكما قال آينشتين :

ان الشخص الذى يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيسا فحسب ولكنه غير مؤهل للحياة » .

ما هو شعور أكبر ملحد فى الدنيا ؟ اذا تراكبت عليه الهموم والأحزان والمصائب وصدمته المخاطر من كل جهة فلم يجد سببا ماديا ينقذه ؟ أفلا تتيقظ فى أشد الحالات فطرته الأولى فينادى أيتها القوة المهيمنة على الكون أسعفينى ؟!

---

(١) سورة غافر : الآية ٢٨ .

ماذا كان قول فرعون حين أدركه الغرق ؟

انه قال : آمنت برب موسى وهاورن . آمنت بالذى آمنت به بنو اسرائيل .

ان تجربة القاء الملحدين في المخاطر والمآزق التى لا يجدون لدفعها سبباً ماديا من أعظم التجارب التى تكشف عن فطرتهم الأولى السليمة الصافية ، والتى دخل اليها فيما بعد دخيل الفساد والشذوذ والاجرام ، منذ شذوا وجنحوا عن الحق بشهواتهم وآنانيتهم .

ان هذه التجربة لتكشف عن فطرتهم فيعلنون من حيث يشعرون أولا يشعرون أن الله وراء المادة هو الواحد العليم القادر المريد المتصرف بكل شيء .

انهم ينادون الله بعد الحاد ، ويلتسمون انقاذه وعونه بعد كفر ، ثم ان الله تعالى — كدليل على وجوده وقدرته واستجابته لدعوة المضطر اذا دعاه — ينقذهم وينجيهم . حتى اذا وصلوا الى شاطيء السلامة ووضعوا أقدامهم على البر الآمن فى نظرهم اذا هم يكفرون ويعودون الى سيرتهم الأولى .

تلك هى نفوسهم المجرمة التى لم تلحد بالله لانها لم تجد الدليل على وجوده ، ولكنها الحدت به لترضى استكبارها وشهواتها . فهى لا تذعن الى الله الا فى الشدائد والمآزق فاذا أنعم عليها وأنجاها كفرت بأنعمه .

وكذلك صور الله حال الكافرين فى قوله تعالى :

« واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا » (١) .

« واذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم مكر فى آياتنا ، قل الله أسرع مكرا ان رسلنا يكتبون ماتمكرون ، هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » (٢) .

---

(١) سورة الاسراء : الآية ٦٧ .

(٢) سورة يونس : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

٧ ـ بعض المسالك النظرية التى تلزم العقل بالايمان بوجـود الخالق :

ولئن كان وجود الخالق من الأمور البديهية المركوزة فى فطرة الانسان منذ نشأته الاولى ، منذ بدأ يدرك نفسه والكون من حوله كما سبق بيان ذلك •

لكنه لابد لنا من أن نسوق البراهين النظرية لعلها تستخدم كوسيلة للتعرف على صدق هذا الاحســاس الفطرى ، ولازالة ما يمكن أن يعرض على النفس من شكوك تأثرت بها من واقع البيئة المادية التى وجد الانسان فيها ، ولازالة الغشاوات التى تتعرض لها مرآة النفس من ظلمات الشهوات والغرائز المنحرفة التى دب اليها الشذوذ ، فأصبحت مستكبرة ظالمة •

واليك بعض الأدلة النظرية العقلية التى تلزم العقل بالايمان بوجود الخالق الواحد المنزه عن كل مالا يليق بكمال الألوهية •

« ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » (١) • « ولم يكن له شريك فى الملك(٢) •

الدليل الأول : دليل الالزام العقلى بين (الوجود والعدم)

١ ـ الأصل فى الخالق الوجود فوجوده واجب عقلا •

٢ ـ والأصل فى الكون العدم فوجوده ممكن عقلا •

٣ ـ ولا يمكن أن يكون السبب فى ايجاد ما الأصل فيه العدم الا واجب الوجود •

ونسير فى هذا الدليل على اربعة مراحل :

المرحلة الأولى من الدليــل :

لا يشك عاقل فى الدنيا بأن الوجود يقابله العــدم ، وأنه لا ثالث بين الوجود والعدم ، ولا ثالث وراء الوجود والعدم

هذان اثنان اذا وجد أحدهما انتفى الآخر لا محالة ، واذا انتفى أحدهما وجد الآخر لا محالة • وهنا نتساءل مع أنفسنا فنقول :

(١) سورة الجن : الآية ٣ •

(٢) سورة الاسراء : الآية ١١١ •

أيهما الاصل ؟ هل الوجــود الذى يقابله العدم العــام هو الاصل ؟ أو العدم العام هو الاصل ؟

وللاجابة على هذا التساؤل لابد أن نسلك مسلك افتراض أن أحدهما هو الاصل . ثم ننظر هل يتعارض معه على أنه الأصل ما ينقضه أو لا ؟ وعلى هذا فلنفرض أن الأصل لكل ما يخطر فى الفكر وجوده هو العدم ·

ومعنى العدم نفى ذات ما يخطر بالبال ونفى صفاته ، فلا ذات ولا قوة ولا ارادة ولا علم ولا حياة ولا أى شىء ، وبحسب هذا الافتراض نتساءل كيف استطاع العدم الذى هو الاصـــل أن يتحول الى الوجود ؟ ألسنا نشعر بوجود أنفسنا ؟ ألسنا نرى موجودات كثيرة من حولنا . والعدم معناه كما عرفناه هو النفى العام لكل ما يخطر بالبال . فكيف يأتى من هذا العدم العــام ذوات وصفات وقوى فتنطلق بنفسها من العــدم الى الوجــود ؟ وانطلاقها لا يكون الا بقوة والمفروض أن هــذه القوة عــدم أيضــا ·

انه من المستحيل بداهة أن يتحول العدم بنفسه الى الوجود أو أن يوجد العدم أى شىء ·

وقد جاءت الاشارة الى ذلك فى القرآن الكريم بقوله تعالى :

« **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون** » (١) ·

أى : هل انتقلوا من العدم الى الوجود من غير خالق ؟ أم هل كانوا هم الخالقين لانفسهم فى هذا الانتقــال ؟ وكلاهما من الأمور المستحيلة بداهة ·

وهكذا لو كان العدم هو الأصل العام لم يوجد شىء من هذه الموجودات الكثيرة التى لا حصر لها . ولذلك كان علينا أن نفهم ان الأصل هو الوجود ·

---

(١) سورة الطور : الآية ٣٥ ·

وبهذا الدليل : ثبت بشكل عقلى قاطع أنه لا يصح أن يكون العدم هو الأصل . ولما كان الامر كذلك فقد ثبت بشكل عقلى قاطع أيضا : أن الأصل هو الوجود . لأن الوجود كما سبق نقيض العدم ولا واسطة بينهما .

ثم نقول : ان ماكان هو الأصل بين شيئين متناقضين لا يحتاج وجوده الى تفسير أو تعليل . لأنه متى احتاج وجوده الى تعليل لم يكن أصلا . وانما تطلب الأسباب والتعليلات للأشياء التى ليست هى الأصل .

وبهذا الاستدلال ظهر لدينا بوضوح شيئان :

(أ) أن الأصل هو الوجود .

(ب) ان الأصل لا يتطلب فى حكم العقل سببا ولاتعليلا أكثر من أن يقال : انه هو الاصل .

المرحلة الثانية من الدليل :

اذا كان الوجود هو الأصل لامحالة فهل يمكن أن يكون لهذا الأصل بداية ؟ وهل يمكن أن يلحقه العدم ؟
وللاجابة على هذا التساؤل نقول :

١ ـ ان ما كان وجوده هو الأصل لا يصح عقلا أن يكون لوجوده بداية لأن ما كان لوجوده بداية فلابد أن يحتاج فى وجوده الى سبب أوجده ، وما كان كذلك لا يمكن أن يكون وجوده هو الأصل .

٢ ـ ان ما كان وجوده هو الأصل لا يمكن أن يلحقه العدم ، لأن كل زمن لاحق نفرض أن يطرأ فيه العدم على ما أصله الوجود نقول فيه ايضا : لا يزال الوجود هو الأصل ، ولا سبب لأن يطرأ عليه العدم أبدا ، لأنه لا يطرأ العدم على أى موجود من الموجودات الا بوصف أن يكون العدم فيه هو الأصل ، وانما انتفى ذلك فى زمن ما بسبب من الأسباب ، فهو ينتظر زوال السبب حتى يعود الى أصله .

وقد ثبت لدينا أن العدم من حيث هو مستحيل أن يكون هو الأصل العام ضد الوجود ٠

ولذلك يستحيل عقلا ان يطرأ العدم على وجود علمنا أنه هو الأصل ، والى هذه الحقيقة جاءت الاشارة فى قوله تعالى :

« **وتوكل على الحى الذى لا يموت** » (١) ٠

فالحى الذى لا يموت هو من كان وجوده هو الأصل وكذلك حياته وصفات الكمال فيه . فلذلك لا يمكن ان يطرأ عليه العدم أو الموت ٠

المرحلة الثالثة من الدليل :

علمنا فى المرحلتين السابقتين :

(أ) أن الوجود من حيث هو يجب عقلا أن يكون هو الأصل ٠

(ب) أن ما كان وجوده هو الأصل استحال ان يكون له بداية وأن يطرأ عليه العدم ٠

والآن فلنلق نظرة على الموجودات التى تقع تحت مجال ادراكنا الحسى ، فى هذا الكون الكبير ، لنرى هل تنطبق عليها فعلا الحقيقة الأولى ؟ وهى أن الأصل فيها لذاتها الوجود ٠ أو ينطبق عليها ضدها ؟ وهى ان الأصل فيها العدم ٠

وهنا تبدو لنا حقيقة أننا لم نكن ثم كنا . ونحن صنف ممتاز التكوين فى هذا العالم ، قال تعالى :

« **لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم** » (٢)

وأن أشياء كثيرة كانت فى طى العدم فى أشكالها وصورها ثم وجدت كما هو مشاهد لنا باستمرار ٠ كما تبدو لنا صورة التغيرات الكثيرة الدائمة فى كل جزء من آجزاء هذه المواد الكونية التى نشاهدها ، آو نحس بها ، أو ندرك قواها وخصائصها ٠

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٥٨ ٠
(٢) سورة التين : الآية ٤ ٠

فمن موت الى حياة ، ومن حياة الى موت ، ومن تغيرات فى الاشكال والصور الى تغيرات فى الصفات والقوى ، وكل ذلك لا يعلل فى عقولنا وفق قوانين هذا الكون الثابتة التى استفدناها من الكون نفسه الا بالأسباب المؤثرة التى تحمل سر هذه التغيرات الكثيرة المتعاقبة فى كل شىء من هذا الكون على اختلاف جواهره وصفاته ، سواء منها المتناهى فى الصغر أو المتناهى فى الكبر ·

ومن هذه الأسباب ما نشاهده ، ومنها ما نستنتجه استنتاجا، ولا نزال نتسلسل مع الأسباب حتى نصل الى سبب مجهول الذات هو سبب الاسباب الأول ·

وهنا نقول : لو كان الأصل فى هذه الموجودات المعروضة على حواسنا هو الوجود لم تكن عرضة للتحول والتغير والزيادة والنقص والبناء والفناء ، ولم تحتج صور وجودواتها وتغيراتها الى أسباب ومؤثرات ·

وبما أنها عرضة للتحول والتغير ، وبما أن قوانينها تفرض احتياجاتها الى الأسباب والمؤثرات ، لزم عقلا أن لا يكون الأصل فيها هو الوجود ، وانما يجب عقلا أن يكون الأصل فيها هو العدم ·

لذلك : فهى تحتاج فى وجودها الى سبب موجود ، وسنعرض الى مبدأ السببية فى دليل خاص · وبهذه المرحلة من الدليل ثبت لدينا ما يلى :

(أ) أن الأصل هو العدم فى جميع هذه الاشياء الكونية القابلة للادراك الحسى ، وكل ما شابهها فى الصفات ·

(ب) وحيث كان الأصل فى جميع هذه الأشياء الكونية العدم وجب عقلا أن يكون لها سبب مؤثر نقلها من العدم الى الوجود فى مرحلة وجودها الأول . ولا يزال يؤثر باستمرار فى جميع صور تغيراتها المتقنة الحكيمة ·

وقد عرض القرآن الى حقيقة أن الأصل فينا العدم وأننا لم نكن ثم كنا فى قوله تعالى :

« هل أتي على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا · انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » (١)

ومعلوم بداهة أن المسبوق بالعدم لابد له من موجد أوجده وخالق خلقه وصوره ·

المرحلة الرابعة والأخيرة من الدليل :

علمنا من المراحل الثلاث السابقة الحقائق الثلاث التالية :

١ ـ ان الوجود من حيث هو يجب عقلا ان يكون هو الأصل ·

٢ ـ ان ما كان وجوده هو الأصل استحال ان يكون له ابتداء وأن يطرأ عليه العدم ·

٣ ـ أن هذه الاشياء الكونية المعروضة على حواسنا ومداركنا والتى نحن جزء منها وكذلك كل ما شابهها : الأصل فيها العدم ويحتاج وجودها الى سبب موجد ·

وهنا نقول : حيث اجتمعت لدينا هذه الحقائق الثلاث التى لا مفر منها ولا محيد عنها فلابد لنا من التوفيق بينها بشكل تقبله العقول قبولا تاما من غير اعتراض وذلك لا يكون الا وفق صورة واحدة لا ثانية لها وهى أن نقول :

أولا : لابد عقلا من وجود موجود عظيم وجوده هو الأصل فى الكائنات ، وعدمه مستحيل ، لذلك فهو (واجب الوجود عقلا) ·

ثانيا : هذا الكون المشاهد بما فيه من أرض وسماوات ، ونجوم ومجرات . وجامد ونبات ، وأحياء وأموات ، الأصل فيه العدم ، ولابد لاخراجه من العدم الى الوجود من سبب موجد ·

---

(١) سورة الانسان : الآية ١ ، ٢ ·

ثالثـــا : لا يكون السبب الموجد للكون بجميع ما فيه الا موجوداً عظيما وجوده هو الأصل ، وهو واجب الوجود ·
وذلك هو (الله سبحانه وتعالى)

خاتمة حول هذا الدليـــل :

وبهذه الطريقة من الاســـــتدلال يســـــقط نهائيـــا تساؤل المتسائلين كيف وجد الله سبحانه ؟ لأنه تساؤل لا يعتمد عـــلى منطق وعقل ، ذلك أن مثل هذا التساؤل انما يرد فى موجود تثبت قوانينه وصفاته أن الأصل فيه العدم ، فهو يحتـــاج الى موجد حتى يوجده ويبدعه من العدم ·

أما الموجود الذى يجب عقلا أن يكون الأصل فيه الوجــود ولا يجوز عليه العدم فلا يمكن أن يتعرض وجوده الى مثل هــذا التساؤل بحال من الاحوال ، وايراد تساؤل من هذا النوع يتنافى مع الحقيقة العلمية الثابتة وهى (أن الأصل فيه هو الوجود)

الدليل الثانى : دليـــل الامكان فى الكون

بملاحظتنا لكل شىء فى الكون سواء أكان من الاشياء المادية التى يمكن أن ندركهـــا ببعض حواســـــنا كالأرض والكواكب والنجوم . أو كان صفة من الصفات القائمة فى الأشياء المادية التى تستنبط وجودها بعقولنا كالجاذبية الخاصة الموجودة مثلا فى حجر المغناطيس . و كالجاذبية العامة الموجودة مثلا بين الكتل المادية ، وكخواص المركبات المادية التى لا حصر لها فى الكون ، سواء فى ذلك الظواهر الكيميائية أو الفيزيائية ·

وبملاحظتنا لما نعقل عن جواهر الوحدات المستقلة المتحيزة التى لا تدخل فى نطـــاق احساسنا . كالملائـــكة والجن وكيفية تكوينها وأعراضها وصفاتها ·

من خلال ملاحظتنا لجميع هذه الاشياء الكونية ندرك بداهة في كل واحد منها أنه كان من الممكن عقلا أن يتخذ صورة وصفة وحالة غير ما هو عليه الآن ، فهنا لك احتمالات كثيرة لا حصر لها في مجال الممكنات . لا يرى العقل مانعاً من أن تتحول هذه الاشياء الكونية الى واحد منها ٠

فالعقل لا يمنع من أن تتخذ مثلا صورة غير الصورة التى هى عليها ، وشكلا غير الشكل الذى هى عليه أو حدا غير حدها الواقع كما وكيفا ، فتكون مثلا أكبر مما هى عليه أو أصغر ، أو مركبة غير التركيب الذى هى عليه ، أو فى حيز من الكون وزمان من الدهر غير حيزها وزمانها ، أو أن تكون لها صفات وقوى غير صفاتها وقواها ، أو حركات ومدارات وسرعات مغايرة لما هى عليه ٠

كل هذا وأمثاله من الاحتمالات التى لا حصر لها مما يجوزه العقل بداهة ، ويعتبره من الممكنات العقلية التى لو كان تركيب الكون على وفقها لم يكن فى ذلك منافاة لأصل عقلى ٠

فما المانع مثلا من أن يكون الليل والنهار سرمديين ؟ وما المانع العقلى من أن يكون الانسان على غير هذا الوضع القويم أو أكبر أو أصغر مما هو عليه جسدا وهامة ؟ وما المانع من أن يكون العقل فى البهائم والنطق فى العجماوات ؟ وما المانع من أن تكون الأرض أدنى الى الشمس والقمر من الوضع الذى هى عليه ؟ أو غير ذلك من أشياء كثيرة ٠

فان قيل : ان الحكمة تقتضى أن تكون هذه الاشياء كما هى عليه الآن والا لاختل النظام وفسدت النتائج المرجوة من هذا الكون قلنا : الحكمة صفة الحكيم ، وذلك الحكيم هو الله تعالى ٠ ونقول من ناحية أخرى : بما أن كل شىء فى هذا الكون يحتمل

أن يكون على واحد من أوضاع كثيرة غير الوضع الذى هو عليه ، فان عقولنا لابد أن تحكم بداهة بأن ما كان كذلك فلابد له من مخصص قد خصصه باحتمال موافق للحكمة والابداع والاتقان من جملة احتمالات كثيرة ، ولولا وجود المخصص للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجح ، أو القول بأن موافقة الحكمة فيما لا حصر له من الأعداد كان على طريقة التصادف ، وكلاهما مستحيل عقلا ، ونحن بوصفنا عقلاء فى هذا الكون لا نقبل أن نلتزم المستحيلات ، بينما نرى أن قوانين هذا الكون ثابتة لا تتخلف أبدا ، ومن قوانينه رفض الترجيح بلا مرجح ، ورفض احتمال المصادفة فى نظام هذا الكون البديع ٠

وأى الامرين أسلم وأكثر قبولا فى العقل : هل احالة هذا النظام الحكيم البديع فى الكون الى حكم المصادفة المستحيلة فى العقل ؟ أم الى حكمة مخصص حكيم قد خصص هذا الممكن فى احتماله الموافق للحكمة ؟

ولما ثبت لدينا احتياج هذه الممكنات الى المخصص الحكيم فان عقولنا تحكم بشكل قاطع أن هذا المخصص يجب أن لاتكون ذاته أو صفاته محلا لأى احتمال من الاحتمالات الممكنة التى تتعرض لها هذه الأشياء الكونية فى نظر العقل ، وانما يجب أن يكون على وضع ثابت واجب عقلا لا يقبل العقل بحال من الأحوال أن تحتمل ذاته أو صفاته وضعاً آخر ٠

هذا الموجود الثابت فى ذاته وفى صفاته والذى يوجب العقل أن يسند اليه تخصيص هذه الممكنات فى واحد من احتمالاتها الكثيرة ، هو واجب الوجود ، وليس بممكن الوجود حتما (وهو الله تعالى) وبذلك يثبت المطلوب ٠

ونستطيع أن نسمى هذا الدليل بـ (دليل الامكان فى الكون) ٠

وقد أشار القرآن الى دليل الامكان فى عدة آيات منها ما يلى :

(أ) قوله تعالى :

« **ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا** » (١) .

(ب) وقوله تعالى :

« **قل : ارايتم أن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟! قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ افلا تبصرون ؟!** » (٢) .

(جـ) وقوله تعالى :

« **ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد** » (٣) .

(د) وقوله تعالى :

« **قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ؟!** » (٤)

(هـ) وقوله تعالى :

« **أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما فظللتم تفكهون . انا لمغرمون . بل نحن محرومون ، افرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون** » (٥) .

فقد بين الله سبحانه فى هذه الآيات وأمثالها من القرآن الكريم أن الصور والأنظمة والأوضاع التى نشاهدها فى الكون من الممكن أن تتخلف وتتغير ، وأن تتحول من وجود الى عدم ومن وضع الى وضع ، وذلك بقدرة الله تعالى . فاذا أراد أن يسلب هذه النظم الحكيمة القائمة فى الكون وينجم عن ذلك الاضرار بحياة الناس فى الأرض فهل يستطيع أحد غير الله أن يثبتها على أوضاعها ؟ .

فلو جعل الله الظل ساكنا لا ينسخه الضياء ، ولو جعل الله

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٤٥ .

(٢) سورة القصص : الآية ٧١ ، ٧٢ .

(٣) سورة ابراهيم : الآية ١٩ .

(٤) سورة الملك : الآية ٣٠ .

(٥) سورة الواقعة : الآيات ٦٣ ـ ٧٠ .

الليل سرمدا او النهار سرمدا . فماذا سيكون وضع حياة الانسان على وجه الأرض ؟ لاشك أن ذلك سيكون خطرا محدقا بالمجموعة البشرية ، لأن النهار بشمسه سبب دفئهم ورزقهم ، والليل بسكونه وظلمته لباسهم وراحتهم بعد المشقة والتعب .

ثم أليس من الممكن أن يذهب الله هذا الخلق ويأتى بغيره ؟
أليس من الممكن أن يغور الله الماء فى الأرض فلا يستطيع الناس له طلبا ؟

أليس من الممكن أن يجعل الله الزروع والثمار حطاما فيحرم الناس من أرزاقها ؟

أليس من الممكن أن ينزل الله الماء من السحاب مالحاً كدراً أجاجا ، غير صالح للشرب ورى المزروعات ؟

اذا كان ذلك من الممكنات فلابد أن يكون وضعها القائم فعلا ممكنا أيضا ، لأنه أحد الاحتمالات المقابلة للصور المفروضة واذا كان ممكنا فلابد أن يكون له مخصص قد خصصه بأحد أحواله المحتملة .

وهذا المخصص هو الموجد الذى أوجدها من عدم ، اذ الأصل فى جميع الممكنات العدم ، ولا تخرج من العدم الى الوجود الا بموجد قادر حكيم (وهو الله سبحانه) .

الدليل الثالث : دليل التغير والسببية

ونسير فى هذا الدليل على ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى من الدليل

ننظر الى الموجودات الكونية سواء منها الموجودات المادية المدركة بالحس أو الموجودات الأخرى الخارجة عن نطاق الادراك الحسى والتى نستنتج وجودها ببرهان العقل .

فنلاحظ أن حوادث التغير لا تنفك عنها أبداً ، فما من شىء فى هذا الكون الفسيح الا ونلاحظ أنه فى أوضاع من التغيرات الكثيرة بشكل مستمر ، وهذه التحاويل الكونية فى المواد

الكيميائية حوادث مستمرة ، وهذه الأعراض فى الظواهر الفيزيائية فى تغير مستمر ·

نرى ذلك فى تحول البذور الى أشجار وثمار ، ثم تحولها الى رماد أو هشيم يتفتت ثم يتحول الى عناصره الكيمائية والفيزيائية البسيطة أو المركبة ·

ونرى ذلك فى تحول الأغذية الى دماء فى الاحياء ثم الى نطف ثم الى أحياء أخرى لها وحدات مستقلة فى صفاتها وأعراضها وخصائصها وأعمارها وطباعها ·

ونرى ذلك فى الحركة الدائبة فى هذه الكرات الكونية السابحة فى أفلاكها ، وفى عوالم المجرات الكونية الكبرى كما يذكر علماء الفلك ·

ونرى ذلك فى الحركة الدائبة فى الذرات ، كما يذكر علماء الذرة فى حديثهم عن الاليكترونات السالبة والموجبة ·

ونرى ذلك فى تحول الصوت الى كهرباء ، والكهرباء الى اهتزازات فى الفضاء ، ثم تعود كرتها الثانية حتى ترجع فتظهر أصواتا فى الأجهزة اللاقطة (الراديو) ·

ونرى ذلك فى تبخر الماء وتجمعه سحباً ، ثم تميعه وهطوله غيثا يحمل الخير والخصب لأرض مجدبة ميتة عطشى ·

ونرى ذلك أيضا فى تحول الفحم مثلا الى ماس فى الأزمان الطويلة ، وتحول الصخور بمرور الدهور من صفة الى صفة ، ومن وضع الى وضع ، بتأثير أنواع الحرارة والضغوط ·

ونرى ذلك يوميا فى تعاقب الليل والنهار ، وطلوع الشمس والقمر وغروبهما ، وظهور النجوم وأفولها ·

ونرى ذلك فى تعاقب الصيف والشتاء ، والحر والبرد . كما نراه فى الحياة والموت ، ومعلوم أن الحياة أكبر ظاهرة من التحول عجيبة يولد سرها مع الاحياء كمينا مجهولا فيها . ثم يموت سرها مع الاحياء اذا ماتت ·

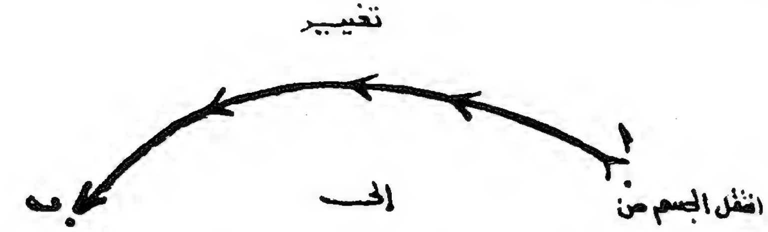
الى أشياء أخرى كثيرة لا تتناهى استقصاء وحصرا . ومنها أشياء تكون حالة التغير فيها ظاهرة سريعة . كالحيوان والنبات . أو بطيئة لا تظهر لا نظارنا الا بالوف السنين أو بملايينها . كالتغيرات الكونية التى تظهر فى عوالم النجوم وفى الأجسام الجامدة الصلبة .

اننا نعيش اذن فى عالم نستطيع أن نسميه (عالم المتغيرات) وبعد هذه المقدمة المزودة بأمثلة كونية متعددة نستطيع أن نمثل حالة التغير هذه فى كل جزء من الكائنات فى هذا العالم المادى الفسيح . مبتدئين من لحظة تفكيرنا الآن . وراجعين بذلك الى الزمان الماضى على شكل خط متموج .



المرحلة الثانية من الدليل :

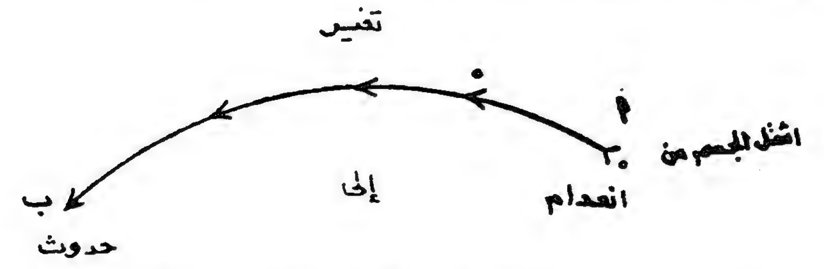
ثم نقول : ان التغير لا ينفك عقلا عن معنى الحدوث . لأنه لو فرضنا أنه حصل تغير فى المكان لجسم من الأجسام . مع العلم بأن التغير المكانى هو أبسط أنواع التغيرات الكونية على الاطلاق ولنرمز للمكان الذى كان فيه هذا الجسم بنقطة (أ) وللمكان الذى انتقل اليه الجسم بنقطة (ب) ولنضع ذلك على الشكل التالى :



فالحادثة حادثة تغير مكانى من نقطة (أ) الى نقطة (ب) ونستطيع هنا أن نقول ان الجسم قد حدث وجوده فى نقطة (ب) بعد أن لم يكن ، وانعدم وجوده من نقطة (أ) بعد أن كان .

وبهذا نرى أن هذا التغير المكاني الذى هو أبسط أنواع التغيرات لم ينفك عن معنى الحدوث فى جهة والانعدام من الجهة الأخرى ٠

ونعيد الشكل السابق باضافة كلمة (حدوث) الى جانب نقطة (ب) وكلمة (انعدام) الى جانب نقطة (أ) ٠



هذا فى التغيرات المكانية . فكيف بالتغيرات الجوهرية التى تتناول التغيرات فى التركيب والصفات والخواص وغير ذلك ؟

المرحلة الثالثة من الدليل :

وبملاحظتنا للقوانين العامة لهذا الكون التى لم تتخلف فى شىء منها ، والتى هى من الأمور البديهية فى نظر الناس وفى نظر العلم التجريبى . نرى أنه لابد لكل تغير يحدث فى أى جزء من أجزاء الكون من سبب أثر فيه تأثيرا يكفى لأن يحوله ويغيره من وضع الى وضع آخر ٠

ثم نقول ان أبسط أنواع التغيرات وهو التغير المكانى كانتقال قطعة من الصخر مثلا من نقطة (أ) الى نقطة (ب) لا يسلم عاقل من العقلاء أن هذا التغير يحدث بنفسه من غير سبب يؤثر فيه ذلك الانتقال . تطبيقا لمبدأ السببية البدهى فى عقولنا ، والذى استنتجناه من قانون الكون الدائم . فلو وضعت فى صندوقك المقفل مثلا ما جمعته من نقود ذهبية فى صرة خاصة ، ثم غبت عنه يوما ورجعت اليه بعد ذلك . فلم تجد صرة نقودك ، وبعد البحث الشديد والتحرى وجدت نقودك كلها داخل صرتك الخاصة فى صندوق جار لك . ولما ثبت أنها هى نقودك وصرتك فعلا ادعى أمام القاضى أنها انتقلت الى صندوقه

بنفســها ، ذلك أنه رآها تمشى فى الهــواء بنفسها متجهــة الى صندوقه ، ومازالت العقبات تذلل فى الطريق دون وساطة أحد فتنفتح مغاليق الأبواب بنفسها . وتنشق الجدران بنفســها ، ونحو ذلك من أخيلة خرافية ، حتي وصلت الى صندوقه ودخلت فيه وهو لا يعلم من أين جاءته ، وقد فرح بها وظن أنها اختارته دون غيره .

لو ادعى من وجدت نقودك عنده هذه الدعوى فهل تصدقه ؟ أو هل يوجد عاقل فى الدنيا يصدقه أو يسلم بما يقول ؟

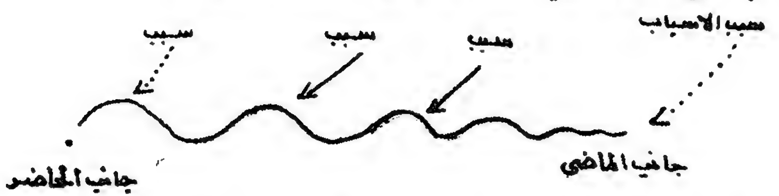
ان هذا التغير وهو أبسط أنواع التغيرات لا يســلم العقلاء أنه حدث بنفسه ، فما بالك بالتغيرات الجوهرية فى التركيب والتحليل ، وتحول التراب الى أغذية والأغذية الى أجسام ، حية متحركة ، دبت فيها الحياة فأصبح منها المدرك العاقل ذو القوة الفائقة التى يستطيع بها أن يفعل الأعاجيب ، ويستخدم قوى الكون الكامنة ، فيتصرف فيها تصرفات عجيبة ، فلربما استطاع أن يطلق من مكامن القوى فى الكون قوى تبدد المدن والقرى ، وتزلزل الجبال الراسيات ، وتثير التيارات فى المحيطات .

ان من المسلم به أن كل هذه التغيرات الكونية لابد لها قطعا من سبب حقيقى كامل القدرة صدرت عنه هذه القوى الكونية الكبرى ، وتمت بخلقه هذه التغيرات الكونية الهائلة ، والحوادث العجيبة ، وكامل الحياة أيضا دبت عنه صورة الحياة فى الأجساد الحية . وكامل العلم صدرت عنه العقول القابلة للعلم والمعرفة، وكامل الحكمة صدر عنه كل أمر متقن محكم ، الى غير ذلك من صفات الكمال ، ولا يمكن أن يكون هذا القــادر الحى الحكيم العليم الا منزها عن التغير والتحول والضعف . فلابد أن يكون ثابتاً كامل الصفات واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته ، لئلا يلزم احتياجه الى سبب آخر ، بمقتضى التشابه بينه وبين عالم المتغيرات لو كان كذلك ، وهو محال عقلا ، وهذا الذى هو واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته (هو الله تعالى) .

ولذلك نعيد الشكل السابق باضـــافة السبب المؤثر قبــل نشطة (أ) ؟



واذا رجعنا الى ايضاح فكرة السببية فى الخط المتموج الذى رمزنا به الى صورة التغيرات الدائمة فى كل ذرة من هذا الكون عند كلامنا على المرحلة الاولى من الدليل لزمنا أن نضيف الى جانب كل موجة تغير سبباً ما وفق الشكل التالى :



وبذلك نرى أنه لابد أن ننتهى فى آخر الأمر الى سبب الأسباب الذى هو السبب الحقيقى الاول فى كل حادثة تغير ، ولا يكون هذا الا واجب الوجود كامل الصفات (وهو الله سبحانه وتعالى) •

أمثلة من اقامة الحجة بمضمون هذا الدليل :

١ ـ وهذا الدليل نفسه هو الدليل الذى اعتمد عليه أبو حنيفة رضى الله عنه حينما أقام الحجة على الزنادقة مثبتا لهم وجود الله تعالى •

فقد ذكر المؤرخون فى مناقبه : أن بعض الزنادقة طلبوا اليه أن يجادلوه فى الله فلاكر لهم موعدا يأتى اليهم فيه لمجادلتهم واقامة الحجة عليهم بوجود الله سبحانه •

ولما حان الموعد تأخر عنهم رضى الله عنه وهم ينتظرون ، ثم قدم اليهم بعد أن يئسوا من مجيئه ، فعاتبوه فى التأخر ، فقال لهم معتذرا : لقد قدمت اليكم فى الموعد المحدد ، ولكننى لبثت طويلا على شاطىء دجلة باحثاً عن صاحب زورق يجتاز بى النهر فما وجدت ، ولما يئست وهممت بالرجوع رأيت ألواحا من الخشب قادمة بنفسها ، وجعلت تنضم الى بعضها حتى صارت بين يدى زورقا حسنا ، فركبته وقطعت به النهر وقدمت اليكم الآن •

فقال الزنادقة جميعا لابى حنيفة : اتهزأ بنا ؟ وهل يمكن أن تأتى ألواح بنفسها كما وصفت فتكون زورقا ؟ فقال لهم : هذا ما اجتمعتم لتجادلونى به . فاذا كنتم لا تصدقون أن زورقا يصنع نفسه بنفسه ، فكيف تريدون منى أن أصدق أم كيف تصدقون أنتم فى عقولكم أن هذا الكون المتقن العجيب قد جرت حوادث تغيراته بنفسه دون خالق عظيم ؟ فبهت الزنادقة وقامت عليهم الحجة الدامغة . وأسلموا على يده رضى الله عنه .

هذه القصة عرضت لك فيها معنى ما جرى بين أبى حنيفة ومجادليه دون التزام لحكاية الألفاظ .

٢ ـ ان فكرة التغير والسببية قد قامت فى عقول أكثر الفلاسفة القدماء فجعلتهم يؤمنون بواجب الوجود ، ذلك أنهم رأوا أحوال الأرض وتغيراتها فثبت لديهم أنها بحاجة الى مؤثر ، وحكموا فى فلسفتهم بذلك . ولكن بعضهم لما نظروا الى الافلاك زعموا أن اتصاف السموات بمقاديرها وأحيازها وأوضاعها وحركاتها أمر واجب لذاته . ممتنع التغير عن هذا الوضع ، فيستغنى عن المؤثر . ثم أرادوا بيان المؤثر فى أحوال الارض وتغيراتها قالوا : نحيل ذلك الى الافلاك والكواكب والنجوم التى هى واجبة الوجود . ولما رأوا فى الأرض الحياة والعقل لزمهم أن يقولوا : ان الأفلاك عاقلة حية ، حتى استطاعت أن تمد أحياء الارض بالحياة والعقل . ومن ثم قامت عندهم فكرة العقول العشرة وما الى ذلك من ضلالات .

لقد ألزمهم التفكير من جهة الأرض بوجوب التسليم عقلا بواجب الوجود . ولما جهلوا مشابهة السماء للأرض ورأوها فى حد نظرهم ثابتة الصفات زعموا أنها هى واجبة الوجود ، فألهوا الأفلاك .

وهنا أرشدهم سيدنا ابراهيم عليه السلام فى محاجته لقومه الى مماثلة الأفلاك والنجوم وكل ما فى السماء للارض فى تغيراتها التى يقضى العقل بأنها حوادث تحتاج الى مؤثر واجب الوجود . وأثبت لهم أن الرب تعالى الذى هو واجب الوجود غير هذه الاجرام السماوية التى يؤلهونها . بدليل أفولها وتغيرها المشاهد بالحس ، وقد حكى الله عنه ذلك بقوله تعالى :

« **فلما جن عليه الليل رأى كوكبا . قال هذا ربى ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين** » (١) .

وكانت فلسفة ابراهيم عليه السلام فى نظره العميق هى طريق ايمانه بالله أول الأمر . ثم جاءته النبوة فكان من المرسلين .

٣ ـ قام هذا الدليل نفسه فى نفس الاعرابى الذى قال ببداهته (وأثر الأقدام يدل على المسير فسماء ذات ابراج وأرض ذات فجاج أفلا تدلان على الواحد القدير) .

٤ ـ قام هذا الدليل نفسه فى عقول كثير من العلماء الماديين الطبيعيين واستدلوا به على وجود الخالق جل وعلا .

ومنهم (أندرو كونواى ايفى) من العلماء الطبيعيين ذوى الشهرة العالمية من سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٤٦ فقد كتب يقول تحت عنوان (وجود الله حقيقة مطلقة) (ان أحداً لا يستطيع أن يعمل الا على أساس السببية : اننى أسلم أن لقانون السببية وجوداً حقيقياً) .

التنبيه على دليل التغير والسببية فى القرآن الكريم :

لقد نبه القرآن الكريم على معنى التغير الدائم القائم بكل شىء فى هذا العالم فى كثير من الآيات الكريمة التى تتضمن لفت النظر الى وجود الله سبحانه ، والى صفة خلقه للاشياء .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٦ .

ولئن كنا عبرنا بلفظ السبب ومعنى السببية من وجهة النظر التى سقناها فى الدليل ، فان الله سبحانه قد اختار فى القرآن اللفظ الأدق فى التعبير والذى يتناسب مع صفة الالوهية . ألا وهو لفظ (الخلق) ذلك أن السببية متى انتهت الى العليم الحكيم المريد المختار القادر على كل شيء كانت خلقاً .

فلكل صورة من صور التغير فى هذا العالم الذى أسميناه عالم المتغيرات خلق ربانى . كان هو السبب فى حدوث ظاهرة التغير .

وما أكثر الآيات القرآنية التى تشير الى مضمون هذا الدليل بصيغة الخلق . لأن صيغة الخلق هى التى تتناسب مع الألوهية كما بينا ، ومن تلك الآيات القرآنية الكثيرة قوله تعالى :

« والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم ازواجا ، وماتحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه » (١) .

وقوله تعالى : (٢)

« ألم تر أن الله يزجى سحابا ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ، والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، ان الله على كل شيء قدير » (٣) .

اننا نرى هذه الآيات وأمثالها فى القرآن الكريم تتحدث عن التغيرات الكثيرة التى نشاهدها فى هذا العالم . وتشير الى أن هذه التغيرات لابد لها من سبب . وأن سببها الحقيقى الأول لابد

---

(١) سورة فاطر : الآية ١١ .

(٢) سورة النور : الآيات : ٤٣ . ٤٤ . ٤٥ .

(٣) يزجى سحابا : يسوقه سوقا رفيقا الى حيث يريد . يجعله ركاما : متراكما بعضه فوق بعض . الودق : هو المطر . السنا : شدة الضوء .

أن ينتهى الى معنى الخلق والابداع ، وذلك لا يكون الا من صفات الخالق . وعلى طريقة الايجاز القرآنى واختصار سبيل الحجة ذكرت الآيات القرآنية الخلق من أول الأمر .

فتحويل الاتربة بوساطة المـاء الى أغذية والأغذية الى دماء ، والدماء الى نطف ، ثم تحويلها الى بشر سوى منه الذكر ومنه الأنثى .

وازجاء السحاب والتأليف بينه وجعله ركاما واخراج الودق من خلاله وانزاله على أرض دون أرض وفق المشيئة ، واضاءة البرق وسط السحب ، وتقليب الليل والنهار ، وتحويل المـاء الى دواب حية ، وجعـل الدواب على أنواع مختلفة وأصـناف متعددة .

كل هذه الاشياء ونظائرها التى لا تحصى صور من التغيرات الكونية الدائمة . التى تتطلب فى نظر العقل سبباً مؤثرا ، وقد عرفنا أنه متى انتهى السبب المؤثر الى سبب الأسباب كان ذلك خلقاً لا محالة ، لأنه لا يكون سـبب الاسباب الا قادراً عليمـا مريدا مختارا حكيما ، وذلك هو الله تعالى ، وكل أفعاله خلق ، لذلك فهو يخلق ما يشاء ، وهو على كل شىء قدير .

الدليل الرابع دليل الاتقان فى الكون

من أعظم ما يدهشنا فى أنفسنا وفى الكون من حولنا هو هذا الاتقان العجيب فى الصنع والتركيب فما تصادف من شىء فى الأرض ولا فى السماء الا وهو فى غاية الاتقان ، مركب ، أحكم تركيب يؤدى به الى غايته التى خلق من أجلها ، باعتباره جزءا من وحدته التى هو أحد أجزائها ، أو باعتباره فردا فى مجموعة هو واحد من نوعها ، أو باعتباره مجموعة هى واحدة من جنس مجموعات كثيرة ، كل ذلك فى جملة هذا الكون الذى تنظمه

وحدة مهيمنة لا يستطيع أى جزء منه أن يتحرر منها أو يفلت من قانونها .

أليس من الاتقان العجيب هندسة هذا الكون فى مخطط كواكبه ونجومه ؟ حتى أن أى تغيير فيه يؤدى به الى الخلل والنقص ، أو الخراب والفساد . سل عالم الفلك يظهر لك من دقائق اتقان الكون ما هو فوق الدهشة والحيرة .

أليس من الاتقان المدهش هندسة هذا الانسان فى خلقه وتكوينه ؟ سل عالم التشريح عن مخطط جسم الانسان واتقانه وخواصه وميزه ، يبين لك من صنعه عجباً يدهش العقول ويحير الألباب .

أليس من الاتقان البديع المحير هذه المجموعات الكبرى فى عالم الحيوان ؟ سواء منها الطائر والسابح ، والماشى والزاحف ، بأنواعها المختلفة المتقنة فى أشكالها وأوضاعها ، وألوانها وخواصها وطبائعها وطرق عيشها وكبيرها وصغيرها، سل عالم الحيوان عن عجائب الحيوانات وغرائبها ، واتقان تكوينها يبد لك من أمرها عجبا يسلمك الى الحيرة والدهشة فى مدى حكمة صانعها .

أليس من الاتقان البديع المدهش هذه المجموعات الكبرى فى عالم النبات ؟ سواء فيها أشجارها وزروعها ، هوائيها ومائيها بثمارها وأزهارها وأوراقها وأخشابها ، ولدنها وصلبها ، بألوانها وأشكالها وطعومها وروائحها ، وخواصها ، سل عالم النبات عن النباتات يشرح لك من أمرها ما يفجر فى قلبك الايمان بصانعها العظيم ، الذى أتقن كل شىء صنعا .

أليس من الاتقان البديع تكوين الارض ؟ ببحرها ويابسها بجبالها وأغوارها ووديانها وسهولها وصخورها ومالها وأتربتها ومعادنها ، بينابيعها وأنهارها ، بألوانها وطرقها ، بحرها وبردها ، وصيفها وشتائها ، بليلها ونهارها ، بسيرها فى فلكها ودورانها حول محورها ، بجميع خواصها وصفاتها ،

سل عالم الجغرافية وعالم الكيمياء وعالم طبقات الارض ، سل عالم الطبيعة أيا كان اختصاصه يظهروا لك من اتقـان تكوين الأرض عجبا يهديك الى رشدك . ويعرفك بوحدة الصانع الحكيم الذى آتقن كل شيء صنعا .

انه كلما تقـدم العلم وازدادت المعـارف التجريبية تعرف الانسان على دقائق جديدة من اتقان الصنع فى هذه الموجودات الكونية ازداد ايمانا بالصانع العظيم .

ثم اننـا لا نرى ترتيبـا متقنا محـكما فى أى مركب من المركبات الا ويستدعى ذلك فى أذهاننا للتفكير بمن أتقنه ورتبه هذا الترتيب المتقن الحكيم .

ذلك أن احتمال الاتقان الموافق للحكمة فى مركبات تزيد أجزاؤها على عشرة أجزاء ذو نسبة عددية ضئيلة جدا ، بالنظر الى الاحتمالات الأخرى غير المتقنة التى تفوق كثرتها الحصر ، والتى يمكن أن تتألف هذه المركبات على وفقها لو أنها كانت على سبيل المصادفة .

وان عقولنا متى لاحظت مركباً على وجه الاتقان والحـكمة فانها لا شك تفرض بداهة أن متقنا ما حيا عالماً قادراً مريدا حكيما قد أتقن ترتيبها .

كما أنها ترفض رفضا قطعيا أن يكون ترتيبها قد جاء على طريقة المصادفة لأن صورة الاتقـان على سبيل المصـادفة فى فى المركبات ذات الأعداد الكبيرة من المسـتحيلات فى مألوف العقلاء كما أنها من المسـتحيلات أيضا فى نظـر الحسـاب الرياضيين .

وفى الامثلة القريبة البسيطة من حياتك :

تدخل الى دار فترى أثاثهـا مرتبـاً بنظـام حسن موافق للمصلحة ، فتقول بداهة لا شك أن هذا الترتيب لم يأت عن طريق المصادفة وانما هو بفعل فاعل مختار ، ذى نظر صحيح .

ويعرض عليك بائع الساعات ساعة لتشتريها ، فتسأل أول ما تسأل بعد أن يسرك شكلها عن الصانع الذى صنعها ، لتعرف مستوى مهارته وجودة صناعته وخبرته ، حتى تطمئن على حسن سيرها فى المستقبل ، وعلى دقة ضبطها للوقت ، لأنك تعلم أنه يتوقف ما تطلبه منها من ضبط ومتانة على مقدار مهارة الصانع واتقانه ونصحه ·

اننا نؤمن بالصانع بداهة فى كل الأمور الجزئية متى كانت موافقة للحكمة والمصلحة ، أفلا نؤمن بالصانع العظيم الحكيم ؟ بالله رب العالمين من خلال موجودات لا تحصى فى هذا الكون ، كل جزء فيها موضوع فى مكان لو وضع فى غيره لتعطلت الحكمة منه ، ولو وضع غيره ، فى مكانه لحصل الخلل أيضا فى الترتيب والنظام ووجه الاتقان ·

ان اتقان الصنعة فى هذا العالم الزاخر بالمتقنات دليل واضح على الصانع المتقن الحكيم العليم ، يشهده من الناس العالم والجاهل ، الغبى والعاقل ، الصغير والكبير ، ويحكم به بداهة بأن الله حق ، وهو على كل شيء قدير ، وليس فوق حكم البداهة حكم لعاقل ·

هذا عرض لدليل الاتقان ، وقد سماه الكثيرون دليل العناية، لأن ظاهرة الاتقان يلاحظ فيها أول ما يلاحظ عنـاية الحكيم العليم بخلقه ، وتهيئته صور الاتقان المناسبة لمصالحهم ·

التنبيه القرآنى على مضمون هـذا الدليل :

ولقد جاء التنبيه على مضمون هذا الدليل بشكل مجمـل فى قوله تعـالى :

« وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء انه خبير بما تفعلون » (١) ·

كما جاء ايضاحه فى كثير من آيات القرآن الكريم على وجه فيه شيء من التفصيل والتنبيه على كثير من صور الاتقان البديع

---

(١) سورة النمل : الآية ٨٨ ·

فى هذه المتقنات الكونية ، حيث لم يوجد شىء منه الا متقنا محكماً •

منها قوله سبحانه وتعالى : (١)

« ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا » (٢) •

ففى هذه الآيات من سورة النبأ تنبيه على جزئيات كثيرة يتجلى فيها اتقان صنع الله لمن تدبر وعقل •

ومنها قوله تعالى : (٣)

« قتل الانسان ما أكفره ، من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره ، كلا : لما يقض ما أمره، فلينظر الانسان الى طعامه ، انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم » (٤) •

وفى هذه الآيات أيضا من سورة عبس صور كثيرة من صور اتقان صنع الله فى خلق الانسان ، وفى خلق ما يحتاجه فى حياته ، من طعام نباتى ، وطعام حيوانى ، وما يحتاجه فى

---

(١) سورة النبأ : ٦ ــ ١٦ •

(٢) مهادا : فراشا للاستقرار عليها • أوتادا : أى كالأوتاد للأرض ، لئلا تميد بنا سباتا : قطعا لأعمالكم وراحة لأبدانكم • سراجا وهاجا : مصباحا غاية فى الحرارة وهى الشمس • المعصرات : السحائب • ماء ثجاجا : منصبا بكثرة • ألفافا : ملتفة الأشجار لكثرتها •

(٣) سورة عبس ، الآيات ١٧ ــ ٣٢ •

(٤) قتل الانسان : لعن الكافر أو عذب • فقدره : فهيأه لما يصلح له • قضبا : علفا رطبا للدواب • حدائق غلبا : بساتين عظاما متكاثفة الأشجار • أبا : كلأ وعشبا ، أو هو التبن خاصة •

حياته من وسائل نقل حيوانية انها صور متكررة فيما نشاهد فى هذه الأرض ، ولكن فيها عبرا كثيرة تنطق بعظمة متقنهـا وخالقها لمن أراد أن يذكر أو أراد أن يكون شاكرا لنعم الله التى لا تحصى ٠

ومنها قوله تعالى : (١)

« تبارك الذى جعل فى السماء بروجا، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » (٢)

وهاتان أيتان من سورة الفرقان فيهما تنبيه على مظاهر اتقان صنع الله فى الشمس والقمر والنجوم وتعاقب الليل والنهار ، وفى هذا المظهر من مظاهر صنع الله المتقن مجال واسع جـدأ لعلماء الفلك الباحثين ٠

صفات الخالق جل وعلا

ظاهرة العمل المتقن تدل على صفة الاتقان لدى من قام به ، فالقصر الجميل المتقن فى بنائه المتقن فى هندسته ، المتقن فى أثاثه وتزيينه ، يدل بداهة على أن من هندسه وبناه وأثثه وزينه متقن ، خبير بالهندسة ، حسن الذوق فى اختيار الأثاث وتزيين القصور ٠

والمكنة الآلية التى تؤدى عملها أداء جيدا تدل بداهة على أن مبتكرها وصانعها ذو معرفة بالآلات الصناعية وهندستها ، وذو مقدرة على الابتكار والاتقان يستلزم العلم والحكمة (وهى حسن اختيار الاحتمال الأفضل من الوجوه المختلفة) ويستلزم أيضا القدرة على التنفيذ ٠

فاذا بدت ظاهرة الاتقان فى العمل دلت هذه الظاهرة على أن من قام بهذا العمل لديه من العلـم والحـكمة والقدرة على

---

(١) سورة الفرقان : الآيات : ٦١ ، ٦٢ ٠

(٢) بروجا : منازل للكواكب السيارة ٠ سراجا : شمسا ٠ خلفة : أى يتعاقبان فى الضياء الظلمة ٠

التنفيذ بمقدار ما يتطلب هذا العمل من علم وحكمة وقدرة على أقل تقدير ٠

وظاهرة العمل الكبير الضخم الذى يتطلب قدرة عظيمة تدل بداهة على أن من قام بهذا العمل الكبير لديه من القدرة ما يكفى للقيام به ، وقد يكون لديه أكثر من ذلك ٠

وحين يحتال انسان فيصل الى المكان الخفى الخاص بتحريك قوة كامنة فيضغط عليه ضغطاً يسيراً أو يحركه تحريكا خفيفا فتنفجر بذلك قوة هائلة مدمرة أو معمرة أو تتحرك آلات كثيرة ضخمة ، فاننا ندرك أن هذا الانسان يملك من قوة الحيلة والمعرفة بمكامن القوة والمواضع الخفية لتحريكها قدراً يكافىء العمل الذى قام به ، لا سيما اذا استطاع تكرير عمله فى مختلف الظروف ، وعند الحاجة ، وحسب الغاية المقصودة ، وتأكدنا أن عمله لم يكن حركة عشوائية ٠

اذن : فالعمل الذى يحتاج انجازه الى قوة يدل انجازه على أن من قام به لو لم يملك هذه القوة لما استطاع أن ينجزه ، ومتى اجتمعت صفات القدرة والعلم وحسن الاختيار فى موصوف واحد كان ذلك دليلا على أن هذا الموصوف حى لا ميت ولا مادة عديمة الحياة لأن كل مادة عديمة الحياة لا تكون عليمة ذات ارادة حرة وحسن اختيار ٠

وحين أرشد القرآن الناس فلفت أنظارهم الى ظواهر هذا الكون المملوء بالمتقنات العجيبة، والمحكمات الغريبة، والمصنوعات البديعة الدقيقة ،التى لم توجد أنفسها بأنفسها ، ولا تتحكم بذواتها بعد وجودها فقد دلهم بذلك على أن متقنها ومحكمها ومبدعها وصانعها قدير عليم حكيم حى ٠

وقد دلهم على أنه يرعى كونه بالتدبير الحكيم دائما ، وذلك لأن تصاريف أحداث هذا الكون وحركاته الدائمة مقرونة بالحكمة والعناية ، لذلك فلابد أن يكون مدبراً لأمره ، ولا يملك

تدبير أمر هذا الكون الكبير الا محيط به حكمة وعلما وقدرة ، ومهيمن عليه ومسيطر على كل صغير وكبير فيه .

ومن كان كذلك كان هو المالك له ، وهو الملك الحاكم على الأحياء فيه ، وبهذا الترابط الفكرى المقتبس من دراسة ظواهر هذا الكون ، علمنا أن وراء هذه الظواهر خالقاً ، قديراً ، عليما ، حكيما ، مهيمنا ، مدبرا للأمر كله ، مالكا ملكا ، يفعل ما يشاء ويختار ، لطيفا خبيرا سميعا ، بصيرا ، رحيما .

وهكذا الى سائر صفات الكمال لله تبارك وتعالى ، ثم ننظر الى ما أثبت سبحانه لنفسه من صفات وما نفى عن نفسه من صفات فيما أنزل علينا ، فنثبت له ما أثبت ، وننفى عنه ما نفى ، وننزهه عن مشابهة خلقه ، ونقول : ليس كمثله شيء .

توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية

دراسة ظواهر الكون دلت على أن هذا الكون خاضع لقوانين واحدة ، وأنه سائر ضمن خطط من الخلق لا تفاوت فيها .

فالقوانين السائدة فى الأرض هى القوانين السائدة فى السماء ، ثم ان الأرض وما فيها جزء مترابط مع سائر ما فى الكون ، فهى خاضعة لنظام شامل مسيطر على الكون كله .

وهذا يدل على أن الخالق المهيمن على الكون كله واحد ، ولو أنه كان متعددا لتباينت قوانين الكون ، ولتعارضت ، ولانتهى الأمر بها الى التصادم والفساد فى الكون ، وهذا الدليل العقلى الدال على أن الرب الخالق لهذا الكون واحد قد نبهنا القرآن الكريم عليه بقوله الله تعالى :

« **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون** » (١) .

---

(١) سورة الانبياء : الآية ٢٢ .

وبهذا ثبت لدينا عقليا أن الرب الخالق المنعم الرازق المحيى المميت الذى يبتلى ثم يحاسب ثم يجازى واحد لا شريك له ٠

وهذا يثبت لنا عقليا عن طريق اللزوم المنطقى أن من كان هو الرب ولا شريك له فى ربوبيته كان هو المستحق وحده للعبادة ، فلا يصح أن يعبد غيره ، وكل عبادة لغيره شرك به ، وافراد الله بعبادته دون سواه هو ما يطلق عليه لفظ (توحيد الألوهية) ٠

وبهذا يتم الربط بين توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية ، وبما أن الشرك فى العبادة يستلزم فى مضمونه عدم توحيد الربوبية اقتضت حكمة تصحيح عقيدة المشركين الرجوع بهم الى الأدلة التى تثبت وجود الله وتفرده بالربوبية ، لتكون هذه العقيدة الصحيحة هى الأساس لتصحيح الفقرة الثانية من العقيدة الاسلامية وهى فقرة توحيد الألوهية ، أى افراد الله الخالق وحده بالعبادة ، واثبات أن أية عبادة لغيره شرك به جل وعلا ، وكفر بحق افراده بالعبودية ، الذى يستلزم التشكك فى تفرده بالربوبية وخصائصه فى الخلق والرزق والحياة والموت والنفع والضر ٠

ومن توحيد الألوهية عبادة الله وحده بما أمرنا أن نعبده به ، على الشكل الذى أمرنا به ، دون أن نخترع من عند أنفسنا عبادة لم يأذن بها ٠

ومن توحيد الألوهية أن نحكم شريعة الله لنا فى كل أعمالنا الفردية والجماعية ، لأن الله سبحانه له الخلق ، ومن له الخلق فله الأمر ، وعبادة الله تكون بطاعته فيما أمرنا به وفيما نهانا عنه ، وكل حكم على خلاف حكم الله يمثل استنكافا عن طاعته فى ذلك الحكم ٠

فاذا كان ذلك طاعة لغير الله تعالى فهو شرك بالله فيما هو من خصائص ألوهيته ، وهو يمثل نقضا جزئيا لتوحيد الألوهية ،

واذا كان ذلك اتباعا لهوى النفس فهو لون من ألوان عبادة الهوى .

والصدق فى توحيد الألوهية يلزم باتباع شريعة الله فى كل الأحكام ، سواء أكانت أحكام عبادات محضة ، أو كانت أحكام سلوك انسانى فردى أو اجتماعى .

كيف أنشأ الاسلام القاعدة الايمانية :

من الواضح أن اسس القاعدة الايمانية فى الاسلام أسس فكرية علمية منطقية ، ولذلك فان الطريق الى انشاء هذه القاعدة انشاء صحيحا يجب أن يعتمد على منطق الفكر القويم، والعلم الصحيح ، وهذا ما لجأ اليه الاسلام فى انشاء قاعدته الايمانية .

وطريقة الاقناع القرآنى بعناصر القاعدة الايمانية هى التى هدتنا الى هذه الحقيقة ، أما خطة الانشاء فقد بدأت بتحرير أرضية النفوس من كل العقائد الباطلة التى ليس لها أساس منطقى أو علمى ، وذلك بوسائل الاقناع الهادىء ، والمناظرة الحكيمة الخالية من التعصب الذميم ومن كل ظلال له ، وقد اعتمد على الوسائل المنطقية العقلية والعلمية .

وعقب تحرير النفس من جذور العقيدة أو العقائد الباطلة تنتقل الخطة الى غرس أوليات العقيدة الاسلامية فى أرضية نفسية حرة من الشوائب ، ثم يجرى تعهد الراس بالتغذية والانماء ، وباضافة العقائد التى تشتق منها ، وتلزم عنها ، وبالعمل على متابعة تحرير ما تبقى فى أرضية النفس العامة من كل عقيدة باطلة ، وغرس العقائد الصحيحة فى أمكنتها وتعهدها بالتغذية والانماء .

وكان لأسلوب التدرج أثره العظيم فى كل مرحلة من مراحل العمل ، وهو الأسلوب الذى تقتضيه سنة الانشاء السائدة على كل شىء فى هذا الكون ، وهى سنة الخالق فى الخلق .

وأسلوب التدرج فى انشاء القاعدة الايمانية يكون بالبدء بما يقع منها موقع الأساس . وهو الايمان بالله ، وبواحدانيته ، وبسائر صفاته العظمى ، ثم الانتقال الى ما يلزم عن هذا الأساس الأول من عقائد مع التدرج فى ذلك وفق التناسل المنطقى . والوسيلة الأولى الى كل ذلك اقامة البراهين والأدلة العقلية والعلمية ، المستندة الى البدهيات المسلمة لدى عقول المخاطبين ، كقانون السببية المسيطرة على أحداث الكون ، وقانون حاجة الممكن الى مخصص ، وحاجة الحادث الى محدث ، وحاجة ظاهرة الاتقان الى فاعل متقن ، وحاجة ظاهرة العدل والحكمة الى عليم عادل وحكيم ... وهكذا .

وبعد هذه الوسيلة الاقناعية تأتى وسيلتا الترغيب بالمثوبة والترهيب من العقوبة العاجل من ذلك والآجل .

ونظرة الى عناصر القاعدة الايمانية تكشف لنا أن الايمان بربوبية الله تعالى ووحدانيته فى الخلق والأمر وسائر صفات الكمال يقع فى المرتبة الأولى فهو بمثابة الجذر الرئيسى .

ثم يأتى فى المرتبة الثانية توحيد الألوهية باعتبار هذا هو اللازم الأول لتوحيد الربوبية، فمن هو الرب الواحد يجب أن يفرد وحده بالعبادة اذ لا يستحقها غيره .

ثم يأتى بعد ذلك مايلزم عن حكمة الخالق ، فمن لوازم صفة الحكمة أنه لم يخلق هذا الخلق عبثا . وهذا يهدى العقول الحصيفة الى أن الانسان بخصائصه المتنوعة (العقل والارادة والغرائز والشهوات) فى مجال مفتوح له أن يفعل فيه الخير والشر انما خلق للابتلاء ، والابتلاء يستلزم قانون الجزاء والا خلا من الحكمة وكان عبثا .

وبما أن الحياة الدنيا هى الزمن المخصص لهذا الابتلاء بكل ظروفها وأحداثها فلابد من حياة أخرى يكون فيها الجزاء الأمثل وهنا يبرز لنا عنصر الايمان باليوم الآخر .

أما ما يحدث في ظروف هذه الحيـاة الدنيـا من جزاءات معجلة فالغرض منها العظة أو التذكير ، أو التربية أو التطهير ، ثم ان الابتلاء الأمثل يقتضى بيــان مواده حتى يكون الانسان على بصيرة من أمره تجاه خالقه ، لذلك اقتضت حاجة الانسان أن يرسل الله اليه من يبين له مواد امتحانه فى ظروف الحيــاة الدنيا ، حتى لا يكون له عذر يعتذر به ·

وهذا يفتح آفاق الفكر الى قبول ركن الايمان بالرسل ·

ثم نلاحظ أن من تمام الحكمة أن يكون مع الرسل بيانات ثابتة فى نصوص منزلة ، تكون دســتورا للنــاس يعملون به ويهتدون بهديه ولو انتهت حياة الرسل ، وهذا يفتح آفاق الفكر الى قبول ركن الايمان بالكتب ، ويتساءل الفــكر الانسانى : كيف يرسل الخالق الذى لا تدركه الأبصــار رســلا من البشر ؟ وكيف يتصل بهم ؟

وهنا كان لابد من بيان ظاهرة الوحي وحقيقتها ، بيــان امكانه ، وبيان وساطة الرسل من الملائكة ، وكان لابد أيضا من التوثق من صدق من يدعى أنه رسول الله ، فاقتضى الأمر تأييد الرسل بالآيات الدالات على صدقهم . وهنا تبرز لنــا ظاهرة المعجزات التى يؤيد الله بها رسله ·

وترافق كل ذلك تفصيلات توضح أركان القاعدة الايمانية، وعناصرها وأجزاءها ، وكل مالا بد منه لاستكمال صورة هذه القاعدة ، أو ما يحسن أن تستكمل به ·

الغاية من خلق الانسان فى هذه الحيـاة :

ان الفاطر الحكيم جل وعلا قد اقتضت حكمته العالية أن يجعل الانسان من فئة مخلوقاته المزودة بصــفات تؤهلها للامتحــان والابتلاء الربانى فى مجال هذه الحياة وهذه الصفات هى :

(أ) الارادة التى لها جانب من الحرية ·

(ب) العقل المزود بالاستعداد لفهم النهى والأمر ، والتمييز بين الخير والشر ، والنفع والضر ،

(ج) القــــدرة الظاهرة على تنفيذ بعض الاعمــال التى يريدها ٠

واذ منح الخالق الحكيم الانسان هــذه الصـــفات تشريفا له وتكريما كان على هذا الانسان أن يعترف لخالقه العظيم بوجوده واتصافه بكل صفات الكمال وتنزهه عن كل صفات النقصان ، وكان عليه أن يحمده ويثنى عليه بنعمه التى لا تحصى الظاهرة والباطنة ، وكان عليه أن يشكره فيعبده ويطيعه فى كل ما يأمر به وينهى عنه ٠

وحين نلاحظ حكمة الخالق جل وعلا يتضح لنا أن حـكمته تعالى تقضى بأنه لم يخلق الناس عبثا ، وانما خلقهم لغـــاية ، وحينما نبحث عن هذه الغاية ينكشف لنا أن الغـــاية من خلق النـــاس مزودين بالصـــفات التى تؤهلهم للامتحان انما هو امتحانهم فى ظروف هذه الحيـــاة الدنيا ، فخصائص العمـــل المصنوع تدل على الغاية من صنعته ، وخصائص الكائن المخلوق تدل على الغاية من خلقه ٠

وهذا الذى نهتدى اليه بالتأمل الفكرى قد بينه الله لنا فى كتابه ، فقال تعالى :

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » (١) ٠

وقال تعـــالى :

« انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلنــــاه سـميعا بصيرا » (٢) ٠

ولذلك فقد وضع الله هذا الانســـان فى الظروف الملائمة للاختبار على أحسن وجه وأكمله ، اذ قذفه الى الحياة الدنيـــا حـــر الارادة بين كفتى ميزان من العقل والشهوة ودوافع الخـــير

---

(١) سورة الملك : الآية ١ ، ٢ ٠

(٢) سورة الانسان : الآية ٢ ٠

ونوازع الشر وبواعث الرحمن ونزعات الشيطان وجالبات السرور ومذيقات الألم . ثم قوى عنده جانب الخير والفضيلة بالميل الفطرى ، ورجح لديه الطاعة بالترغيب والترهيب ، فأرسل اليه الرسل ، وأنزل معهم الكتب ، ليكون على بينة من عناصر امتحانه .

ويتلخص المطلوب من الانسان فى هذا الامتحان بأنه مكلف أن يعبد ربه ، والعبادة تشمل الايمان والعمل والطاعة على قدر الاستطاعة ، وفق أوامر الرب ونواهيه ، وقد بين الله المطلوب من الانسان فى الامتحان الذى خلق له ، فقال تعالى :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (١) .

فالمطلوب من الأنسان أن يحققه بارادته فى الظروف التى وضع فيها موضع الامتحان هو أن يعبد الله حقاً والعبادة الصحيحة انما تتحقق بالايمان ، والاعتراف ، والخضوع ، والطاعة على قدر الاستطاعة .

وهنا لابد أن ندرك أن الامتحان يقتضى الجزاء ، والا كان عبثا لا معنى له ، وحكمة الله العلى القدير تأبى هذا العبث .

فالجزاء أمر لازم لحكمة الابتلاء ضرورة أن الحكيم الذى قرر بحكمته أن يبتلى لابد أن يكون قد رتب فى خطته أن يجازى الممتحنين بحسب أعمالهم ، وقد بين الله لنا ذلك فى كتابه ، فقال تعالى :

« ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » (٢) .

وقال سبحانه :

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون » (٣) .

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .
(٢) سورة النجم : الآية ٣١ .
(٣) سورة الجاثية : الآيات ٢١ ، ٢٢ .

وفيما كلم الله موسى بالوادى المقدس طوى قال له :

« ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » (١) ٠

ولما كان الجزاء المرتب فى الخطة أمرأ غير واقع على الوجه الاتم فى ظروف هذه الحياة الدنيا كان لابد من ظروف حياة أخرى يتم بها الجزاء الأمثل ، بذلك تقضى حكمة الخالق الحكيم ، وهذا التأمل النظرى يفتح أمامنا أبواب التصور الصحيح لادراك الآخرة والايمان بها ٠

(١) سورة طه : الآية ١٥ ٠

الفصل الثانى

الايمان باليوم الآخر

حكمة الخالق العليم القادر المنزه عن كل نقص تقتضى أن يختار أكمل الصور الممكنة من الخلق والتدبير ، وحين نلاحظ هذا من عناصر ايماننا بالله لابد أن نهتدى الى أن حكمة الله تأبى أن يخلق هذا الكون عبثا ،وتأبى أن يخلق الانسان بصناعته التى هو عليها باطلا . وأن تكون نهاية قصة خلق الانسان محدودة بظروف هذه الحياة الدنيا . بكل ما نشاهد فيها من أعمال خير وشر تصدر عن هذا الانسان أفرادا وجماعات .

كان هذا هو المفتاح الذى فتح للفكر الحصيف باب الايمان بالجزاء ، ثم ان الايمان بالجزاء مع ملاحظة واقع هذه الحياة الدنيا يهدى الى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى لابد من قدومها ليتم فيها الجزاء الأمثل وفق ما تقتضيه حكمة الخالق العظيم .

وهكذا يظهر لنا بتسلسل البناء الفكرى المنطقى ركن الايمان باليوم الآخر . والدار الآخرة . وهو أحد أركان الايمان الأساسية التى تألفت منها القاعدة الايمانية فى الاسلام ، وفى كل الأديان الربانية الحقة التى لم يدخل اليها التحريف والتغيير والتشويه .

ونظرا الى أن عقيدة الجزاء الربانى الذى اهتدى الفكر الى ضرورة يوم آخر لتنفيذه غير يوم الحياة الدنيا عقيدة تأتى فى الفكر عقب الايمان بالله الخالق العليم الحكيم القادر وجدنا نصوصا قرآنية كثيرة قد اقترن فيها الكلام على الايمان باليوم

الآخر بالكلام على الايمان بالله ، فالتلازم الفكرى ينتقل الى فكرة الجزاء الربانى عقب ايمان الانسان بالله خالقه ومدبر أمره فى هذه الحياة الدنيا . وقد علمنا أن فكرة الجزاء الربانى مع ملاحظة واقع هذه الحياة الدنيا تهدى مباشرة الى اثبات الآخرة، انسجاما مع ما توجبه حكمة الخالق المقرونة بواسع علمه وكامل قدرته وتنزهه عن كل نقص .

فالايمان بالجزاء الربانى الأمثل وبيوم هذا الجزاء الأمثل وبما يستتبع من حياة أخرى ودار أخرى هو الركن الاعتقادى الايمانى الذى يقع فى الدرجة الثانية بعد الايمان بالله وبكمال صفاته .

ونستطيع أن نلخص السلسلة الفكرية الايمانية التى تهدى الفكر الى الايمان بالله وباليوم الآخر على الوجه التالى :

أولا : دراسة الكون والحياة والانسان تهدى الى الايمان بالخالق العظيم القادر العليم العدل الحكيم .

ثانيا : دراسة الغاية من الخلق التى تهدى اليها ملاحظة الكون وأحداثه الكبرى وقوانينه الصارمة وسننه الثابتة لا تدع مجالا لتصور اللعب واللهو والعبث فى أى حدث من أحداثه . بل كل ما فيه جد لا هزل يصاحبه ولا عبث يخالطه .

ثالثا : دراسة العلاقات الأخلاقية والتكوينية بين الخالق الحكيم والانسان المدرك المريد ذى الغرائز والاهواء والشهوات والذى يستطيع أن يتوجه لفعل الخير والطاعة او فعل الشر والمعصية . تهدى الى أن الانسان خلق فى هذه الحياة الدنيا للامتحان والامتحان يستلزم الجزاء فى جدية قوانين الوجود وسننه الثابتة ، وفى مقتضيات حكمة الخالق وعلمه وقدرته .

رابعا : دراسة الظواهر الجزائية فى نطاق هذا الكون المدروس المشاهد تدل على أن كمال مقتضيات العدل وكمال

مقتضيات الحكمة لم يتحققا فيه وحين نلاحظ هذا ونلاحظ معه صفات الخالق العظيمة التى منها العدل والحكمة والعلم والقدرة ، ونلاحظ قوانينه الصارمة وسننه الثابتة فى الكون ، فاننا نهتدى فكريا الى أن حياة أخرى قد رتبت فى برنامج الوجود الكبير لاقامة كمال العدل وكمال الحكمة فيها ، وفيها يتم تحقيق الصورة المثلى للجزاء الربانى ٠

بهذه الدراسة النظرية الفكرية المتسلسلة على هذا الوجه ، المدعمة بالأدلة العقلية ، المستندة الى دراسة ظواهر هذا الكون المشاهد ، استطعنا أن نهتدى الى ضرورة اليوم الآخر والى الايمان به ٠

وهذا ما نبهت النصوص القرانية عليه ، وأعطت المفاتيح للوصول اليه ٠

١ ــ فمنها قول الله تعالى :

« أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ؟! فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم » (١) ٠

فهذا النص يكشف لنا أنه لو لم يكن وراء هذه الحياة التى تنتهى بالموت حياة أخرى تكون فيها الرجعة الى الله للحساب والجزاء واقامة محكمة العدل والفصل الآلهية لكانت عملية الخلق ضرباً من العبث ، والله تبارك وتعالى منزه عنه ، فلا يكون فى شيء من أفعاله وأحكامه وأوامره ونواهيه وشرائعه هذا العبث بل لابد فى كل ذلك من غايات حكيمة تحددها ارادة الخالق المستندة الى علمه المحيط بكل شيء ٠

والجدية الصارمة هى المظهر البارز فى كل أحداث الكون وقوانينه وسننه ، واشارة الى كون الله منزها عن العبث فى عمليات الخلق التى يجريها كما قال الله تعالى فى هذا النص :

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات ١١٥ ، ١١٦ ٠

« **فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم** » (١) ٠

ولما كان احمتال العبث احتمالا مرفوضا عقلياكان لابد من وجود حياة أخرى ، تظهر فيها تطبيقات الغاية من الحياة الأولى ، وهذه الحياة لابد أن تكون مقررة فى برنامج المقادير الربانية، ان الله هو الملك الحق لا اله الا هو . وبهذا نلاحظ أن هذا النص قد أعطي الفكر الانسانى مفتاح البحث النظرى الموصل الى هذه الحقيقة ٠

٢ ــ ومنها قوله تعالى :

« **افنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم كيف تحكمون** » (٢) ٠

من الواضح أن ظروف هذه الحياة التى نعيشها قد تسمح للمجرمين بأن يعيشوا فيها عيشا رغداً ناعماً ، يصيبون فيه المال والجاه والسلطان واللذات ، كما قد تسمح للمسلمين أهل الاستقامة بمثل ذلك ٠

وقد تسمح بأن يتمكن الفاجر من قتل التقى . وظلمه ، وتعذيبه ، واستلاب ماله ، والعدوان عليه فى أرضه ، أو عرضه ، وقد لا يلقى الفاجر جزاء معجلا على فجوره ، بل قد يمهل وتأتيه منيته دون أن ينال شيئا من جزائه . فلولا أن حياة أخرى غير هذه الحياة قد أعدت فى برنامج المقادير الربانية لاقامة الجزاء الذى توجبه حكمة الخالق لكانت النتيجة الحكم على الخالق بأنه قد رضى بأن يجعل المسلمين كالمجرمين سواء محياهم ومماتهم ، وهذا يتنافى مع أصول العدل والحكمة الالهية ، ولذلك فهو مرفوض عقلا ٠

ولما كان هذا الاحتمال مرفوضا فان الاحتمال المقابل له وهو وجود الحياة الأخرى التى يتحقق فيها التمييز بين المسلمين والمجرمين هو الأمر الحتمى الذى لا مناص من اللجوء الى ادراكه عقليا والتسليم به عقيدة ، وهو الاحتمال الذى قررته النصوص الدينية الصحيحة الصريحة وأخبرت به ٠

---

(١) سورة المؤمنون : الآية١١٦ ٠

(٢) سورة القلم : الآيات ٣٥ ، ٣٦ ٠

٣ ـ ومنها أيضا قول الله تعالى :

« ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » (١) ·

٤ ـ ومنها قول الله تعالى :

« أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى (٢) ·

هذا ما هدى اليه الفكر السليم ، ودلت عليه النصوص ، ولكن كيف يكون هذا اليوم الآخر وعلى أية صورة ؟ ان الدراسة النظرية لا تسمح لنا بالتحديد ، وذلك لأن الاحتمالات النظرية كثيرة جدا ، ولا سبيل الى ترجيح بعضها على بعض بعقولنا ، ومن أجل ذلك كان لابد من أن نلتمس مفاهيم النصوص الدينية الثابتة لتخبرنا بذلك ·

وليس لنا أن نتخيل صورة من عند أنفسنا أو أن نضيف صوراً من عند أنفسنا الى ما جاءت به النصوص الدينية الثابتة فى القرآن الكريم وفى أقوال الرسول صلوات الله عليه ·

الايمان بالآخرة ضرورة أخلاقية :

مما سبق يتضح لنا أن الايمان بالآخرة ضرورة أخلاقية تقتضيها مفاهيم العدل الالهي والفضل الالهي ، ومعلوم أن العدل الالهي والفضل الالهى من الأسس المرتبطة جذريا بعقيدة الايمان بالله تعالى وبأسمائه الحسنى وصفاته العظمى ·

الايمان بالآخرة مبدأ ضرورى لسعادة الجماعة الانسانية :

واذا نظرنا الى مشكلة السلوك الانسانى وجدنا أن سعادة الجماعة الانسانية مرهونة بضوابط سلوك الانسان ، وحينما نبحث عن الضوابط التي يمكن أن تضبط سلوكه نجدها ضوابط

---

(١) سورة الجاثية : الآية ٢١ ·

(٢) القيامة الآيات من ٣٦ الى ٤٠ ·

ضعيفة وناقصة الا ضابطا واحدا هو مراقبة الله والخوف من عقابه يوم القيامة (يوم الدين) ٠

وبهذا تغدو قضية الايمان باليوم الآخر ضرورة انسانية لحل مشكلة الجنوح الانسانى ، ولمنح المجتمعات الانسانية أفضل صورة ممكنة من السعادة الجماعية فى ظروف هذه الحياة ، ولدفع الانسان الى فعل الخير والإرتقاء فى سلم الفضائل الفردية والجماعية ٠

٣١٥ مون

الفصل الثالث

الايمان بالانبياء والرسل

اثبت لنا البحث العلمى المستفيض أن لهذا الكون ربا خالقا قادرا عليما حليما سميعا بصيرا . وأنه خلقنا ليبلونا ، وأثبتت لنا الدراسة المنطقية المؤيدة بالشواهد الواقعية أن حكمة الخالق القادر العليم تأبى أن ينتهى وجود الانسان بانتهاء ظروف هذه الحياة المدروسة المشاهدة ، وأنه لابد من حيـاة أخرى يتم فيها الجزاء الأمثل .

ولكن الامتحان الصحيح لابد فيه من بيـان مواده . التى يجرى الامتحان فيها ، ولابد فيه من تحديد مسئولية الممتحن وابلاغه هذه المسئولية . وهنا نتساءل : كيف يتم كل ذلك بين الخالق والمخلوق ؟

هذا السؤال هو الذى أجابت عنه حكمة الخـالق باختيار طريق ارسال الرسل من البشر ، ليبلغوا عن الله ما يأمرهم بـه وما ينهاهم عنه ، وما يختـار لهم من تشريع لحيـاتهم ، حتى ينالوا بالطاعة رضاه ، ويظفروا بجنته، ويسلموا بها من سخطه، والوقوع بموجبات عقابه .

ولا نعرف قيمة اختيار هذا الطريق للتبليغ عن الله ما لم نمر فى تصورنا على الاحتمالات الأخرى التى قـد تخطـر فى البال ، أو قـد يطالب بها المتعنتون .

لدى الفـكر عدة احتمالات :

١ ــ فاما أن يظهر الله الخالق لعباده ويكلفهم شرائعه مباشرة ، ولكن هذا الاحتمال مناف لحكمة الامتحان ، لأن أول مواد

الامتحان أن يؤمن العباد بربهم عن طريق عقولهم ، ومشاعر قلوبهم ، دون أن يشاهدوه بحواسهم ، فلو ظهر لهم فرأوه لما استطاع معاند مستكبر فيهم أن يكفر بوجوده تبارك وتعالى ولو أراد ذلك • ولهذا كانت أولى خطوات التكليف في مجال امتحان العباد الايمان بالغيب• قال الله تعالى :

« الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب»(١)•

٢ ــ واما أن يوحى الله لكل عبد من عباده فيبلغه تبليغا مباشرا بشرائعه ، وهذا يتنافى مع الحكمة من الابتلاء والامتحان العام للجماعات الانسانية •

٣ ــ وأما أن ينزل الله ملائكته للناس يراهم الناس ويمشون بينهم، ويقوم هؤلاء الملائكة بوظيفة التبليغ ، ولكن هذا الاحتمال ليس هو الاحتمال الافضل للتبليغ ، وذلك لأن طبيعة الملائكة غير طبيعة البشر ، وخصائصهم غير خصائصهم ، فاما أن يظهروا على صفة الناس وحينئذ لا يستطيع الناس أن يميزوهم وسيقولون : هؤلاء بشر مثلنا ، وهذا ما أشار اليه القرآن بقول الله تعالى :«وللبسنا عليهم مايلبسون»(٢) واما أن يظهروا على غير صفة البشر ، وفى هذه الحالة لايمكن للملائكة أن يجعلوا أنفسهم قدوة حسنة فى سلوكهم للناس ، لاختلاف الطبيعة ، وسيقول المخالفون العصاة : لو كان للملائكة طبيعتنا لعصوا مثلنا ، وفى هذه الحالة لايكونون حجة فى سلوكهم على الناس ، يضاف الى ذلك أنهم لو ظهروا على صورتهم ونزلوا بين الناس مبلغين لكانت الحكمة تقضى بأن يقضى على المخالفين عند أول فترة يخالفون فيها ويكفرون ، لأنه لا معنى للامهال بعد ظهور قسم من آيات الله الكبرى بانزال ملائكته يبلغون شرائع الله لعباده •

---

(١) سورة البقرة ; الآيات ١ ، ٢ ، ٣ •
(٢) الأنعام الآية : ٩ •

٤ ـ فلم يبق الا احتمال ارسال رسل مختارين مصطفين من البشر ، ليكونوا دعاة الى الله ، وقدوة حسنة لهم ، وهذا هو الاحتمال الأحكم الأفضل المختار .

وبهذه الوسيلة تتحقق أحسن صور التبليغ العام، لأحسن صور الامتحان الشامل لكل من تتوافر لديه شروط التكليف من الناس .

ويتعلل الفارون من قانون الابتلاء وما يستتبع من جزاء بتعلات مختلفات ، فيطالبون بأن يروا الله جهرة ، أو بأن ينزل الله عليهم من السماء صحفا منشرة بأسمائهم ، أو بأن ينزل عليهم كتابا من السماء يقرأونه جميعا ، أو بأن ينزل عليهم الملائكة يبلغونهم شرائع الله ، أو يطالبون الرسول بمطالب متعنتة ، أو يعترضون على بشرية الرسول ، أو يعترضون على شخصه ، أو يفرضون عليه شروطا فى شريعة الله ، بأن يضيف اليها أو يحذف منها الى غير ذلك من أمور .

وقد ناقشهم القرآن فى كل ذلك مناقشات منطقية وألزمهم فيها بالحجة ، وقطع بذلك أعذارهم ، وكشف القرآن عن دوافع التكذيب بالرسول ، وأبان أنها ترجع الى عدة عقبات نفسية ، منها الأمور الاربعة التالية :

الأول : الاستكبار .

الثاني : واقع العتو الكبير الذى هم فيه ، اذ لايريدون التنازل عما هم فيه من ظلم وعدوان وفجور ، فهى بالنسبة اليهم امتيازات طبقية ، وانطلاق لأهوائهم وشهواتهم دون ضابط .

الثالث : العصبيات العمياء .

الرابع : الحسد الذميم الصارف عن قبول الحق .

الرسل خلاصة مختارة من النـاس :

لمـا كانت رسالة هداية الخلق وامامتهم فى فعل الخير وترك الشر وقيادتهم الى مواطن رضا الله وموجبات رحمته وعظيـم ثوابه ودخول جنته أعظم الرسالات ، ولمـاكانت شروط المصطفى لها أعظم الشروط الانسانية ، لزم أن يكون الانسـان الذى يصطفى لها خير الناس وأفضلهم وأعلاهم خصائص وفضائل ·

ولمـا كان الله جل وعلا عليما بكل شىء ، خبيرا بعباده ، محيطا بما فى علانياتهم وسرائرهم، حكيما فيما يصطفى ويختار كان لابد أن يصطفى ويختار لأعظم الرسالات أفضل عباده ·

فمن الواجب فى الواقع اذن أن يكون رسل الله للنـاس صفوة عباده منهم ، وأن يكون الرسول فى قومه أعظـم انسان مؤهل فيهم لحمل رسالة ربه اليهم ، ولا يمنع هذا من تفاضـل الرسل فيما بينهم ، فان قمة الكمال الانسانى مرتبة ذات درجات بعضها أعلى من بعض ·

لكل ذلك نجد أن القرآن يعرض علينا ما اقتضته حكمة الله من اصطفاء خيرة خلقه لرسـالاته للنـاس ، التى هى أعظـم الرسالات فى الواقع الانسانى ، وجاء التعبير عنـه بألفـاظ الاصطفاء والاجتباء ، والاختيار ·

حاجة الناس الى ارسال رسل اليهم :

يمكن تلخيص حاجة الناس الى رسل مبشرين ومنـذرين بمـا يلى :

أولا : لو ترك الناس لأنفسهم من غير تنبيه وارشادلظلوا فى الضلال يتيهون ، وذلك بسبب اندفاعهم وراء غرائزهـم وشهواتهم وأنانيتهم ، ولظـلوا يتخبطون بالظلمات فى أوحال المفاهيم الباطلة ، والاخلاق الفاسدة ، والعادات المنحـرفة ، والتقـاليد السيئة الملاحـظة فى الانسـان المتخلف عن ركب الحضارة والعلم والكمال الانسانى ·

وهذا يكشف عن حاجتهم الى رسل ينبهونهم ويرشدونهم ، ولذلك أرسل الله لهم الرسل بحكمته . فلم يبق لهم عذر به يعتذرون .

ثانيا : ان الناس بحسب التكوين القويم الذى فطرهم الله عليه قد خلقهم الله ليختبر ارادتهم ، وليبلوهم أيهم أحسن عملا ، ولولا أن أرسل الله اليهم الرسل مبشرين ومنذرين، لكان لهم عذر وحجة يحتجون بها عند ربهم يوم القيامة ، لدى محاسبتهم على كفرهم وظلمهم وعدوانهم وجنوحهم ، بأنه لم يرسل لهم من ينبههم ويدلهم على الله ، ويبين لهم الفضائل ويحذرهم من الرذائل ، ولقالوا لربهم يوم الحساب : لو أرسلت الينا رسولا لكنا اتبعناه ولم نخالف له أمرا .

وهذا أيضا يكشف عن حاجة الناس الى رسل ينبهونهم ويعلمونهم ويرشدونهم ، ولذلك أرسل الله لهم الرسل بحكمته ، فلم يبق لهم عذر به يعتذرون .

ثالثا : الناس لايستطيعون بأنفسهم أن يتوصلوا الى معرفة جميع الخيرات والفضائل الانسانية والكمالات الخلقية ويتفقوا عليها لأن عوامل غرائزهم وشهواتهم وأهوائهم وأنانيتهم تصرفهم عن الحق والخير فتزين لهم الباطل والشر . وهذا يكشف لنا أيضا عن حاجة الناس الى رسل من عند الله معلمين ومبشرين ومنذرين ولذلك أرسل لهم الرسل بحكمته فلم يبق لهم عذر به يعتذرون .

رابعا : ان كثيرا من الحقائق التى لابد منها لاصلاح الناس وتقويم سلوكهم فى الحياة لا يمكن للعقل البشرى أن يتعرف عليها بنفسه ضمن حدود الوسائل الانسانية العادية . ومن هذه الحقائق الدار الآخرة ، والحياة المادية فيها ، والبعث والحشر والجنة والنار وما فيهما .

فكان لابد من أن يتعرف الناس عليها عن طريق المتصلين بالوحى ، المطلعين على ما يطلعهم الله عليه مما فى الغيوب ، وهؤلاء هم الرسل .

ولذلك أرسل الله للناس الرسل بحكمته ليبينوا لهم جملة من حقائق اليوم الآخر وما فيه من جزاء بالثواب أو بالعقاب ·

خامسا : الناس بحاجة فى اصلاح أفرادهم ومجتمعاتهم الى الى مصلح مثالى يكون أسوة حسنة لهم ·

وشخصية المصلح المثالى يجب أن تتوافر فيها صفات القدوة الحسنة ، والعصمة عن الخطأ فى المبادىء والعلوم التى يهدى اليها ، والعصمة عن الخطأ فى الأعمال والاخلاق التى يرشد اليها ، ويأمر بها ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان قدوة سيئة لهم ، ولا نقلب مفهوم كل من الشر والخير ·

ولا يمكن أن تتوافر هذه الصفات بحسب الاحصاء البشرى الا فى الرسول المعصوم المؤيد من عند الله بالمعجزات الباهرات والآيات البينات ·

ولذلك كان الناس بحاجة الى قادة من رسل الله ، يتحلون بجميع الكمالات الانسانية ، ويكونون الاسوة الحسنة لجميع الناس ، ولذلك أرسل الله الرسل المعصومين عن الخطأ فى تبليغ الشريعة ، وعن المعصية فى السلوك ·

وقد بين الله حاجة الناس الى رسل مبشرين ومنذرين بقوله تعالى :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (١) ·

وقوله تعالى :

«رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما » (٢) ·

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ ·
(٢) سورة النساء : الآية ١٦٥ ·

وحدة الرسالات السماوية في أسسها وأصولها :

لما كان الرسل جميعا رسلا للناس المتماثلين في خصائصهم التكوينية ، كانوا مبعوثين من قبل مرسل واحد ، كانت الحكمة تقضى بأن تكون رسالتهم واحدة فى أصولها وأسسها العامة .

ولذلك نرى أن أسس رسالات رسل الله ومبادىء دعوتهم واحدة فلا خلاف في العقائد التى دعوا اليها ولا خلاف فى روح العبادات التى أمروا بها ، كما لا خلاف فى مبادىء التعامل المادى والأخلاقى والسياسى التى نادوا بها .

وما نلاحظه الان من البون الشاسع فى المعتقدات بين أتباع ديانات ربانية صحيحة الأصل فانما ذلك من التحريف والتبديل الذى دخل الى مبادىء هذه الديانات من أتباع ذوى غايات سيئة حرفوا وبدلوا وفق شهواتهم وأغراضهم الخاصة ، ولو أن هذه الديانات السابقة بقيت على أصولها من غير تحريف لا لتقى متبعوها بصدق مع المسلمين التقاءا تاما ، ولكان أتباع الديانات الربانية كلهم أتباع ملة حنيفية واحدة تعمل بالمنهاج التشريعي الذى ختم الله به رسالات السماء ، وأنزله على محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ولئن كنا نرى بعض اختلاف فى أحكام الشرائع الربانية من رسالة الى أخرى فى الحلال والحرام ، وفى صور العبادات بحسب أصولها الصحيحة ، فانما يرجع ذلك الى الحكمة الدقيقة فى موافقة وضع كل أمة لأساليب تربيتها واصلاحها ، وامتحان طاعتها وامتثالها لاوامر الله ونواهيه . وذلك بالنظر الى بيئة تلك الامم ، ومستوى عاداتها وتقاليدها وثقافاتها ومفاهيمها الاجتماعية ، وبالنظر الى امكانية تطورها من وضع الى آخر بحسب مستوى تخلفها الفكرى والاجتماعى والخلقى .

وقد اختار الله لخاتمة رسالاته أفضل الشرائع وأتمها ، والزم الناس باتباعها .

تكامل الرسالات وختمها برسالة محمد صلى الله عليه وسلم :

ان حكمة الله العالية قد راعت فى تنزيل الرسالات تطور الأمم فى الارض ، من أمم بدائية محدودة العلاقات الاجتماعية، الى أمم متقدمة فى سلم المدنية والحضارة واتساع العلاقات .

ولما وصلت البشرية الى المرحلة التى استكملت فيها نسبة من التطور تؤهلها لأن تكون أمة واحدة تعمل برسالة رسول واحد أرسل الله رسوله محمدا صلوات الله عليه ، عربى النسب واللسان ، انسانى الدعوة ، عالمى الدين ، برسالة هى خاتمة الرسالات الربانية والجامعة لجميع شرائع الله للناس .

والتى تضمن مصالحهم على شكل أكمل من أى نظام أو تشريع ، كما تضمن سعادتهم على وجه أسمى من كل سعادة يمكن أن يحققها أى نظام أو تشريع . وقد تكفل الله سبحانه لهذه الرسالة بالحفظ والتأييد . وأنزل لها كتابا مبينا غير ذى عوج، وهو القرآن .

وقد شهد الله لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم بأنها عامة شاملة للناس أجمعين ، فقال تعالى :

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) .

ولما كانت عامة شاملة محفوظة بحفظ الله صح أن يختم الله بها رسالاته للناس ، لذلك أعلن الله ختم النبوات والرسالات بنبوة نبيه « محمد » الذى أرسله للناس كافة ، قال الله تعالى :

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما » (٢) .

وختم الرسالات بهذا الدين اقتضى أن ينزله الله تاما مكملا وفى ذلك قال الله تعالى :

---

(١) سورة سبأ : الآية ٢٨ .
(٢) سورة الاحزاب : الآية ٤٠ .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » (١) .

دلائل صدق رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم :

ليس من المفروض أن نصدق كل من يدعي النبوة والرسالة، فقد يكون المدعي متنبئا كذابا . ولكن حينما تقترن دعواه بما يدل على صدقه فانه يجب حينئذ تصديقه ، ومن كذبه بعد وضوح الدلائل الدالة على صدقه كان جاحدا للحق كافرا برسول ربه .

فمتى ثبت للناس بالدلائل الكافيات أن واحدا من البشر نبي من أنبياء الله ورسول من رسله بعثه ليبلغ عنه ما أمره بتبليغه للناس وجب عليهم الايمان به . ووجب عليهم اتباعه، والائتمار بأمره ، والانتهاء عما نهى عنه . في حدود شروط رسالته وشروط العمل بها .

ونستطيع أن نستدل على صدق الرسول في دعواه النبوة أو الرسالة ببعض الآيات والدلائل البينات ، التي ترجع الى احد الأمور التالية :

الأمر الأول :

جوهر الرسالة التي يحملها من يدعي النبوة أو الرسالة وكونها حقا لا يأتيها الباطل من بين يديها و لا من خلفها، وكونها داعية الى توحيد الله وعبادته ، والالتزام بالحق والخير ومختلف الكمالات الانسانية .

الأمر الثاني :

شخصية الرسول في اخلاقه ، وأعماله، وأقواله، ومؤهلاته الذاتية ، وأسلوب دعوته ، وسياسته ، وقيادته ، التي تتسم بسمات الكمال الانساني، وتمتاز عن كل عظماء الناس المتفوقين ببعض الخصائص .

الأمر الثالث :

أخبار الرسل السابقين ببعض صفاته الخاصة ، وانطباقها عليه ، ويطلق على هذا الأمر اسم « البشارات » التي تأتي على ألسنة الرسل السابقين .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣ .

الأمـر الرابع :

تأييد الله له بالآيات التى هى من خوارق العادات ، والتى لا يجرى الله أمثالها الا لرسول من رسله . ونبى من أنبيائه ، أو لتابع من أتباع الرسول يعلن ايمـــانه به ، وعندئذ تكون فى حقيقتها من آيات صدق الرسول .

ويطلق على هذا النوع من الآيات اسم «المعجزات» كمعجزات ابراهيم ، وموسى ، وصالح ، وعيسى . ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

الأمر الخـامس :

تأييد الله له بالنصر ، وتحقيق ما ذكر الرسول أن الله قد وعده به ، وتصديقه فى كل ما أخبر به عن ربه ، بما يمد الله له من وسائل التوفيق والفتح المبين . ونحو ذلـك من الأمارت التى تورث قناعة كافية بصدقه وبأنه رسول الله حقا .

الأمر السادس :

تحقق صدق أخباره التى يخبر بها عن الغيب، سواء أكانت مما سيحدث فى المستقبل . أو مما هو وراء مدى قدرات المعرفة الانسانية بحسب الوسائل المسخرة لأهل زمانه ، مما هو موجود فعلا فى الأرض أو فى الســماء . أو مما كان قد حدث فى الماضى دون أن يكون فيه خبر مأثور أو شاهد ظـاهر من الأرض يدل عليـــــه .

الأمر السابع :

التزامه المثالى بمضمون الرسالة التى يدعو الناس اليهـــا . وقد أعطى الله كل رسول من الآيات التى ترجع الى هذه الأمور الستة كلها أو بعضها ما يكفى لاقناع الناس بأنه رسول صادق وبأنه يبلغ عن ربه حقا .

وقد اجتمعت كل هذه الامور لسيدنا محمد خاتم المرسلين وخاتم النبيين . وكانت معجزة القرآن أعظم آياته الخالدة الباقية مدى الدهر .

الفصل الرابع

الايمان بالكتب المنزلة على رسل الله

يتصل بالايمان بالله ورسله الايمان بما أنزل من كتاب ، فلا يتم الايمان بالرسول مالم يتم تصديقه فى كل ما يبلغه ويخبر به عن ربه . ومن ذلك النصوص القولية المنزلة من عند الله ، وما اشتملت عليه من بيانات ودلالات وأخبار ووصايا وأحكام وأوامر ونواهى .

فمن أركان العقيدة الاسلامية الايمان بالكتب السماوية التى أوحى بها الى رسله . قال الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى انزل من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » (١) .

ان عقيدة الايمان بالله لا تنفك عن الايمان بكتبه ، وذلك لأن من مقتضى الايمان بالله الايمان بالرسل المؤيدين من عند الله بالمعجزات . ومن مقتضى الايمان بالرسل تصديقهم فى كل ما يبلغون عن الله تعالى . ومن ذلك الكتب التى ينزلها عليهم .

حاجة الناس الى كتب ربانية :

تظهر لنا حاجة الناس الى كتب ربانية تكون فيهم بمثابة دستور يرجعون اليه ويهتدون بهديه اذا لاحظنا الأمور التالية :

الاول :

أن الكتاب الربانى المنزل على الرسل هو المرجع لأمته مهما تعاقبت العصور . فيرجعون اليه فى تحديد عقائد الدين ، وأسسه

---

(١) سورة النساء : الاية ١٣٦ .

ومبادئه . وغاياته ، ويرجعون اليه فى التعرف علىأحكام شريعة الله لهم ، واستبانة الواجبات التى يأمرهم بها ، والمحرمات التى ينهاهم عنها . والفضائل والكمالات التى يحثهم عليها ويندبهم اليهـــا .

ويرجعون اليه أيضا ليطالعوا مواعظه، ونصائحه، وأمثاله وآدابه . وما تتضمنه من بشائر ونذر ووعد ووعيد . وسائر الوسائل والاساليب التربوية المختلفة . الهادية الى صراط الله المستقيم .

ويرجع اليه أيضا المجتهدون من العلماء ، ليستنبطوا من نصوصه المختلفة الأحكام الشرعية لكل ما يجد فى حياة الناس . وذلك حينما لا يتهيأ لهم الرجوع الى الرسول مباشرة لبعـــدهم عنه فى المكان أو فى الزمان .

الثـــانى :

أن الكتاب الربانى المنزل على الرسول هـــو الحكم العـــدل لأمته فى كل ما يختلفون فيه مما تتناوله أحكام شريعة الله لهم .

الثـــالث :

ان الكتاب الربانى المنزل على الرسول والمحفوظ من بعده من التحريف والتبديل يصون عقائد الدين وشرائعه . وغاياته من ضلالات ذوى الاهواء . الذين تسول لهم أنفسهم أن يتلاعبوا بالدين . وينسبوا اليه ما ليس منه . وينحرفوا به عن صراط الله المستقيم . ارضاء لشهواتهم وغرائزهم .

واستمرار الكتاب الربانى فى أمة الرسول من بعده بمثابة استمرار وجود الرسول الذى بلغه اليهم بين ظهرانيهم من ناحية بيان أصول الدين وشرائعه وسائر مواعظه وآدابه .

الـرابع :

أن استمرار وجود الكتاب الربانى فى أمة يحفظ لدعـــوة الرسول ولرسالته تأثيرها . وسريانها . وقابليتهـــا للاتســـاع

والانتشار ، مهما تباعدت الأمكنة أو الأزمنة عن مكان أو زمان نشأة الرسول صاحب الدعوة ، لاسيما حينما تكون دعوة الرسول دعوة عامة شاملة كرسالة محمد صلوات الله عليه .

الكتب السماوية التى يجب أن نؤمن بها :

لقد ثبت لدينا أن الله قد أنزل على مجموعة من رسله عددا من الكتب وهذه الكتب منها ما أخبرنا الله به ، ومنها مالم يخبرنا به ، فيجب على وجه العموم أن نؤمن بما أنزل الله من كتاب ، ويجب علينا أن نؤمن بكتب معينة أخبرنا الله بأنه أنزلها، ولكن بحسب أصولها التى أنزلها الله ، وهذه الكتب هى الكتب التالية:

١ ــ القــرآن : القرآن الذى أنزله الله على محمد صلوات الله عليه وقد حفظه الله من التحريف والتبديل والزيادة والنقص فهو بين أيدى الناس كما أنزله الله ، ويمتاز القرآن بأنه كتاب معجز يشهد اعجازه الخالد على أنه كتاب الله حقا، واعجازه يشمل الاعجاز ببيانه وبلاغته ، ويشمل الاعجاز بمعانيــه ومضامينه الحقة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

٢ ــ الانجيــل :

وهو الكتاب الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام ولــكن لانجد عند النصارى نسخة صحيحة أصلية ثابتة بالتواتر الصحيح. ومالديهم منه نصوص محرفة مبدلة . وفيها زيادات كثــــيرة وفيها نقص كبير أيضا عن الأصل الربانى . فنحن نؤمن بكتاب ربانى اسمه « الانجيل » أنزله الله على عيسى . لا بالمحرفات التى يزعم أهل الكتاب أنها هى الانجيل .

٣ ــ الــزبور :

وهو الكتاب الذى أنزله الله على داود . وهو كتاب مواعظ ونصائح وأخلاق . واثارة مشاعر وجدانية دينية . وقــد كان داود عليه السلام يرتله ترتيلا غنائيا بصوته الشجى ، وكانت الجبال تؤوب معه رجع صوته الندى الجميل .

ولكن ليس بين يدى أهل الكتاب نسخة صحيحة متواترة تواترا صحيحا للزبور، غير محرفة ولا مبدلة .

فنحن نؤمن بكتاب رباني اسمه (الزبور) أنزله الله على داود ، ولا نؤمن بالمحرفات التي يزعم أهل الكتاب أنها من الزبور .

٤ ـ التوراة :

وهو الكتاب الذى أنزله الله على موسى ، وهو كتاب تشريع وأحكام ، وقد تلقى موسى بعضه من ربه مكتوبا فى ألواح من الحجارة ، وعمل به أهل الكتاب حقبا من الدهر ، ولكن اليهود بعد ذلك حرفوا فيه وبدلوا ، وزادوا ونقصوا ، فليس بين أيدى أهل الكتاب نسخة أصلية صحيحة ثابتة من نسخ التوراة لا تبديل فيها ولا تحريف .

فنحن نؤمن بكتاب رباني اسمه (التوراة) أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام ، ولا نؤمن بالمحرفات التى يزعم أهل الكتاب أنها من التوراة .

٥ ـ صحف ابراهيم :

وقد أخبرنا الله أنه قد أنزل صحفا على ابراهيم عليه السلام ، فنحن نؤمن بهذه الحقيقة ، ولكن ليس بين أيدى الناس أصل معروف لهذه الصحف .

اذن فنحن نؤمن بكل كتاب رباني ايمانا اجماليا ، ونؤمن بالقرآن وحده ايمانا تفصيليا ، لأنه هو الكتاب الوحيد الذى ظل محفوظا بحفظ الله له ، فلم يدخل اليه تغيير ولا تحريف ولا تبديل ولا زيادة ولا نقص ، ووصل الينا بطريق يقيني قاطع لاشك فيه ولا شبهة .

الفصل الخامس

الايمان بالملائكة

لما كان من الملائكة سفراء التبليغ بين الله ورسله من البشر ، وكانت لهم وظائف يقومون بها مما له علاقة بالناس . كان الايمان بهم من أركان العقيدة الاسلامية .

قال الله تعالى :

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » (١) .

وجاء في كثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم النص على أن الايمان بالملائكة جزء من أركان العقيدة الاسلامية .

حقيقة الملائكة وصفاتهم :

لا نستطيع أن نعرف من حقيقة الملائكة الا ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . لأننا بحسب العادة لانتصل بهم عن طريق الحس اتصالا يفيد العلم اليقيني . حتى نكشف حقيقتهم . ونحدد تكوينهم . وحسبنا فى العقيدة أن نقتصر على ما وردت به النصوص . دون أن نجرى وراء التكهنات .

فمن صفاتهم الواردة الصفات الآتية :

١ ـ أنهم مخلوقون من نور فعن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم (٢)) .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٣٦ .

(٢) رواه مسلم .

٢ ـ أن الملائكة قد يكونون معنا ولا نراهم ، فقد كان ينزل الملك جبريل عليه السلام بالوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يراه جلساء الرسول ٠

٣ ـ أن الملائكة قادرون على التمثل بأمثال الأشياء والتشكل بالأشكال الجسمانية ، وقد ثبت ذلك بالقرآن والسنة ٠

فقد كان جبريل يأتى فى بعض الأحيان الى مجلس الرسول على صورة انسان مجهول ، أو على صورة انسان معلوم وربما أتى على صورة دحية الكلبى أحد أصحاب الرسول ٠

٤ ـ ومن صفاتهم أن لهم قدرات خارقة ٠

٥ ـ ومن صفاتهم الطاعة لله تعالى . والخوف منه ، ومبادرتهم لامتثال أمره . فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون ٠

٦ ـ ومن صفاتهم أنهم مقربون الى الله تعالى ومكرمون ٠

٧ ـ ومن صفاتهم أن الله جعل منهم الرسل للقيام بتبليغ الشرائع للأنبياء ، أو للقيام بمهمات أخرى ٠

٨ ـ ومن صفاتهم القدرة على الصعود والهبوط بين السماوات والأرض ٠

٩ ـ ومن صفاتهم أنهم مخلوقون قبل هذه السلالة من البشر . وأن منهم أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع أو أكثر من ذلك ٠

والملائكة أصناف ولهم وظائف مختلفة في السماوات والأرض. ومنهم الموكلون ببني آدم . فمنهم من ينفخ الروح فى الأجنة ، ومنهم ملائكة الموت . ومنهم الحفظة والموكلون بمراقبة أعمال المكلفين وتسجيلها . الى غير ذلك ٠

الوحي وأنواعه

الوحي وسيلة الاعلام الرباني :

لقد اختار الله وسيلة ينزل بها على من يصطفي من عباده ما يريد تنزيله عليهم من تكاليف وعلوم الهية ، فتنطبع في هؤلاء المصطفين هذه التكاليف والعلوم التي يقذف الله بها اليهم مباشرة أو بوساطة أمر ما انطباعا جليا واضحا لا يحتمل الشك، وتكون لديهم معارف يقينية مقطوعا بها .

وذلك كما تنطبع فينا بشكل عام العلوم البديهية التي ندركها بالحس أو تنقدح في أذهاننا بالبديهة العقلية التي نسلم بها اضطرارا دون أن نورد عليها أي تساؤل أو اعتراض .

هذه الوسيلة هي الوحي الذي يتلقى به الرسل من الملائكة ويتلقى به الأنبياء والرسل من البشر العلوم الربانيةوالتكاليف الالهية .

التعريف بالوحي :

الوحي لغة الاعلام الخفي السريع مهما اختلفت أسباب هذا الاعلام .

والوحي شرعا : اعلام الله رسولا من رسله أو نبيا من أنبيائه ما يشاء من كلام أو معنى بطريقة تفيد النبي أو الرسول العلم اليقيني .

كيف كان ينزل الوحي على الرسول :

١ ـ روى البخاري عن عائشة أنها قالت (أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة فيالنوم. فكان لايرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح) وكان ذلك التمهيد لنزول الوحي بصورته الحقيقية . لما له من وقع شديد على النفس البشرية .

٢ ـ ثم أنزل الله عليه الملك جبريل على غير الف سابق له . وذلك حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء يتعبد

الله ، ويتأمل فى ملكوته ، قبيل الرسالة . فغطه ثلاث مرات ، وهو يقول له : اقرأ ، ويجيبه الرسول بقوله : ما أنا بقارىء ، فقال له :

« **اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق** » (١) .

وكان لهذه المفاجأة بهذه الصورة العنيفة الحازمة حكمة عظيمة ، تتضمن هز كيان الرسول صلى الله عليه وسلم ، واعداده للمهمة العظيمة التى اصطفاه الله لها .

٣ ـ ثم فتر الوحى ، واشتد وقع ذلك عليه وكان لذلك حكمة عظيمة تتضمن اشعار الرسول بأن الحادث الأول لم تجلبه الرياضة الروحية التى كان يمارسها فى غار حراء ، وانما هو الاصطفاء الربانى .

٤ ـ ثم جاءه الوحى من دون ترقب ، وهو يسير فى أحد شعاب مكة ، يقول رسول الله (بينا أنا أمشى اذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصرى فاذا بالملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملونى ، فأنزل الله تعالى :

يا ايها المدثر ، قم فانذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر (٢) .

٥ ـ ثم تتابع الوحى بعد ذلك بأحواله الهادئة نسبيا .

أنواع الوحى :

وينقسم الوحى الى ثلاثة أنواع أخذا من قوله تعالى :

« **وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه على حكيم** » (٣) .

وهى كما يلى

النوع الأول :

هو ما كان بلا وساطة ، وذلك بالالقاء فى القلب يقظة او مناما .

---

(١) سورة العلق ، الآيات ١ ، ٢ .

(٢) سورة المدثر الآيات ١ ـ ٥ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٥١ .

وتحقيقه أن يخلق الله فى قلب الموحى اليه المعصوم ضروريا بادراك ما شاء الله ادراكه من كلامه تعالى :

وهوما أشارت اليه الآية بقوله تعالى «الا وحيا» أى : وحيا مجردا عن الوساطة .

النـــوع الثـانى :

ما كان بوساطة أسماع الكلام الآلهى ، من غير أن يرى السامع من يكلمه ، ومن هذا النوع ما كان لموسى عليه السـلام حين مناجاته ربه فى جانب الطور .

وهذا النوع هو ما أشارت اليه الآية بقوله تعالى :

« أو من وراء حجاب » . أى وحيا من وراء حجاب .

النـوع الثـالث :

ما كان بوساطة ارسال ملك ترى صورته المعينة ، ويسمع كلامه ، كجبريل عليه السلام ، فيوحى الى النبى ما أمره الله أن يوحيه اليه .

وهذا النوع هو الغالب من أنواع الوحى بالنسبة الى الأنبياء فغالب أحوال الانبياء أن يكون الوحى اليهم بوسـاطة رسل من الملائكة .

وهذا النوع الثالث هو ما أشارت اليه الآية بقول الله تعالى :

« أو يرسل رسولا ، فيوحى باذنه ما يشاء » (١) .

اى أو وحيا بوساطة ارسـال رسول من الملائكة .

ولما كانت النبوات والرسالات وانزال الكتب السماوية لاتتم الا عن طـريق الوحى كان الايمـــان به جـزءا من العقيدة الاسلامية .

---

(١) سورة الشورى الآية ٥١ .

الفصل الســادس

الايمان بالقضــاء والقــدر خــيره وشره من الله تعــالى

يطرح الناشئون السؤال التقليدى التالى: هل الانسان مسير أو مخير ؟ .

وللاجــابة على هذا الســؤال لابد أن ننظر الى واقع حال الانسان من جهة ، ثم الى منطق العقل من جهــة ثانية ، ثم الى نصوص الشريعة الاسلامية ومفاهيمها من جهة ثالثة .

أما واقع حال الانسان فيبدو لنا فيه كما نشعر من أنفسنا أن أمورا تجرى فيه دون أن يكون لأرادته دخل فى ذلك ، فهو بالنسبة الى هذه الأمور مسير تماما ، خاضع لســلطان القضاء والقدر خضوعا كاملا ، ومن هذه الأمور حياته وموته وصحته ومرضه ، ونماء جســمه وحركة فــؤاده ، ودورة دمه وهضم طعامه وشرابه ، الى غير ذلك ممــا لا يحصى من الأمــور التى لاتتوسط ارادة الانسان فى وجودها وتنفيذها .

ويبدو لنا أن أمورا أخرى يعملها الأنسان نتيجة توجه ارادته لعملهــا فاذا توجهت ارادته لعملها بتصــميم وتوجهت قدراته التنفيذية لتحقيق ارادة عملها . وهو يشعر بأنه يملك حريته فى أن يعملها وفى أن لا يعملها ، فهو غير مجبر فى هذه الأعمال الخاضعة لحرية ارادته على أن يعمل أولا يـ ـل ، بخلاف ما هو مجبر فيه ، فانه لا يملك من نفسه كفه ولا ايقافه ، وفى حدود هذا القسم الذى يخضع لسلطان ارادته يستطيع الانسان بارادته الحــرة أن يعمل الخــير أو يتركه ، وأن يعمل الشر أو يتركه ، وأن يعمل المباحات له وأن يتركها ، اذن فالأنسان بالنسبة الى هذا القسم مخير أخذا من ملاحظة واقع حاله .

والناس لا يؤاخذ بعضهم بعضا فيما يجرى فيهم من أمور خارجة عن حدود اراداتهم . فلا يحاسبون انسانا على ما نزل فيه أو جرى منه بمحض القضاء والقدر ، وانما يؤاخذ بعضهم بعضا فيما يفعلونه من أعمال باراداتهم . ويعتبرون أن المسئولية منوطة بالعمل الأرادى للانسان . شعورا منهم بالفرق الواضح الكبير بين ما هم مسيرون فيه . وما هم مخيرون فيه .

هذه هى النظرة الى واقع الأنسان .

أما النظرة الى منطق العقل فان العقل يقضى بأن المسئولية عن العمل لابد أن تكون منوطة باستطاعة الانسان على الفعل أو الترك ، أما من لا يملك هذه الاستطاعة فلا يصح أن تتوجه اليه المسئولية أصلا ، فالمقذوف بالمنجنيق على سبيل الأكراه انسان ملجأ لا يملك تغيير وضعه الذى هو فيه ، فاذا آرتطم بانسان فقتله ، فانه غير مؤاخذ على ذلك . والمغلول بالسلاسل الذى يجر جرا على مجموعة من فراخ الدجاج فيقتلها بثقل جسمه ، لايعتبر مسئولا عما جرى منه ، ولا مؤاخذا عليه لأن ماجرى منه لم يكن اراديا له . وحين نؤاخذه على ذلك فاننا نظلمه .

فالعقل يفرق حتما بين العمل الارادى فيجعله مناط المسئولية، والعمل غير الأرادى فيعفى من جرى به أو صدر عنه من المسئولية .

وأما النظرة الى نصوص الشريعة الاسلامية ومفاهيمها . فقد أوضحها مذهب أهل السنة والجماعة ، اذ أثبتوا أن للانسان كسبا اختياريا يحاسب عليه . ويعتبر مسئولا عنه ، ويتوجه اليه التكليف الشرعى ضمن حدوده ، وما ليس للانسان فيه كسب اختيارى فلا مسئولية عليه فيه ، ولا يحاسب عليه ، ولا يترتب له أو عليه فيه ثواب ولا عقاب .

فالتقى واقع الانسان . ومنطق العقل ، مع نصوص الشريعة ومفاهيمها ، التى هدت أهل السنة والجماعة الى مذهبهم الوسط، الذى ذهبوا اليه ، وهو يقع بين طرفين متباعدين مذهب المعتزلة ومذهب الجبرية .

اما المعتزلة فقد أفرطوا اذ ذهبوا الى أن الانسان يخلق أفعال نفسه ، ولا علاقة للقضاء فيها . وأما الجبرية فقد أفرطوا فى الطرف المقابل اذ ذهبوا الى أن الانسان لا كسب له مطلقا ، بل هو كالريشة فى الهواء ، تصرف المقادير أعماله على ما تشاء ، دون أن يكون لأرادته أية حرية فى اكتساب عمله .

وقد وقع هؤلاء وهؤلاء فى مخالفة الواقع ومنطق العقل وأخطأوا فى فهم نصوص الشريعة الاسلامية .

فالانسان وفق المذهب الحق الذى تدل عليه نصوص الشريعة الاسلامية مخير ضمن دائرة حدود مسئوليته ، مجبر لا اختيار له فى كل ما يجرى فيه أو عليه من وراء حدود مسئوليته .

ووجود الارادة الحرة فى الانسان لم يتم الا بقضاء الله وقدره ، ولو شاء الله لسلب منه ذلك . فلولا أن شاء الله أن يهبنا المشيئة الحرة لم تكن لنا مشيئة . بل كنا كالكائنات الآخرى التى لا مشيئة لها . وانما تخضع أعمالها لسلطان القضاء والقدر بشكل مباشر . ويدل على أن الله وهبنا المشيئة الحرة بمشيئته قول الله تعالى :

« **وما تشاؤن الا أن يشاء الله** » (١) .

أما النصوص ففيها ما يدل على أن الله خالق كل شىء ، وفيها ما يدل على أن الله عليم بكل شىء . ما كان . وما هو كائن ، وما سيكون فى المستقبل . بما فى ذلك أعمال العباد التى يكسبونها باختيارهم الحر . وفيها ما يدل على أن كل شىء بقضاء وقدر . وفيها ما يدل على أن الله لا يكلف نفسا الا وسعها وأن مسئولية الانسان مرتبطة بأعماله الارادية التى يعملها باختياره الحر وفيها ما يدل على أن الله حكيم عادل لا يظلم أحدا مثقال ذرة . وأن كل نفس رهينة بما كسبت ، وأنه لا تزر وازرة وزر آخرى ، وأنه متى كان العمل صادرا عن غير ارادة الانسان

---

(١) سورة الانسان : الاية ٣٠ .

كان غير مسئول عنه ولا محاسب عليه ، وأن أعمال الله وأحكامه منزهة عن العبث .

وجمعا بين هذه المفاهيم المستفادة من نصوص الشريعة الاسلامية الصحيحة تتوضح لنا عقيدة أهل السنة والجماعة بجلاء .

١ ـ أن الله تعالى قد منح الانسان ارادة حرة يكسب بها أعماله الاختيارية ، ومنح الانسان بالاضافة الى ذلك سائر شروط امتحانه من عقل يدرك به التكاليف الربانية ، وقدرة على تنفيذ ما يكلفه من أعمال جسدية أو نفسية ، وبذلك تكون مسئوليته .

وحين تختل الشروط اللازمة لامتحانه وتكليفه ترتفع مسئوليته . ولما توجهت ارادة الله لمنح الانسان الارادة الحرة استحال في الوقت نفسه أن تتوجه لسلبه هذه الارادة وجعله مجبرا ، نظرا الى أنه يستحيل أن تتناقض ارادة الله .

فمنح الانسان الارادة الحرة من خلق الله وبمشيئته ، فهي مشمولة بالحقيقة القرآنية التي تدل على أن الله خالق كل شيء .

٢ ـ اختص علم الله بأنه كاشف لما كان . ولما سيكون في المستقبل ، بما في ذلك ما يصدر من الانسان من أعمال اختيارية يعملها بارادته الحرة .

والعلم صفة كاشفة للواقع . وليس من الضروري أن يكون العلم مقترنا بالارادة والخلق ، فالله يعلم ذاته ويعلم صفاته . مع أن كل ذلك واجب الوجود لم تتعلق به ارادة ولا خلق . ويعلم سبحانه المستحيلات مع أنها لا تتعلق بها ارادة ولا خلق . ويعلم سبحانه الاحتمالات الممكنة التي لم يختر ايجادها وخلقها ، وهي من الأمور التي لم تتعلق بها ارادة ولا خلق .

فما كل معلوم خاضع لسبق ارادة الله وخلقه ، واذا تساءل إنسان كيف يعلم الله ما سيريد الانسان باختياره الحر . كان

جوابنا : هذا من خصائص العلم الالهى ، وضمن هذه الحقيقة تفهم النصوص التى تثبت أن ما يعلمه الانسان من خير وشر مكتوب من قبل وجود ، أى : هو مكشوف بالعلم الالهى ، ويؤمر الملك بكتابة هذا المعلوم ٠

وفى هذا نقول : لقد سبق فى علم الله تعالى أن هذا الانسان سوف يعمل بارادته الحرة ما فيه سعادته ، وأن ذلك الانسان سوف يعمل بارادته الحرة ما فيه شقاوته ، وعلى أســاس عمله الناتج عن ارادته الحرة تكون مسئوليته ومحاسبته وجزاؤه ٠

٣ ـ ما يصدر من الانسان من أعمال ذات آثار فى الواقع المادى لا يمكن أن تتعارض أو تتناقض مع قضاء الله وقدره العام، وسبق العلم الآلهى بما سيعمله الانسان وبما قضاء الله وقدره فى كونه هو الذى أحكم الربط والتنسيق بين عمل الانسان وبين قضاء الله وقدره ، يضاف الى ذلك أن قدرة الانسان على التنفيذ لا تتم الا بامداد من الله واقدار ٠

وحين لايكون لله فى آثار كسب الانسان قضاء ولا قدر فان الله يحول قدرة الانسان عن التنفيذ ، أو يسلبها أو يضع دونها عقبـــات ٠

وبناء على هذا نقول : ان المقتول يموت بأجله الذى قدره الله وقضاه ، وعملية القتل تمت بكسب القاتل ، فهو مواخـذ عليه ، والذى أحكم التنسيق والربط بين كسب الانسان وقضاء الله وقدره هو علم الله السابق بما سيفعله الانسان ، وبما قضاه الله وقدره فى كونه ٠

اذن فلا يجرى من آثار أعمال الناس فى كون الله الا ما قضاه الله وقدره ، أو أذن به وسبق فى علمه ، ولله فى كل ما يقضى به أو يأذن به حكمة هو يعلمها ، وقد يطلع بعض عباده على بعض حكمه ٠

ونستطيع أن نمثل لواقع الربط بين كسب الانسان المعلوم لله وبين قضاء الله وقدره بالمثال التقريبى التالى :

تصور لو أنك جعلت مفتاح المصباح الكهربائى المعلق فى غرفتك فى مكان خفى لم يطلع عليه طفلك الصغير ، وجعلته بحيث تستطيع أن تشعل به المصباح وتطفئه . دون أن يشعر بذلك طفلك . ثم أردت أن تجرى امتحان ارادة طفلك ، هل يطيعك أو يعصيك دون أن يفعل شيئا له أثر مادى حقيقى . فقلت لطفلك :

اياك أن تنفخ على هذا المصباح . لئلا ينطفىء فاذا أطعتنى كافأتك . واذا عصيتنى عاقبتك ، ثم أخذت تراقب طفلك دون أن يشعر بمراقبتك . ولكن الطفل رجح بارادته الحرة جانب المعصية على جانب الطاعة . فأقبل نحو المصباح فنفخ عليه . وفى هذه اللحظة ضغطت أنت سرا على المفتاح فانطفأ المصباح الكهربائى .

ان الطفل سيشعر حتما بأنه هو الذى أطفأ المصباح بنفخته. ولكنك تعلم أنك انت الذى أطفأته باستعمالك السبب الحقيقى .

وأما ما كان من الطفل فلم يكن الا صورة برهن فيها على عصيانه لك . ومن ثم استحق فى نظرك المعاقبة على مخالفته ، ضمن الحدود التى قررتها لامتحانه .

ألاترى أن هذا المثال التقريبى مشابه لجريمة قتل انسان ظلما وعدوانا . فالقاتل انما يباشر السبب الصورى فى عملية القتل . لكن القتيل لم يمت الا فى أجله المقرر له فى قضاء الله وقدره ، وبالطريقة التى قدرها الله عليه . وقد اكتسب القاتل اثم مخالفته أمر الله وتوجيه ارادته الجازمة وقدرته الى معصيته بقتل انسان حرم عليه قتله .

٤ — يقع الانسان ضمن دائرتين : دائرة كبرى لا كسب له فيها ، فهو بالنسبة اليها مسير غير مخير ودائرة صغرى له كسب فيها . وهو بالنسبة اليها مخير غير مجبر .

فهو بين يدى القضاء والقدر كالعصفور فى قفص راعيه ، فالعصفور فى القفص متروك له حرية التنقل فى أركانه والأكل والشرب مما يقدم له من طعام وشراب . ومعاشرة أنثاه اذا قرن بينه وبينها فى القفص ، فاذا حمل العصفور كأس شرابه وأراقه وكسر زجاجها ، أو رمى بطعامه خارج القفص أو نتف ريش قرينته وحاول أذاها وضرها ، اعتبره صاحبه مذنبا ، وعاقبه على ذلك .

أما اذا حمله راعيه مع القفص ووضعه فى تيار الهواء البارد ، أو غمس به فى الماء ، أو وضعه فى مكان يتعرض فيه للأذى هو أو قفصه ، فانه لا يعتبر عصفوره مؤاخذا مهما ناله من جراء ذلك من مصيبة أو أذى ، أو نال قفصه ، لأن راعيه يعلم أن العصفور لا كسب له فى شىء من ذلك .

رفض رأى المعتزلة (ويسمون القدرية ، أى نفاة القدر) :

أما رأى المعتزلة فهو رأى متطرف مرفوض ، لمخالفته مفاهيم النصوص الثابتة الصحيحة الصريحة ، التى تثبت أن كل شىء بقضاء وقدر ، وتثبت سبق العلم الالهى بما يكون من أعمال اختيارية ، وقد تعسفوا فى تأويل النصوص تعسفا ظاهرا ، ولووا أعناقها ليأ منكرا .

رفض رأى الجبرية :

وأما رأى الجبرية فهو الرأى المتطرف الآخر ، الذى ذهب الى نهاية الطرف المقابل ، فزعموا أنه لا كسب للانسان فى خير أو شر ، فخالفوا فى ذلك منطق العقل وما يدركه الحس فى الواقع ، ومفاهيم النصوص الاسلامية الصحيحة الصريحة ، وقد تعسف هؤلاء أيضا فى تأويل النصوص تعسفا ظاهرا ، وغيروا المفاهيم الثابتة للظلم والعدل ولم يقدروا حكمة الله حق قدرها ، وأجازوا التكليف بغير المستطاع ، مخالفين بذلك قول الله تعالى :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها » (١) وقوله : « لايكلف الله نفسا الا ما آتاها » (٢) ..

ولنفي رأي الجبرية واثبات أن الله منح الانسان حرية الارادة في كل أعماله الارادية ، التي يعتبر مسئولا عنها ، ومحاسبا عليها في كل وجوه نشاطه الذي هو ساحة تكليفه في الحياة ، ومساحة اختباره وامتحانه ، تتضح لنا الأدلة التالية :

أولا : كل مخلوق يوضع موضع الامتحان لابد أن يكون حر الاختيار بين أكثر من طريق . أو أكثر من عمل ، والا لم يكن للامتحان مغزى . وكان عبثا من العبث ، ولا يفعل هذا عالم حكيم ، ونحن نعلم من النصوص القرآنية أن الخالق منزه عن العبث .

ثانيا : يستحيل عقلا أن يتوجه أمر التكليف الالهي لكائن لا يملك في نفسه القدرة على اختيار الطاعة ، وذلك لأن الله جل وعلا حكيم ، ولا يوجه أوامر التكليف لمجرد العبث وهو منزه عن العبث .

ثالثا : ثبت في النصوص القاطعة أن الله لا يكلف نفسا الا وسعها ، ولا يكلف نفسا الا ما آتاها ، ومن لا يملك حرية الارادة في اختيار عمله لا يكون هذا الاختيار مما آتاه الله ، فالله لا يكلفه لو كان كذلك .

ولما ورد التكليف علمنا أن هذا الاختيار من وسعه ، ومما آتاه الله اياه ، فسقط ادعاء الاجبار .

رابعا : ليس من العدل ولا من الحكمة أن يؤاخذ الله مخلوقا على عمل لم يكن هذا العمل مظهرا من مظاهر اختيار المخلوق وارادته . ولذلك نلاحظ في النصوص الاسلامية أن المؤاخذة والجزاء مقرونان بالأعمال الارادية ، ومتى سلبت الارادة عن عمل من الأعمال ارتفع التكليف وارتفعت المسئولية .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ .
(٢) سورة الطلاق : الآية ٧ .

وقواطع النصوص تبين هذه الحقائق . منها قول الله تعالى :

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم . ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » (١) .

أى : يؤاخذكم بما حلفتم من أيمان ناتجة عن كسب قلوبكم . وكسب القلوب هو توجه الارادة . فارتفعت المؤاخذة عما كان من لغو الالسنة . ولم يكن من كسب القلوب .

ومنها قول الله تعالى :

« وليس عليكم جناح فيما أخطاتم به . ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما » (٢) .

ومن هذا يظهر لنا ارتفاع المؤاخذة عن الاخطاء التى تخرج عن دائرة سلطة الارادة . مما لا يملك الانسان دفعه ، وأن المسئولية رهن بما تعمدت القلوب من أعمال . وما تعمدته القلوب هو ما توجهت الارادة التامة لفعله .

فاذا أضفنا الى هذا قول الله تعالى :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها .. » (٣) .

« لايكلف الله نفسا الا ما آتاها » (٤) .

وقوله الذى تكرر فى (الأنعام والأعراف والمؤمنون)

« لا نكلف نفسا الا وسعها » .

تبين لنا أن ورود التكليف يستلزم وجود الاستطاعة حتما ، وأول عناصر الاستطاعة وجود الارادة الحرة ، وتبين لنا أن المؤاخذة ترتفع متى سلبت الارادة . لأن التكاليف ترتفع حكما

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٥ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية ٥ .
(٣) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ .
(٤) سورة الطلاق : الآية ٧ .

عند سلبها . فلا يمكن أن يوجد فى الواقع تناقض بين مقتضيات المشيئة الالهية ومقتضيات أمر التكليف الالهى . ومقتضيات العدل الالهى .

والرأى الجبرى الفاسد يدعى سلب الارادة مع أن التكليف متوجه ، وأن المؤاخذة بعد ذلك متوجهة .

وهذا كما وضح لنا معارض للنصوص القرآنية . ومعارض لمنطق العقل ، وبديهته ، ومعارض لحكمة الله وعدله ورحمته وتنزه أفعاله وأحكامه عن العبث .

ويسأل الجبريون فيقولون : هل يفعل العاصى اذن معصيته معاندا لارادة الخالق أم موافقا لها ؟

ونقول فى الجواب : ان تصوير السؤال على هذا الوجه فيه مغالطة . فالقضية لا تقع فقط بين احتمالين اثنين . ولكنها تقع بين احتمالات ثلاثة . وهى :

الاحتمال الأول :

توجيه المشيئة الالهية لاجبار المخلوق على الطاعة :

الاحتمال الثانى :

توجيه المشيئة الالهية لاجبار المخلوق على المعصية .

الاحتمال الثالث :

توجيه المشيئة الالهية لجعل المخلوق ذا ارادة حرة غير مجبرة .

وقد توجهت المشيئة الالهية فعلا لاختيار الاحتمال الثالث بالنسبة الى الناس والجن . فاستحال أن تتوجه الى اضدادها فى نفس الوقت .

وحينما يختار المخلوق أمرا مما جعل الله له فيه سلطة الاختيار فان اختياره لذلك الأمر لا يعتبر بحال من الأحوال معاندا لارادة الله فى شىء . لان الله تعالى هو الذى أراد أن يمنحه سلطة الاختيار ليمتحنه ويختبره . كما أنه لا يقتضى أن يكون

الله جل وعلا هو الذى أجبره على أن يختار هذا الاختيار ، ولا يقتضى أيضا أن يكون الله جل وعلا راضيا عن كل ما يختاره المخلوق ذو الارادة الحرة .

ويظهر لنا هذا الموضوع تماما فى تجاربنا الانسانية فان من تمنحه حرية التصرف فى عمل ما قد يفعل مايسرنا ويرضينا ، وقد يفعل ما يسيئنا ويغضبنا . مع امكاننا أن نعزله عن ذلك العمل ، ونسلبه حرية التصرف فيه . ولا يكون عمله معاندا لارادتنا . بل قد نمد له ونبقى له طاقة العمل ، وساحة التنفيذ بين يديه ، لنمتحنه ونختبره ، وقد نوبخه ونؤدبه ، وقد ننذره ونحذره . حتى يحين وقت مؤاخذته ، ونحن فى كل ذلك نشاهد سوء تصرفه . وقد نرى من الحكمة أن لا نعارضه . وأن لانضع العراقيل فى طريقه أو نكفه عن العمل الذى منحناه فيه حرية التصرف . وقد نرى من الحكمة أن نملى له .ليصلح من تصرفه ، ويقوم من سلوكه . حتى يجتاز فترة الامتحان بنجاح ، وعملنا هذا لا شيء فيه من التناقض ، بل هو من مقتضيات الحكمة التى تقتضيها ظروف الامتحان الامثل .

وفى ساحة السيارات الكهربائية داخل معرض الالعاب الرياضية مثال للامتحان الذى لايملك فيه المشترك غير التوجيه . فالطاقة الكهربائية المسيرة يمد بها المشرف على الامتحان ، والسيارة تملكها جهة الامتحان . والمشترك ليس له الا كسب التوجيه . فاذا أحسن فيه اجتاز امتحانه بنجاح ، واذا أساء فيه كان من الفاشلين .

نصوص من أقوال أهل السنة والجماعة فى بيان مذهبهم الوسط

١ ــ جاء فى شرح الفقه الاكبر للامام أبى منصور الماتريدى : قال الامام أبو حنيفة وأصحابه : الخلق فعل الله وهو احداث الاستطاعة فى العبد . واستعمال الاستطاعة فعل العبد حقيقة لا مجازا . فسلموا بذلك من مذهب القدرية ومذهب الجبرية . وقال أبو حنيفة ان الاستطاعة التى يعمل بها العبد المعصية هى بعينها تصلح لعمل الطاعة وهو

معاقب على صرف الاستطاعة التى أحدثها الله فيه ، وأمره بأن يستعملها فى الطاعة لا فى المعصية . فصرفها الى المعصية .

٢ ـ روى الامام أبى حنيفة ، أنه سأل الامام جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهما . فقال : يا ابن رسول الله هل فوض الله الأمر الى العباد ؟ فقال : الله تعالى أجل من أن يفوض الربوبية الى العباد ، فقال له : هل يجبرهم على ذلك ؟ فقال : الله تعالى أعدل من أن يجبرهم على ذلك ، ثم يعذبهم فقال : وكيف ذلك ؟ فقال : بين البين ، لاجبر ، ولاتفويض ولا اكراه ولا تسليط .

٣ ـ قال العلامة سعد الدين التفتازانى : والحق ما قاله بعض أئمة الدين : أنه لاجبر ولا تفويض ، ولكن أمر بين أمرين .

٤ ـ ذهب الاستاذ أبو اسحاق الاسفراييني وامام الحرمين الى أن القدرة الحادثة مؤثرة باذن الله ، وتمكينه ، واقداره ، فلا يلزم اجتماع قدرتين مؤثرتين بالاستقلال في محل واحد . وقال امام الحرمين فى الرسالة النظامية : هذا والله هو الحق الذى لا غطاء دونه ، ولامراء به لمن وعاه حق وعيه .

٥ ـ روى أن على بن أبى طالب أجاب السائل عن القدر بقوله : « أما اذا أبيت فانه أمر بين أمرين لاجبر ولا تفويض » .

٦ ـ كتب الحسن البصرى الى الحسن بن على يسأله عن القضاء والقدر . فكتب اليه الحسن بن على رضى الله عنه :

« من لم يؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر ، وان الله تعالى لايطاع استكراها ، ولا يعصى بغلبة . لأنه تعالى مالك لما ملكهم ، وقادر على ما أقدرهم . فان عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما عملوا ، وان عملوا بالمعصية فلو شاء لحال بينهم وبين ما عملوا . فان لم يفعل فليس هو الذى جبرهم على ذلك . ولو جبر الله الخلق على الطاعة لاسقط عنهم الثواب ، ولو

جبرهم على المعصية لاسقط عنهم العقاب . ولو أهملهم كان ذلك عجزا فى القدرة . ولكن له فيهم خفى المشيئة . غيبها عنهم فان عملوا بالطاعة فله المنة عليهم . وان عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم والسلام » .

وهكذا كان فهم الأولين وعلى هذا المنهج الوسط استقر مذهب أهل السنة والجماعة . وهو ما يفهم من كلام العلامة الامام ابن تيمية فى القدر . كما جاء فى المجلد الثامن من مجموع الفتاوى .

ما تجرى به المقادير الربانية مما ظاهره شر هو فى حقيقة أمره خير . لقد علمنا أن الله حكيم . والحكيم لابد أن تكون أفعاله حكيمة . ولا بد أن يكون قضاؤه وقدره صادرين عن حكمته . والحكمة هى فى جانب الخير المطلق دائما .

ولكن قد يلزم من فعل الامر الحكيم الذى هو خير لوازم تبدو فى ظاهرها وبحسب تصور الناس لهنا أنهـا شر . ولدى التحقيق فى باطن أمرها يتبين أنها خير . والحكم عليها بأنها شر هو من قصور نظر الناس . ووقوفهم عند حدود الظواهر التى تخالف ما يحبون وما يشتهون . فحكمهم عليها حكم شخصى وليس حكما موضوعيا .

والشر الوحيد فى الوجود هو ما يصدر من المخلوق حينما يخالف أوامر الله ونواهيه ووصاياه لعباده .

أما أفعال الله تعالى فهي بمنظار الحقيقةمن قبيل الخير المطلق وان كان بعضها بالنسبة الى تصور الناس وادراكاتهم الحسية الآنية شرا .

ولما وهب الله الانسان فى هذه الحياة الدنيا الارادة الحرة . ووضعه موضع الامتحان ليختار بارادته الخلود فى النعيم عن طريق الطاعة . وكان هذا خيرا عظيما منحه إياه وشرفه به . اقتضى ذلك أن يقلبه على ألوان وصور وأنواع شتى مما يحب ومما يكره . ليشكر فيما يحب فلا يطغى ولا يكفر

وليصبر فيما يكره فلا يضجر ولا يكفر . وما يكره لابدأن يكون مؤلمـا . وهذا المؤلم يراه الانسان مصيبة . ويراه سوءا . ويراه شرا . ولكنه في الواقع لون من ألوان الامتحان لابد منه وفـق مقتضيات الحكمة لتحقيق النجاح الصحيح لمن أراده . وليكون عقبة فشل لمن لم يعبأ بظروف الامتحان .

ولدى البحث العميق في واقع حال النعـم والمصائب التي تنزل بالناس بقضاء الله وقدره . يتبين لنـا أنها أمور اقتضتها حكمة الخالق العظيم في عالم الابتلاء . وعالم الابتـلاء هـو الطريق الحتمي لعالم الجزاء . وكلهـا لدى الحقيقـة مشمولة بقاعدة الخير المطلق .

ان ألوان النعم التي يسميها الناس خيرا . وألوان المصائب التي يسميها الناس شرا مما لا دخل لارادةالانسان فيه ، لاتعدو أنها مظاهر تكمن فيها حكمة الخالق العظيـم . فليس شيء من المصائب الربانية لدى التحقيق بشر لذاته . وان كان يسمى في مفهوم الناس شرا . نظرا الى صورته الظاهرة المؤلمة . كمايسمى قصير النظر من المرضى عمل الطبيب الجراح الناصح شرا . متى شعر بألم من عمله . وكما يسمى الطفل وسائل التربية الحازمة التي يربيه بها أبوه العاقل العالم الناصح شرا . اذا آلمـه في شيء . أو حجر على هوى من أهوائه الجانحة عن سبيل الرشاد . وكما يسمى الطالب قصير النظر وفرة ما يقدم له من معـارف متعلقة بمادة مقررة عليه شرا . ويـسمى صـور الامتحان التي يمتحنه بها مدرسه الناصح الأمين ليكتشف مدى تحصيله شرا كذلك ، وكما يسمى شدة ملاحظة المراقبين له شرا . مع العـلم بأن هذه الامور كلها وسائل من وسائل الحياةالتي لايتم تحقيق الخير العظيم الا عن طريقها .

وحين نبحث عن الغايات الحكيمة التي تهدف اليها مقادير النعم والمصائب التي تنزل بقضاء الله وقدره . تتبين لنا الغايات التاليـة :

الأولى : الابتلاء ، وذلك لأنه قد تقضى الحكمة فى بعض الاحيان أن يكون الامتحان بالنعمة ، وقد تقضى الحكمة فى أحيان أخرى أن يكون الامتحان بالمصيبة . وفى ذلك يقول الله تعالى :

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون » (١) .

أى : نمتحنكم بما تسمونه شرا من مصائب وبما تسمونه خيرا من نعم ، ومعلوم أن أصل الامتحان هو من قبيل الخير ، لأنه هو الطريق الى نعيم الخلود لمن أراده . ويقول الله أيضا :

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » (٢) .

ومن أمثلة الامتحان بما هو مكروه وما هو محبوب فى تصرفاتنا الانسانية : ما يجرى من امتحان الطلاب فى مختبر الكيمياء ، فقد تكون المادة المطلوب تحليلها كريهة الرائحة منتنة ، ولكنها هى الوسيلة المناسبة لنجاح الطالب ، وظفره بما ينشده من شهادة . وقد تكون المادة المطلوب تحليلها طيبة الرائحة حسنة المنظر ، فتشغل الطالب عن واجبه ، ثم ينتهى الوقت دون أن يقدم عملا يحقق له النجاح المنشود .

فهل اعطاء المادة الكريهة التى كانت وسيلة لنجاح الطالب خير أو شر ؟ الحقيقة أن الامتحان خير ، لأنه هو الوسيلة لتحقيق الخير ، والامتحان بالمكروه خير ، لأنه قد يكون الوسيلة الفضلى للامتحان الأمثل .

الثانية : التربية والتأديب ، فقد تقضى الحكمة أن نربى من نربيه ونؤدب من نؤدبه ، بما يحب تارة ، وبما يكره تارة أخرى .

فقد تكون التربية بتحمل المتاعب المؤلمة . وبالدخول فى المآزق الحرجة ، وبمماركة المخاوف والمشاق ، وقد تكون

---

(١) سورة الالأنبياء : الآية ٣٥ .
(٢) سورة البقرة : الآية ١٥٥ .

التربية بالعطاء والتحبب والثناء ، ولكل منهما حالة ملائمة فيمن نربيه .

وكذلك يربى الله عباده ويؤدبهم بالمصائب تارة وبالنعم تارة أخرى .

ومن التربية الربانية للمسلمين بالمصيبة ما أنزل بالمسلمين فى أحد وفى حنين . فما كان فى أحد علم المسلمين أن لايخرجوا عن واجب الطاعة للقيادة . وما كان فى حنين علم المسلمين ألا يغتروا بكثرتهم . ولا يستهينوا بعدوهم .

الثالثة : الجزاء المعجل ، فقد تقضى الحكمة العظيمة بأن يجازى الله بعض عباده على بعض أعمالهم جزاء معجلا على ما عملوا من خير أو شر .

فيعطيهم شيئا من ثوابهم على ما فعلوا من خير . أو يصيبهم بشىء من المصائب على ما فعلوا من شر .

وللجزاء المعجل فى الدنيا أثر ظاهر فى حفز همم أهل الطاعة للاستزادة من فعل الخير ، وفى تذكير أهل المعصية حتى يتوبوا ، وينتهوا عن فعل الشر . وفى كل منهما عناية ربانية جليلة .

والمعجل من الثواب فى الدنيا أنواع كثيرة لاتحصى من الرغائب المادية والمعنوية . منها النصر والتأييد والعز والسودد ومنها الشعور بالسعادة والطمأنينة . ومنها اللذة بفيوض المعرفة الالهية .

والمعجل من العقاب فى الدنيا أنواع كثيرة لا تحصى مادية ومعنوية ، منها العيش الضنك ، ومنها الفشل والخذلان . ومنها الشعور بالشقاء والقلق . ومنها ضيق الصدر وتبلبل الفكر واضطراب النفس .

وقد يكون معجل العقاب تكفيرا وتطهيرا .

خاتمـــة :

لدى ملاحظة هذه الحقائق يعلم المؤمن أن ما يجـــرى بـــه القضاء والقدر كله خير ، وليس شىء منـــه فى الحقيقة شرا ، لذلك يكون المؤمن مستقر النفس مطمئنـــا ســـعيدا فى حالتى النعمة والمصيبة ، والرخاء والشدة . ولئن كان حسه الجسدى فى الالم فان شعوره الروحى والقلبى فى الرضـــا عـــن الله ، والتسليم التام له ، ولا تكون هذه السعادة القلبية والروحيـــة لغير المؤمنين ، وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله عليـــه فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن صهيب : « عجبـــا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ، ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء صـــبر فكان خيرا له » .

مسئولية الانسان عن أعماله الارادية

حين يتم للمسلم التصور الصحيح لمفهوم القضاء والقدر ، وفق الفهم الذى كان عليه السلف الصالح ، وأدركه أهل السنة والجماعة من بعدهم ، فانه لا يخلـــط بين مواقع المسئولية الانسانية وما يجرى بمحض القضاء والقدر .

أما ما يجرى بمحض القضاء والقدر فانه يستقبله بالتسليم والرضا ، ويعلم أنه عين الحكمة التى اقتضتها ارادة الحـــكيم العـــليم .

وأما ما يقع فى دائرة المسئولية الانسانية فانه يباشر فيه الاسباب التى اقتضتها سنة الله فى كونه ، وأمرت بها شريعة الله فيما أنزل على رسوله ، ويحاسب نفسه ويحاسب الآخرين وفق حدود المسئولية التى ناطها الله بالمكلفين من عباده .

فلا يلقى نفسه فى التهلكة اعتمادا على ما تقضى به المقادير الربانية ، لأن هذا من حدود المسئولية الانسانية ، ولا يتـــرك أسباب الكسب التى أمر بها الله ، اعتمادا على ما تقضى به المقادير الربانية فى الرزق ، لأن مبـــاشرة أسباب الكسب من حـــدود

المسئولية الانسانية ، ولا يترك الجهاد فى سبيل الله لنصرة دين الله ورد كيد أعداء الله . اعتمادا على ماتقضى به المقادير الربانية من النصر والهزيمة ، لان القيام بواجب الجهاد فى سبيل الله من حدود المسئولية الانسانية ، ولا يترك اعداد المستطاع من القوة . اعتمادا على قوة الله القادر على نصر أوليائه على أعدائه، لأن اعداد المستطاع من القوة لارهاب أعداء الله وأعداء المسلمين من حدود مسئولية المسلمين . وهكذا الى سائر الاسباب التى تقع ضمن حدود المسئولية الانسانية . وضمن حدود التكاليف الربانية .

بهذا الفهم السليم والعمل السببى الذى أوجبه الله على الناس ، وجعله من سنن كونه . ظفر المسلمون الأولون بالمجد العظيم . واحتلوا مركز قيادة الناس الى الحق .

التوكل والاعتماد على الله

بعد أن يتخذ المسلم مختلف الأسباب المادية التى أمر الله باتخاذها ، لتحقيق النتائج المطلوبة التى تقع ضمن دائرة المسئولية والتكليف . يلاحظ أن مايرجوه من نتائج محاط باحتمالات فشل كثيرة . لا تملك استطاعته سد ثغراتها، وتفادى مخاطرها ، فهو من كل جانب مهدد بأن لاتنفعه أسبابه ولا وسائله لذلك فهو يباشر الأسباب وفق سنن الله فى كونه وأوامره فى شريعته . ويلتجىء بقلبه الى الله ، متوكلا عليه ، معتمدا على معونته . مستعينا بقوته لتحقيق مايرجوه من نتائج يباشر أسبابها على قدر استطاعته . ويسأله تعالى أن يدفع عنه العقبات . ويمنع عنه العراقيل . ويمده بالتأييد والتسديد والتوفيق والمعونة . معتقدا أن الاسباب وحدها لا تنفع الا باذن من الله وتمكين .

فالتوكل على الله ، والاعتماد عليه ، والاستعانة به ، أمور من أعمال قلب المؤمن ، فاذا امتلأ بها قلب المؤمن وهو يباشر الاسباب المادية على مقدار استطاعته . ازدادت قوته المعنوية فى

الاندفاع لتحقيق النتائج المرجوة ، ثقــة منــه بأن الله يسدده ويؤيده ، وسيحقق له ما يرجو اذا علم أن فيه الخير •

وحين لاتتحقق النتائج المرجوة بعداتخاذ الأسباب المستطاعة يلاحظ المؤمن أن الله قد قضى له ما هو خير ، وادخر له الافضل والاحسن ، فهو يستقبل عدم تحقيق النتائج بمثل استقباله لها فيما لو تحققت ، وهكذا يكون مطمئن القلب رضيا . ويكون في أعماله باذلا أقصى ما يستطيع ، متفائلا واثقا بأن الله لا يقضى له الا ما هو خير •

وهكذا يكون المؤمن سببيا فى أعماله المادية ، متوكلا على الله فى حركاته النفسية والقلبية ، راضيا بما يقضيه الله مما يحب ومما يكره ، مسلما تسليما كاملا •

القسم الثانى

العبــادة

أسسها وروحها ومفاهيمها وحكمها وآثارها

كتب هذا القسم الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى

صلة العبادة بالقاعدة الايمانية :

على أسس من القاعدة الايمانية تقوم العبادة فى الاسلام ، ولذلك كان الأمر بالعبادةمستندا الى قاعدةالايمان الراسخةفى قلوب المؤمنين ، فقال الله تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (١) » .

فرتب الله فى هذا النص الأمر بالعبادة على تحتق وصف الايمان .

التصورات وردود أفعالها فى النفس :

للتصورات الاعتقادية ردود أفعال فى النفس ملائمة لها ومساوية لها في مقدارها شدة وضعفا ، وذلك عند سلامة الفطرة النفسية وأجهزتها ، وسلامة التصورات من العوارض المشوشة عليها ، أو الصادة لها الواقفة فى طريقها تمنعها من النفوذ الى النفس ، أو المخدرة لها اذ تشلها عن الحركة والتأثير، فتغدو تصورات اعتقادية ميتة فى قلوب أصحابها بالشلل الذى أصابها ، فهى حينئذ قد ترى ولا تتحرك وقد تعى ولا تفعل شيئا فلابد لها من علاج فى كل هذه الاحوال غير الطبيعية .

أما فى الحالة الطبيعية السليمة فلكل تصور اعتقادى رد فعل نفسى ملائم له ، ومساو له فى مقداره ، أو زائد عليه من شحنة ذاتية تنطلق من نفس الانسان ، فمن أدرك فى تصوره الاعتقادى واقع الانعام والاكرام الذى يتوارد عليه من منعم

---

(٣) سورة الحج : الآية ٧٧ ، ٧٨ .

مكرم متفضل فانه لابد أن تتوجه نفسه اليه بالمحبة ، وتندفع الى مدحه والثنـاء عليه ، ثم تندفع الى رد جـميله ومكافأته بالمثل ، هذا هو رد الفعل الطبيعى الفطرى فى النفس الانسانية لدى كل انسان سوى بالنسبة الى هذا التصور الاعتقادى •

ومن أدرك في تصوره الاعتقادي حقيقة شيء كبير عظيم جليل قادر على أن يحمي ويعز ويرفع فلابد أن تنفعل نفسه باكباره واجـــلاله واعظامه ، وحينما يرى أنه بحاجة الى الاحتمـاء والاعتزاز والارتفاع به ، ويشعر بضآلة نفسه تجاهه فانه لابد أن ترغب نفسه بالانتماء والانتساب اليه ، تقويا واعتزازا به ، وطلبا للرفعة والمجد ، وهذا رد فعل طبيعي فطرى فى النفس الانسانية لدى كل انســان سوى ، بالنســبة الى هذا التصور الاعتقادى •

ومن ردود الأفعال الطبيعية الفطرية النفسية لدى الانسان السوى أنه متى شعر بحاجته أو ضرورته الى غيره فى معونة أو فضل أو امداد بشيء ، فانه يخضع له ويذل استعطافا لمعونته وفضله وامداده ، اذ يطلب منه ما يرجو ، هذا ما لم يمنعه مانع الكبر •

اما رد الفعل النفسى الطبيعي الفطرى فى الانسان السوى حينما يلاحظ فى تصوره الاعتقادى وعيد السلطة العادلة على الاساءة ومعصية الواجب بالعقاب الشديد ، ويلاحظ قدرة هذه الســلطة على البطش بالمسيئين وسعة اطلاعها على كل صــغيرة وكبيرة تجرى فى مدى سلطانها فهى مشــاعر الخوف والرهبة وبواعث الحذر من المغامرة فى ارتكاب الاســاءة وفى معصية الواجب •

هذا فى الوقت الذى يــكون رد الفعل الطبيعى النفسى فى الانسان السوى حينما يلاحظ فى تصوره الاعتقادى مواعيــد الســلطة العادلة بالثواب الكبــير على الاحسان وطاعة الأوامر ويلاحظ قدرة هذه السلطة على التنفيذ ، وسعة اطلاعها على كل

صغيرة وكبيرة ، أن تتحرك فيه مشـاعر الطمع والرغبـة بنيل الثواب الكبير ، وأن تتحرك فيه بواعث العمل والسعي لتحقيق ما به ينال هذا الثواب الكبير .

هذه طائفة من ردود الأفعــال النفسية تجـاه طائفة من التصورات التي تمس مشاعر النفس وتؤثر فيها .

روح العبــادة :

وحينما تلتقي ردود الأفعال النفسية هذه وتتوجه نحو جهة واحدة فان النفس تشعر حينئذ بمزيج عجيب من ردود الأفعال النفسية ، باستطاعتنا أن نسميها (الخشية) .

فالخشية على هذا مركب من طائفة من المشاعر النفسية يحتوي على حب يلهج بالثناء والمديح ، ويتحرك رغبة برد الجميـل ، ويحتوي على اجلال واكبار واعظـام يقترن به شـعور بضآلة النفس بين يدي العظيم الكبير ورغبة بالانتماء اليه ، ويحتوي على شـعور بالحاجة وطلب مقرون بخضوع وذل واستعطاف ، ويحتـوي على طمع ورغبة وأمل ، وبواعث طاعة وعمـل ، ويحتـوي على خوف ورهبة وحذر ، وبواعث طاعة وضـبط للنفس .

هذا المركب العجيب من المشاعر النفسية الذي قد يلتقي في النفس متجها شطر جهة واحـدة هو روح العبــادة الكاملة . وحقيقتها في داخل النفس .

فالعبادة رد فعل نفسي طبيعي من ردود أفعال النفس السوية تجاه التصورات الايمانية .

العبادة لاتكون الا لله :

وحينما تأتي المفاهيم الايمانية في الاسـلام ، وتستقر في قلب المسلم ووجدانه ، وتكون قاعدتها الكبرى ، وتسيطر بالحق على جوانب التصور الاعتقادي ، يدرك المسلم حقا أن هذا المركب العجيب من المشاعر النفسية لايصح أن يتوجه الا لله لأن أحدا غير الله تبارك وتعالى لا يستحقه . فالعبادة لا تكون الا لله لأنه لا اله غيره ، ولا رب سواه .

الله وحده هو الذى له صفات الكمال .

(أ) فمن هو فى الوجود المتفضل بخلق الانسان وتكريمه ، وامداده المستمر بالنعم الظاهرة والباطنة غير الله ؟

ان الجواب الايمانى يقول فى فكر المؤمن وقلبه : لا رب الا الله ، فلا خالق غيره ، ولا ممد بالنعم الظاهرة والباطنة سواه .

اذن فليكن اليه الحب والحمد وبواعث الشكر ، التى هى ردود أفعال النفس السوية ، تجاه الخالق المتفضل بالايجاد والتكريم ، الممد بالنعم التى لاتحصى ، ولتكن اليه وحده العبادة فى هذا المجال .

وتذكيرا بهذه الحقيقة وبناء عليها نادى الله الناس جميعا يأمرهم بعبادة ربهم خالقهم ورازقهم والمنعم عليهم ، وينهاهم عن أن يجعلوا لله اندادا ، فقال تبارك وتعالى :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » (١)

ولما رأى ابراهيم عليه السلام ملكوت السماوات والأرض وعلم أن الله هو فاطرهما ، قال فيما حكاه الله عنه :

« انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » (٢) .

واستثارا لله فى قريش هذا الأساسى من الأسس الدافعة الى عبادة الله تعالى ، فقال سبحانه :

« لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (٣) .

أى : فحق الرب المنعم عليهم بطعامهم وأمنهم أن يعبدوه ، وقد وضح هذا المعنى فى نفس رجل من أهل البلدة التى أرسل

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١ ، ٢٢ .
(٢) الأنعام : الآية ٧٩ .
(٣) سورة قريش .

الله اليها رسلا ثلاثة فكذبوهم وأوعدوهم بالرجم ان لم ينتهوا عن دعوتهم ، فجاء هذا الرجل المؤمن من أقصى المدينة يسعى ، وقال لقومه : كما حكى الله عنه :

« يا قوم اتبعوا المرسلين · اتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون· ومالى لاأعبد الذى فطرنى واليه ترجعون · أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون · انى اذا لفى ضلال مبين · انى آمنت بربكم فاسمعون » (١) ·

ويتكرر فى القرآن فى مناسبات متعددة بيان أن العبادة حق الربوبية ، فيقول الله تعالى :

« ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيـل » (٢) ·

ويقول تبارك وتعالى :

« ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع الا من بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفـلا تذكرون » (٣) ·

أى : فمن هو الرب الخالق هو الاله الذى لا اله الا هو ، فلا يستحق العبادة سواه فاعبدوه · ولما كان شـكر الله عنصرا من عناصر عبادته سبحانه ، قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله ان كنتـم اياه تعبدون » (٤) ·

وقال سبحانه :

« بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » (٥) ·

فدل هذا على أن الشكر من عناصر عبادة العبد لربه ·

ولمـا كان حمد الله والثناء عليه عنصرا من عناصرعبادة الله وكان أول ردود أفعال النفس تجـاه التصورات الايمانية ، لأنه تعبير عن الاعتراف بالحق ، كان أول شىء فى العبادة ، وكان

---

(١) سورة يس : الآيات ٢٠ ــ ٢٥ ·
(٢) سورة الأنعام : الآية ١٠٢ ·
(٣) سورة يونس : الآية ٣ ·
(٤) سورة البقرة : الآية ١٧٢ ·
(٥) سورة الزمر : الآية ٦٦ ·

أول ما جاء فى فاتحة الكتاب (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) .

(ب) ومن هو فى الوجود ذلك العظيم الكبير المتعالى ، الخالق البارىء المصور ، القادر المقتدر العليم الحكيم ، اللطيف الخبير ، السميع البصير ، المحيط بكل شىء قدرة وعلما ، مالك الملك ، ذو الجلال والاكرام . غير الله تبارك وتعالى ؟

ان الجواب الايمانى يقول فى قلب المؤمن : لا أحد غير الله .

اذن فليكن اليه وحده من ردود أفعال النفس السوية الاكبار والاعظام والاجلال على وجه لا حد له فى الأنفس الا الدهشة بعظمته والتضاؤل بين يديه ، وليكن اليه وحده الانتماء والانتساب بالعبودية ، تقويا به وارتفاعا ، لأنه لا أحد يستحق ذلك غيره .

ونستطيع أن ندرك عظمة الخالق من ادراكنا أنه خالق كل شىء ، ونجد فى طائفة من النصوص التى استشهدنا بها فى الفقرة الأولى ما يدل على هذا العنصر من عناصر العبادة مثل قول الله تعالى :

« **ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل** » (١) .

(ج) ومن هو فى الوجود ذلك الذى يلجأ اليه الملتجئون فى كل حاجاتهم فيجدونه القوى المتين الوهاب الرزاق الولى الغنى المغنى الذى يملك النفع والضر ؟

ومن هو فى الوجود ذلك الذى يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ؟ .

ان الجواب الايمانى يقول فى قلب المؤمن : لا أحد غير الله .

اذن فليكن اليه وحده من ردود أفعال النفس السوية الدعاء والخضوع . والتضرع والخشوع . وليكن اليه وحده ذل النفس وانكسارها . اذ لا أحد يستحق ذلك غيره سبحانه .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٠٢ .

وارشادا الى هذه الحقيقة قال الله تعالى :

« أمن يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض؟ أاله مع الله ، قليلا ما تذكرون » (١) .

وقال تعالى :

« واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه » (٢) .

ولما انحرف المشركون وعبدوا غير الله ، والتجأوا الى غير الله، ودعوا غير الله ، ناظرهم الله بالحجة البرهانية ، وهداهم بهـا الى الصواب ، فقال تعالى لرسوله :

« قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لـكم ضرا ولا نفعـا والله هو السميع العـليم » (٣) .

وبأسـلوب الانكار أوضح الله فساد طريقة المشركين فقـال تعـالى :

« أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟ ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون » (٤) .

وأعلن ابراهيم عليـه السـلام تضجره من شرك قومه في عبادتهم ، بعد أن جادلهم بالبرهان جدالا رشيدا . قال الله تعالى يقص علينا مقالة ابراهيم :

« قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » (٥) .

وقال لهم :

« وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلـكم خير لـكم ان كنتم تعلمون . انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افـكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون » (٦) .

(١) سورة النمل : الآية ٦٢ .
(٢) سورة هود : الآية ١٢٣ .
(٣) سورة المائدة : الآية ٧٦ .
(٤) سورة النحل : الآية ٧٢ ، ٧٣ .
(٥) سورة الأنبياء : الآية ٦٦ ، ٦٧ .
(٦) سورة العنكبوت : الآية ١٦ ، ١٧ .

ولما كان الدعاء عنصرا أساسيا من عناصر العبادة ، لأنه تعبير عن الالتجاء القلبي ، قال الله لرسوله :

« قل : أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله » (١) ·

وأمرنا الله بأن تدعوه مخلصين له الدين فقال تعالى :

« فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (٢) » ·

فالدعاء النافع الحق هو الدعاء الذى يكون لله ، واما دعاء غيره فهو دعاء في ضلال ، قال الله تعالى :

« له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين الا فى ضلال » (٣) ·

وقال تعالى :

« ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين » (٤) ·

وقال الله تعالى :

« ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون » (٥) ·

ومن هو فى الوجود الرحيم الرحمن ، ذو الجود والاحسان ، وذو الجلال والاكرام ، وذو الطول والانعام ، الشكور الذى يكافيء على الحسنة بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة ؟

ومن هو فى الوجود العفو الرؤوف الغفار التواب قابل توبة المذنبين ؟

ان الجواب الايمانى يقول فى قلب المؤمن : لا أحد غير الله ·

اذن فلنتوجه اليه وحده من ردود أفعال النفس السوية مشاعر الرغبة والطمع وبواعث فعل الخير وتقويم السلوك ·

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٧١ ·

(٢) سورة غافر : الاية ١٤ ·

(٣) سورة الرعد : الآية ١٤

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٩٤ ·

(٥) سورة الأحقاف : الآية ٥ ·

(هـ) ومن هو فى الوجود العزيز الجبار المنتقم القهار الحكم العدل المقسط شديد العقاب ؟

ان الجواب الايمانى يقول فى قلب المؤمن : لا أحد غير الله ٠

اذن فلنتوجه اليه من ردود أفعال النفس السوية مشاعر الخوف والرهبة ، وباعث الحذر من فعل الشر والانحراف فى السلوك ٠

وقد حرك هذين العنصرين من عناصر العبادة ما ثبت من وعد الله ووعيده فى البشائر والانذارات لأن مشاعر الرغبة والطمع والخوف والرهبة تضبط سلوك الانسان على صراط العبادة الصحيحة لله تعالى ، ولذلك جاء قوله تعالى :

» الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ٠ ألا تعبدوا الا الله ، اننى لكم منه نذير وبشير » (١) ٠

وهو ما أعلنه نوح لقومه ، فى قوله تعالى :

« ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ، أن لاتعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » (٢) ٠

وهو ما أعلنه هود أيضا فى قوله تعالى :

« واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٣) ٠

وهكذا يتضح لنا أن القاعدة الايمانية التى تملأ فكر المؤمن ووجدانه بالتصور الصحيح للوجود ، هى التى تجعله يدرك حقا أن الله وحده هو الذى يستحق كل ردود الافعال النفسية التى يمثل اجتماعها روح العبادة ، لأنه هو وحده الذى له الصفات المطلقة التى تستدعيها ٠

وكلما ارتقى المسلم فى تصوراته الايمانية باتجاه الحقيقة الكاملة تثبتت ردود أفعاله النفسية هذه شطر جهة واحدة هى

---

(١) سورة هود : الآية ١ ، ٢ ٠
(٢) سورة هود : الآية ٢٥ ، ٢٦ ٠
(٣) سورة الاحقاف : الآية ٢١ ٠

الجهة التى تفردت بكمال الصفات التى تستدعيها ، انها جهة الله تبارك وتعالى ، اذ تتجلى فى نفسه حقيقة كبرى من حقائق الوجود ، يدرك بها أن هذه المشاعر لو اتجهت شطر غير الله لم تجد شيئا تصل اليه ، وينعكس منه آثار فعلية نافعة ، أو تنعقد به وصلة حقيقية ، بل تظل هذه المشاعر تلاحق سرابا ، لا تجد فيه بردا ولا شرابا وتستمر فى ضياع وترجع بخيبة أمل ٠

العبادة فطرة ربانية فى نفوس الناس :

هذه المشاعر التى لا تليق الا بالله ، ولا يستحقها أحد سواه هى العبادة الخالصة المستقرة فى قلوب المؤمنين المتقين ونفوسهم ٠

وقد تبين لنا أنها مشاعر فطرية ، يحس بها كل انسان سوى ، ، ويوجهها شطر وجهها الصحيح كل انسان لديه القاعدة الايمانية الصحيحة ٠

اذن فالعبادة لله فطرة فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، وقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة فقال الله تعالى :

« صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » (١) ٠

وقال جل وعلا :

« فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٠ منيبين اليه ، واتقوه ، وأقيموا الصلاة ، ولا تكونوا من المشركين » (٢) ٠

الارتقاء فى مراتب الاحسان :

وحينما يلاحظ المؤمن أن الله يحب المتقين ويحب المحسنين ، ويلاحظ أن الله رقيبه فى كل حركة وسكنة ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السماوات والأرض ، ويلاحظ أن محبة الله سبب لكل خير عظيم ، وسبب لنيل أعظم مراتب السعادة الدنيوية والأخروية ، فلابد أن تتحرك فى نفسه بواعث السعى للارتقاء فى مراتب التقوى حتى بلوغ مرتبة الاحسان ، للظفر بمحبة

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٨ ٠

(٢) سورة الروم : الآية ٣٠ ، ٣١ ٠

الله له ، فاذا بلغ هذه المرتبة غدا موصولا بالوجـود الأكبر ، الوجود الأزلى صلة تكريم ومحبة .

وقد عرف الرسـول صلوات الله عليه فى الحديث الصحيح مرتبة الاحسان بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) .

أى : فاذا أحضرت فى تصـورك أن الله يراك أحسـنت فى فى عبادتك له . فجعلتها خالصة متقنة . واستزدت منها لتظفر برضاه .

العلم شرط لازم لاكتساب الخشية على اختلاف مراتبها :

وبالتحليل السابق نستطيع أن نقول : ان الخشية التى تتألف من الحب الحامد الشـاكر ، ومن التعظيم والاكبار والاجـلال المقرون بالرغبة بالانتماء مع الذل والخضوع والخشوع والدعاء ، ومن الطمع بفضل الله الباعث على الطـاعة وفعل الخير ، ومن الخوف من عدل الله الباعث على الطاعة وترك الشر ، هى التى تمثل الصـورة الصحيحة الجامعة للعنـاصر الرئيسية للعبـادة الداخلية فى ذات الانسان .

وعلى مقدار امتداد هذه المشـاعر تأثرا بامتداد المعرفة فى ادراك كمالات الله التى لا تسـتطيع العقـول الاحاطة بمداها يكون الارتقاء فى درجة الخشية أى : فى درجة العبادة النفسية والقلبية . ولذلك كانت الخشية الحقيقية من الله تعالى منحصرة بالعلماء العارفين بصفات الله ، والمتحسسين آثارها فى نفوسهم ، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم على سبيل الحصر ، فقال تبارك وتعـالى :

« انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور » (١) .

وطبيعى أن هذه الخشية ذات مراتب أدناها الخوف من العقاب وأعلاها يكون باستيفاء عناصر العبادة كلها ، وبسبب ذلك تأتى

(١) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

مراتب قوة تأثير هذه العناصر فى النفس وفى السلوك وعليه تتفاوت مراتب العابدين ٠

ولا يلزم من وجود العلم وجود الخشية ، لاحتمال وجود عوارض وموانع تعطل أو تحول ردود الأفعال النفسية ، وتكون النفس عندئذ مصابة بمرض اخلاقى صارف عن طاعة الله وعبادته ، كما أنه لا يلزم من وجود الايمان وجود كمال العبادة ، فعلينا اذن أن نتبين أسباب ضعف مشاعر العبادة فى نفوس بعض الناس وأسباب انعدامها ٠

اسباب ضعف مشاعر العبادة أو انعدامها أو تحولها عمن هى له :

(أ) قد يضعف التصور الايمانى مع سلامة العقيدة المستقرة فى القلب فتضعف بضعفه مشاعر العبادة التى هى فى النفس ردود أفعال طبيعية للتصور الصحيح ٠

وقد ينعدم التصور الايمانى أو يغشى عليه فتنعدم بانعدامه هذه المشاعر ، وتتوجه حينئذ شطر غير الله ، هائمة تائهة ، أو وفق تصورات أخرى ، وتدخل بذلك رياح من رياح الشرك الى القلب والنفس ٠

ومن ذلك ملاحظة الأسباب دون مسببها ، اذ تجعل النفس تتعلق بالأسباب منقطعة عن المسبب ، فتتوجه مشاعرها نحو الأسباب ، فبعض هذه الأسباب يستأثر بمشاعر الحب ، وبعضها يستأثر بمشاعر الاجلال والتعظيم ، وأسباب تستأثر بمشاعر التضرع والذل والدعاء ، وأسباب تستولى على مشاعر الطمع والرغبة ، وأخرى تستبد بمشاعر الخوف والرهبة ٠

وهكذا تتوزع النفس بين معبودات شتى، وآخر مداها أن يتخذ الانسان الهه هواه بعد أن اتخذ فى نفسه آلهة من دون الله ، وحينئذ يستحوذ عليه الشيطان فيعبده بطريقة غير مباشرة ، وينسى عبادة ربه تبارك وتعالى ، وفى هذا غاية الاستغراق فى الأرضيات وعبادة النفس والشهوة والهوى ٠

وهذا الانسان يمسى تعيسا غير سعيد ، وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا بقوله فيما رواه البخارى عن أبى هريرة (تعس عبد الدينـــار وعبد الدرهم وعبد الخميصـة ان أعطى رضى وان لم يعط سخط ، تعس وانتكس واذا شيك فلا انتمش) .

وعبادة النفس والشهوة والهوى مرض يشوه كيان الانسان ، ويعدل به عن فطرته التى خلقها الله فى أحسن تقويم وينزله عن مستوى الانسانية السوية ، حتى يبلغ بالانهيار الى مستوى الأنعام ، قال الله تعالى :

« أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » (١) .

(ب) وقد يفسد التصور الايمانى من أساسه ، وتحل محله عقائد باطلة طاغية على فكر الانسان وقلبه ونفسه ، وعندئذ تتجه مشاعره النفسية لعبادة الطواغيت التى آمن بها ، ومن الأمور الحتمية فى واقع الانسان أن من كفر بالله الحق تولته الطواغيت ، فأخرجته من النور الى الظلمات وفى هذا يقول الله تعالى :

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيهـــا خالدون » (٢) .

وحينما يصل الانسان الى هذا المستوى من عبادة الطواغيت عبادة مباشرة فانه يصل الى حالة من المسخ القبيح لانسانيته فى كيانه الداخلى ، يشبه المسخ الجسدى الى قردة وخنازير ، بل هو فى الحقيقة أقبح منه ، وقد أشار القرآن الى هذا فى معرض مجادلة الحاقدين من يهود بقوله تعالى :

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٧ .

« قل : هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل » (١) .

فعباد الطاغوت هم والذين مسخوا قردة وخنازير سواء .

(ج) وقد تفسد الاجهزة النفسية فلا تعطى ردود أفعالها الصحيحة على الرغم من سلامة التصور الفكرى — وهذه الأجهزة النفسية الفاسدة قد تقابل الانعام والاكرام بالجحود والكنود ، ويكون الداء الذى أفسدها هو داء الكبر ، وداء الكبر قد يدفع الى جحود الحق والكفر بالنعمة ، وقد يدفع داء الكبر الى كراهية المنعم المتفضل بدل حبه ، والى ذمه بدل حمده والثناء عليه ، والى الاساءة اليه بدل مكافأته بالشكر قال تعالى :

« وانه على ذلك لشهيد . وانه لحب الخير لشديد » (٢) .

أى : فالانسان كنود جاحد لنعم الله عليه ، مع أنه شديد الحب لهذه النعم . ولكن داء دويا فى نفسه هو الذى يصرفه عن عبادة ربه .

وداء الكبر الذى هو أنانية العظمة قد يصاحبه داء الشح الذى هو أنانية التملك . فيستقبل الشحيح الانعام والاكرام محبا له ، وتكز نفسه عن أن يكافىء بأقل القليل . ويرد على الجميل الكثير بالجميل الضئيل . وفى هذه الحالة تنطمس بصيرته عن ادراك حقيقة السنة الربانية التى تضمنها قول الله تعالى :

« واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد» (٣).

وداء الكبر له آثر آخر فى النفس اذ تفقد النفس بسببه مشاعر الاكبار والاعظام والاجلال للعلى المتعالى الكبير العظيم ذى الجلال والاكرام والطول والانعام . وطبيعى أن فقد هذه المشاعر سبب لامتلاء النفس بالغرور والخيلاء والاستكبار

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٠ .

(٢) سورة العادية الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

(٣) سورة ابراهيم : الآية ٧ .

وهيهات ان تخضع مثل هذه النفس المريضة لبارئها وتذل له في عبادة صادقة .

ومن فساد الأجهزة النفسية تبلد حسها تجاه المخاوف النظرية والتصورية . التي تكون في دائرة الابعاد والتحذير، لا في دائرة الواقع الملموس . وسبب فساد هذه الاجهزة طول الأمد في النعمة والرخاء ، وقد أبان القرآن ذلك بقوله تعالى :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » (١) .

وذكر القرآن من اخلاق الانسان أنه متى تواردت عليه النعم أنسته ذكر ربه . فاذا حلت به المصائب عاد الى ربه داعيا بدعاء عريض . قال الله تعالى :

« واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عـــريض » (٢) .

او جلس بينه وبين نفسه يؤوسا يجتر أحزانه . قال الله تعالى :

« واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مســـه الشر كـان يؤوســـا » (٣) .

وتبلد الحس تجاه المخـاوف المرتقبة غير الواقعة فعـلا هو ما شكى منه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب اذ قال : (لا تتذوق قارعة حتى تحل بنـا)

وفي تجاربـــنا المتكررة نلاحـظ أننا قد نمـارس بعض المخاطرات بجرأة ، فاذا تعرضنا فيها لحادثة مؤلمة أخذنا نشعر بالخوف الشديد والحذر من ممارسة مثل هذه المخاطر ، فاذا طال علينا العهد نسينا ، وعدنا سيرتنا الأولى .

---

(١) سورة الحديد : الآية ١٦ .
(٢) سورة فصلت : الآية ٥١ .
(٣) سورة الاسراء : الآية ٨٣ .

من أجل ذلك كانت النفوس بحاجة الى وقائع مؤلمة توقظ فيها الاحساس بالخوف ، حتى يؤثر فيها الترهيب الوارد فى النصوص ، فتخاف مغبة الاثم والمعصية ،وتستقيم على الصراط، وحتى يكون فى تصورها ماثلا واضحا مؤثرا يشابه الواقع الملموس .

ولذلك كان المؤمن عرضة للأعراض التى تذكره بالله ، وتوقظ فيه حس الخوف من عقابه وعذابه ، وتذكره بمسئوليته في الحياة ، حتى لا يطول أمده فى النعمة ، فيقسو قلبه، ويتبلد حسه ، وينسى بذلك ربه ، بخلاف المنافق فان النعم والمصائب بالنسبة اليه سيان . وفى هذا يقول الرسول صلوات الله عليه ، فيما رواه البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة (مثل المؤمن كمثل الزرع لاتزال الريح تميله ، ولايزال المؤمن يصيبه البلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرزة لا تهتز حتى تستحصد) .

فالأحداث والاعراض المؤلمة للمؤمنين هى من نعمة الله عليهم.

لذلك فان المؤمن فى حياته يحسب ألف حساب للمخاوف المرتقبة بموجب وعيد الله قبل أن يتجرأ على معصيته تبارك وتعالى ، وهذا الاحساس بالخوف الموصول بالايمان عنصر أساسى من عناصر عبادة الله ، وفقده بتبلد الحس أو بالافراط في الرجاء والطمع بعفو الله يربى فى الأنفس الجرأة على المعاصى والمخالفات .

بيد أن العبادة الحقة المشحونة بمراقبة الله ضمن اطار القاعدة الايمانية تحمى من هذا الأثر الخطير فى حياة المسلم .

ومن فساد الاجهزة النفسية تبلدحسها تجاه المطامع الموعود بها ، وحينما لايكون فسادها من ضعف القاعدة الايمانية فان فسادها يأتى من أغشية عارضة تغشى على التصور الصحيح

كأن يمتلىء التصور المؤثر فى النفس بواردات المطامع والشهوات العاجلة ، فتسد هذه الواردات الطريق على المطامع العظيمة الآجلة ، وعندئذ تتوجه النفس الى حب العاجلة،وحب العاجلة ينسى الآخرة ويرفعها من التصور المؤثر الفعال ، وهذا ما بينه القرآن يقول الله :

« كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة » (١) .

وعلاجها يكون بشغل النفس بالتصورات الايمانية عن طريق تذكيرها المتكرر بالقاعدة الايمانية ،وعناصر هذه القاعدة لاسيما مايتعلق منها بالدار الآخرة ، وما فيها من جزاء عظيم ، بالثواب أو بالعقاب للمحسنين والمسيئين ، فهذا التذكير الدائم وأهمه تلاوة القرآن من شأنه أن يجلو غشاوات النفس،ويعيدها شيئا فشيئا الى احساسها الطبيعي الفطرى ، ويخلصها من مرض التبلد . وعلاجها يأتى أيضا بممارسة العبادة العملية الصادقة المستوفية لعناصرها ، اذ تقوى فى الأنفس جانب التصورات الايمانية ، وتذكر الانسان بربه، وترفعه من التعلق بالأرضيات شيئا فشيئا ، وتصله بقاعدة الايمان الذى يمد حركة التصور باستمرار ، فيصحح مسيرتها ، وبتصحيح مسيرتها تأتى ردود الانفعال النفسية الملائمة لها ، وهذا انما يكون فى النفوس السوية السليمة من الامراض الاخلاقية ، التى تجنح بها فلا تكون لها ردود أفعال صحيحة .

ويكون علاج النفس أيضا بالجامها وكفها عن التمتع بكثير من النعم العاجلة ، ولذات الحياة الدنيا،وبحرمانها من كثير من رغائبها وشواتها المباحة ، تخفيفا من جموحها الذى يفضى بها الى البطر والمرح ، والانتقال من دائرة اللذات والمتع المباحة الى اللذات والمتع المحرمة ، فهذا الالجام والكف والحرمان يخفف من حب العاجلة والتعلق بها ، ومتى خف تعلق النفس بالعاجلة توجهت شطر الآجلة بتحريك من القاعدة الايمانية وعندئذ تقوى التصورات الايمانية فتؤثر فى النفس آثارها .

(١) سورة القيامة : الآية ٢٠ ، ٢١ .

وهذا العلاج من العلاجات التربوية التى يؤدب ويربى الله بها المؤمنين الذين توالت عليهم الغفلات . فأنستهم ذكر ربهم ، وبلدت حس نفوسهم تجاه عناصر القاعدة الايمانية ، فيردهم اليه بالحرمان والمصائب . فطعم الالم بذكر الانسان بضعفه وحاجته ، فيرده الى ربه ، بخلاف طعم اللذة الذى ينسيه ويبطره ويطغيه ويخيل له أنه قد استغنى .

العبادة واجب أخلاقى :

وهذه النفوس المريضة التى ليس لها ردود أفعال صحيحة تجاه القاعدة الايمانية تبرهن على نفسها بأنها تفقد العناصر الأخلاقية الأساسية الاولى التى بها تستجيب لاداء الواجب الأخلاقى ، اذ وضح لنا بالتحليل أن عبادة الله تبارك وتعالى واجب أخلاقى مفروز فى الأنفس قبل أن يدرك الانسان أنه واجب دينى .

وتبرهن على نفسها أيضا بأنها لم تكن مستحقة للتكريم الانسانى الذى كرمها الله به ، وبذلك تنتكس فى وجودها انتكاسا خطيرا يجعلها دون مستوى الكائنات الحية الخسيسة ، وبذلك أيضا تستحق النقمة الالهية والعذاب على مقدار انتكاسها وكفرانها للنعمة وكنودها وجحودها للحق واستغراقها بأنانياتها العاجلة ، وتمردها على أوامر بارئها ، واستكبارها عن طاعته ، وعدم أدائها ما يجب عليها .

العبادة واجب دينى :

بالاضافة الى كون العبادة رد فعل طبيعى للقاعدة الايمانية وواجبا أخلاقيا مفروزا فى الفطرة الانسانية . هى أيضا

واجب دينى جاءت به الشرائع السماوية كلها ، فما من رسول الا أمر أمته بعبادة الله تبارك وتعالى ، وبتوحيد الله بالعبادة . وما من رسول الا نهى أمته عن عبادة ما سوى الله ، تحريرا للنفس وللكرامة الانسانية من عبادة ما سوى الله . وتحديدا لمسيرة الانسان فى الحياة على منهج الله . فهو الخالق وهو الذى له الامر

كله ، وهو الذى يجب أن يعبد ولا يعبد سواه ، وهـــو الذى له الحكم فى الوجود ، وقد أمر أن لا نعبد الا اياه .

هذه حقائق دلت عليها نصوص قرآنية كثيرة ، منها قول الله تعـــالى :

« **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** » (١) .

وقول الله تعالى :

« **وما أرسلنا من قبلك من رســـول الا نوحى اليـــه أنه لا اله الا أنـــا فاعبدون** » (٢) .

وما من رسول الا قال لقومه : (يا قوم اعبدوا الله) وقـــد حكى الله هذا عن طائفة كبيرة من الرسل فى عدة آيات :

ولمـــا كان الحكم فى الوجود لله وحده ، وقد أمر أن لانعبد الا اياه ، كان علينا أن نطيع أمره ولا نخالفه ، فالقضية مرتبطة بأمره ، وعلينا الطاعة والامتثال ، وهذا ما قاله يوسف عليـــه السلام فى دعوته من كان معه فى السجن الى توحيد الله ، قال تعالى يحكى لنا مقالته :

« **ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم ألا لله أمر أن لاتعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون** »(٣) .

ويعلن الله حكمه بأن لانعبد الا اياه فقال تعالى :

« **وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه ..** » (٤) .

ويبين الله تبارك وتعالى أن عبادة المشركين ليس لها أساس من علم ، وليس لها أساس من أمر الله فقال تعالى :

---

(١) سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٥ .

(٣) سورة يوسف : الآية ٣٩ . ٤٠ .

(٤) سورة الاسراء : الآية ٢٣ .

« ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا ، وما ليس لهم به علم ، وما للظالمين من نصير » (١) ٠

ولمـا كانت عبادة غير الله تتم عن جهل كبـير بمن يستحق العبادة علم الله رسوله أن يقول للمشركين ذلك فقال له :

« قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » (٢) ٠

واذ نهى الله نهيا شديدا عن عبادة غيره قال لرسوله :

« قل : انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، قل : لاأتبع أهواءكم قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين ٠ قل : انى على بينة من ربى وكذبتم به ، ماعندى ماتستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين»(٣) ٠

مستويات العبــادة :

استنادا الى ما عرفناه من العناصر النفسية التى تتكون منها العبادة الكاملة وهى كما وضح لدينا تتلخص بأربعة محاور :

١ ــ محــور الحب ٠

٢ ــ محور التعظيم والاجلال والانتماء بالعبودية ٠

٣ ــ محور الحمد والشكر ٠

٤ ــ محور الطمع والخوف ٠

فمن أراد أن يكون عابدا لله حقا فى المستوى الرفيع عبـد الله بهذه المحاور كلها . وارتقى فى درجاتها جميعا ، أما المنازل الرفيعة فيها فهى منازل النبيين والصديقين . فهم يعبدون الله مع أنهم قد آمنوا وضمنوا الفردوس الأعلى عنده،وهذا المستوى من العبادة هو ما أجاب به الرسول صلوات الله عليه أصحابه اذ قال لهم (أفلا أكون عبدا شكورا) ٠

فقد روى البخارى ومسلم عن المغيرة قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه فقيل له : لم تصنع هذا

---

(١) سورة الحج : الآية ٧١ ٠

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٤ ٠

(٣) سورة الأنعام : الاية ٥٦ ، ٥٧ ٠

وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : (أفــلا أكون عبدا شكورا) .

وأثنى عمر رضى الله عنه على صهيب رضى الله عنه اذ رأى انه يعبد الله عبادة فوق مستوى الخوف من عقابه بقوله : (نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه) أى فصهيب يعبــد الله بعامل آخر فوق عامل الخوف . ومن يعبد الله فى مستوى الحب أو في مستوى التعظيم والاجلال والانتماء اليــه بالعبودية فان الشيطان لا يكون له عليه سلطان ، لأن الشيطان يدخل من مداخل الشهوات ، وهى فى محور الطمع والخــوف ، ومستوى الحب ومستوى التعظيم والاجلال والانتماء بالعبودية فوق محــور الطمع والخوف .

لذلك خاطب الله ابليس بقوله :

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا » (١) .

ولا يكون سلطان الشيطان الا على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، قال تعالى :

« انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » (٢) .

ويتنازل مستوى العبادة فى نفوس بعض الناس حتى تكون عبادتهم منحصرة فى مستوى المحور الرابع محور الطمع والخوف وحينئذ تكون عبادته من مستوى الدرجة الدنيا ، لأن هذا المحور يقع فى أدنى المستويات .

ولهذه الدرجة أيضا وسط وطرف ، أما وسطها فيــكون بملاحظة الآخرة وما فيها من نعيم وعذاب ، وأما طرفها فيكون بملاحظة ثواب العاجلة وعقابها فقط ، ومن يعبد الله على هــذا الطرف لا يثبت للفتنة ، سواء أكانت الفتنة من قبيــل المغريات

---

(١) سورة الاسراء : الآية ٦٥ .

(٢) سورة النحل : الآية ٩٩ ، ١٠٠ .

المادية والمطامع الدنيوية أو كانت من قبيل المصائب والآلام ، وهذا الصنف من الناس هو الصنف الذى ذكره الله بقوله تعالى :

« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمـأن به . وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والاخرة.ذلك هوالخسران المبين»(١)

آثار مشاعر العبادة النفسية والقلبية فى السلوك :

لكل انفعال نفسى ولكل رد فعـل طبيعى أثر فى النفس تعبيرات فى السلوك الظاهر للانسان ، وتعبيرات فى السلوك غير الظاهر .

(أ) فالحب فى القلب لابد أن يكون له تعبيرات فى السـلوك الظاهر مالم تمنعها من الظهور موانع قاسرة .

(ب) ومشاعر الاكبار والاعظام والاجلال والخضوع النفسى لها فى السلوك الظاهر تعبيرات ملائمة لها مالم يمنعهـا من الظهور مانع قاسر أو صارف آسر .

(ج) ومشاعر الحمد والشكر لها فى السلوك الظـاهر تعبيرات ملائمة لها كذلك .

(د) ومشاعر الطمع والرغبة والرجاء لها فى السلوك الظاهر تعبيرات ملائمة لها كذلك .

(هـ) ومشاعر الخوف والرهبة لها فى السلوك الظاهر تعبيرات ملائمة لها كذلك أيضا .

وحين تتهيأ سبل التعبيرات فى السلوك الظاهر ولا توجد موانع خارجية تمنعها من الظهور فان عدم وجودها فى السلوك الظاهر يدل على عدم وجود المشاعر الداخلية أصلا . لا سـيما اذا وجدت تعبيرات مضادة لها فى السلوك الظاهر. تشعربوجود مشاعر أخرى ملائمة لهذه التعبيرات .

---

(١) سورة الحج : الآية ١١ .

من هذا نستنتج أن مشاعر العبادة النفسية القلبية لابد أن يكون لها فى السلوك الظاهر آثار تعبيرية ٠

واذ قد وضح لدينا أن مشاعر العبادة لله تعـــالى هى ردود أفعال النفس الفطرية الاخلاقية تجاه التصورات المستندة الى القاعدة الايمانية والمتأثرة بملاحظة صفات الخالق جل وعلا ، ما يتعلق منها بفضائل ذاته العظيمة ، وما يتعدى منها الى خلقه بالايجاد والامداد ، والفضل والعدل ، والوعد والوعيد ، فان آثار هذه العبادة النفسية القلبية فى السلوك تتناول كل الاعمال الارادية الداخلية والخارجية فى الانسان ٠

أولا : فمن الاعمال الارادية الداخلية ما يلى :

(أ) حركات الفكر الارادية ٠
(ب) حركات النفس الارادية ٠
(ج) المكتسبات الاخلاقية الارادية ٠
(د) النيـــات ٠

وحينما يكون الانسان فى أعماله الارادية الداخلية عابدا لله تبارك وتعالى فانه يوجهها فيما يرضيه سبحانه من خـــير ، ويبعدها عما لا يرضيه من شر ، فيسمو فى فكره وقلبه وعواطفه وشهواته الى مواقع طاعة الله وعبادته فى كل أمر يخضع لسلطان ارادته ، ويكون فى كل ذلك راضيا بالله ربا وبالاسلام دينـــا وبمحمد رسولا ، ومسلما لأحكام الله تسليما تاما ، وعنـــدئذ يذوق طعم الايمان وحلاوته ٠

ثانيـــا : وأما آثار العبادة النفسية والقلبيـــة فى السلوك الظاهر فتكون فى تعبيرات اللسان وفى تعبيرات سائر الأعضاء٠

١ ــ وتعبيرات اللسان تكون بالاعلان عن مشاعر هــذه العبادة من جهة ، وتكون بقيام اللسان بطاعة الله تعـــالى ضمن وظائفه الطبيعية من جهة أخرى ، فهو من جهـــة ترجمان ما فى النفس ، وهو من جهة أخرى له وظائف عملية كسائر الجوارح والاعضاء ٠

وحينما يكون اللسان ترجمانا معلنا عن مشاعر العبادة في النفس والقلب فان تعبيراته تكون بما يلي :

(أ) فهي تكون بعبارات توحيد الله وتمجيده ، والاكثار من ذكره ، وفي ذلك تكون عبادة التعظيم والاجلال والانتماء اليه بالعبودية .

(ب) وتكون أيضا بعبارات الثناء على الله وحمده بمحامده كلها وتعظيمه واجلاله ، وفي ذلك تكون عبادة الحمد المشعرة بالحب والتعظيم والاعتراف بالفضل .

(ج) وتكون بعبارات الدعاء والالتجاء والتضرع والاستعانة والاستغاثة ، وفي ذلك تكون عبادة الدعاء المشعرة بالرجاء والخوف ، واعتقاد تفرد الله بالقدرة على تحقيق مطالب العباد .

(د) وتكون أيضا بعبارات الكفر بما سوى الله من آلهة وطواغيت ، وبالاستعاذة بالله من الشيطان ومن شر كل ذي شر ، ولذلك كانت كلمة اعلان الاسلام متضمنة الكفر بكل اله سوى الله ، والايمان بالله وحده (لا اله الا الله) ولذلك كان من عبادات المسلم قبل البدء بأعماله وتلاوته أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وأن يستعين بالله وحده (بسم الله الرحمن الرحيم) .

وفي هذا تعبير عن القاعدة الايمانية المعلنة بقوله تعالى :

« فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » (١) .

٢ ـ وأما تعبيرات الأعضاء بحسب وظائفها الطبيعية ودلالتها الرمزية ، فتكون بالاعلان عن مشاعر هذه العبادة ولكن بحركات جسدية خاصة .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣٢ .

(أ) فالتعبير عن توحيد الله يكون بتقييد أنواع السلوك بأحكام الله ، وعدم قبول أى حكم لم يأذن به الله فى شريعته لعباده ، ويقترن بذلك من القلب الرضا والتسليم • وفى التعبير الرمزى من توحيد الله فى حركات الأعضاء نلاحظ توحيد الجهة التى ينبغى أن نتوجه اليها حينما نوجه قلوبنا الى الله فى العبادات المحضة • فالكعبة قبلة الصلاة والطواف مع أننا حيثما نولى وجوهنا فثم وجه الله • والسماء قبلة الدعاء فى غير الصلاة والطواف وبعض العبادات الخاصة ، مع أن الجهات كلها متساوية بالنسبة الى الله تبارك وتعالى •

(ب) والتعبير عن تمجيد الله وتعظيمه يكون بالخضوع الجسدى لله تبارك وتعالى ، ويبرز ذلك فى الركوع والسجود واعلان التذلل والتضرع بين يديه سبحانه ولذلك جاء فى الحديث الصحيح : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » رواه مسلم عن أبى هريرة ، وانما كان أقرب مايكون وهو ساجد لأن السجود تعبير رمزى جسدى عن نهاية الخضوع المماثل لغاية الخضوع فى النفس ، ويبرز تمجيد الله وتعظيمه بتقييد أنواع السلوك بأحكام دينه وشرائعه لعباده ، لأن هذا التقييد كما يشعر بتوحيد الله يشعر بتعظيمه وتمجيده اذ يدل على شعور النفس بأن أحكام الله هى أفضل الأحكام وخيرها وأصلحها للناس وأنفعها للأفراد وللجماعات • ويبرز تعظيم الله وتمجيده بتعظيم شعائره ، وتعظيم ما أمر بتعظيمه من ماديات أو معنويات ، كتعظيم القرآن ، وتعظيم الرسول ، وتعظيم البيت الحرام وأمثال ذلك ، قال الله تعالى :

« ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » (١) •

(١) سورة الحج : الآية ٣٢ •

(ج) والتعبير عن المحبة يكون بكل ما سبق . مع الاقبال على طاعة الله والسعى الحثيث الى عبادته ، والاجتهاد فيها ، والحرص على كل عمل فيه مرضاته سبحانه . والتضحية فى سبيله بكل عزيز على النفس محبوب ، ويكون بالاستزادة من نوافل العبادات ، والاستكثار من فعل الخيرات • فاذا كان بذل المال يرضى الله تعالى دعت المحبة الى بذله ، فكان بذله تعبيرا عن محبة العبد لربه ، واذا كان بذل النفس يرضى الله تعالى دعت المحبة الى بذلها.فكان بذله تعبيرا ماديا عن محبة العبد لربه ، واذا كانت التضحية بعواطف النفس أو شهواتها هى التى ترضى الله تعالى فان المحبة تدعو الى التضحية بذلك ، وتكون هذه التضحية تعبيرا ماديا عن محجة العبد لربه ، ومن التعبيرات الرمزية عن هذه المحبة السعى الى البلد الحرام ، والطواف حول بيت الله العتيق ، والاكثار من تعبيرات المحبة يزيد من قرب العبد الى ربه ، حتى يبلغ منزلة يستحق فيها فيض محبة الله له ، وعندئذ يمنحه الله رتبة من العطاء فوق مرتبة العابدين العاديين.ويتولاه بعنايته ورعايته ، ومعونته ، وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى قال:من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضته عليه . وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وان سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه » •

(د) والتعبير المادى عن بواعث الشكر فى القلب والنفس لا يمكن ادراكه على وجه الحقيقة لأن الله تبارك وتعالى غنى عن عباده ، غنى عن كل شىء ، فليس من

المستطاع شكره تعالى بتقديم شىء ينفعه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ففى الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله قال : « يا عبادى : انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا . يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا . يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى الا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر . يا عبادى : انما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم اياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » . لذلك كان التعبير المادى عن بواعث شكر الله منحصرا فى الثناء الجميل على أياديه ونعمه . وفى طاعته تبارك وتعالى ، وفى القيام بما يرضيه من عمل ، وفى بذل النفس وما تملك ، وبذل طاقات الجسد فى الوجوه التى تتحقق فيها مرضاته سبحانه .

نشكر الله بالبذل للفقراء والمساكين ، لأن الصدقة لهم تحقق مرضاة الله تعالى ، فنكون بذلك قد شكرناه على عطائه بعطاء فى سبيله . ونشكر الله بمعونة ذوى الحاجات فى أجسادنا أو جاهنا أو سلطاننا ، لأن معونة ذوى الحاجات بالحق تحقق مرضاة الله تعالى ، فنكون بذلك قد شكرنا الله على نعمه ببذل نبذله فى سبيله ، مما أنعم به علينا من قوة أو جاه أو سلطان .

ونشكر الله بنشر العلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم ، لأن ذلك يحقق مرضاة الله تعالى ، فنكون بما قمنا به قد شكرنا الله بالبذل فى سبيله مما أنعم علينا به ٠

ونشكر الله بالجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال، لأن الجهاد فى سبيله يرضيه ، وأنفسنا وأموالنا من فضله ٠

ونشكر الله بذبح الهدى والأضاحى واطعام القانع والمعتر ، لأن ذلك يرضيه ، ونحن نعلم أنه لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى التى تكون فى قلوبنا باعثة على سلوكنا ، وما نملك من ذبائح هو من فضل الله ونعمه علينا ٠

ونشكر الله على نعمه فلا نستعملها فى معاصيه ، وعلى مثل هذا تكون تعبيرات شكرنا ، وفوق ذلك لانستطيع ، لأن الله غنى عنا وعن كل شىء ٠

(هـ) والتعبير المادى عن الطمع بفضل الله وثوابه يكون بالاستقامة على سلوك طريق الحق والخير والهدى ، لاغتنام السعادة والثواب الاكبر الذى وعد الله به المحسنين ٠

(و) والتعبير المادى عن الخوف من عقاب الله يكون باجتناب سبل الباطل والشر والضلالة، لاتقاء الشقاوة والعقاب الشديد الذى أعده الله للمجرمين ٠

(ز) والتعبير المادى عن الكفر بما سوى الله من طواغيت وكراهية أعداء الله يكون بمجاهدة شياطين الانس ومقارعة أعداء الله فى معارك اللسان والقلم وغيرهما وفى الحروب المسلحة ، ويكون أيضا برجم شياطين الجن فى منسك من مناسك الحج بعملية رمزية جدد

الله لها مواقع ثلاثة وعملا معينا ، اشارة الى تعدد مسالك الشياطين التى ينفذون منها الى افساد فكر الانسان وقلبه ونفسه . كما حدد الله لعبادته الايجابية فى الصلاة مركزا واحدا جعله قبلة العابدين لله وحده ٠

وهكذا تكون التعبيرات المادية فى السلوك الظاهر ملائمة لمشاعر عبادة الله تعالى القلبية والنفسية ، التى هى ردود أفعال طبيعية أخلاقية للتصورات المستندة الى القاعدة الايمانية لدى النفوس السوية الزكية ٠

وبهذا يتضح لنا أساس العبادة وردود الأفعال القلبية والنفسية فيها ، ومظاهرها فى السلوك ، بوصفها تعبيرات ليس من المستطاع صدها الا بطريقة تخالف الطبيعة الانسانية وتقهر اندفاعاتها ، وتحرمها من التنفيس عن ضغط وجدانى يتصاعد فى داخلها ، أو بطريقة شاذة تتجه فيها هذه التعبيرات الى من لايستحقها من مخلوقين ، أو الى مالا يستحقها من مخلوقات ، أو الى أوهام مطلقة ، أو تشتد ضغوطها فى النفس حتى تحدث خللا داخليا فى تكوين الذات الانسانية ، اذ يصاب الانسان بسبب ذلك بجنون العظمة ، وتتزايد حتى تصل الى مشاعر فرعونية ربوبية ، أو يصاب بأمراض عصبية خطيرة لا شفاء لها الا بمشاعر العبادة لله تعالى وتعبيراتها ، فهى بها تنال الراحة من عنف الضغط الداخلى ٠

« صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون (١) » ٠

ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لبلال اذا حان وقت الصلاة (أرحنا بها يا بلال) ٠

ولما تركت أجيال الشعوب التى غزاها الالحاد عبادة الله تعالى تاهت فى فراغ روحى خطير ٠ فمنهم من عبد الأهواء والشياطين ، ومنهم من عبد الاشخاص ، ومنهم من فر من واقع

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٨ ٠

الحياة الى الخمر والمخدرات ، أو من الحيـاة بالانتحـار ، اذ وجد أن حياته غدت فى واقعه لا معنى لها ولا مغزى ٠

العبـادة لمصلحة العـابد :

ولدى التحليل المنطقى والتحليل الدينى العلمى يتضح لنا أن العبادة لمصلحة العابد وليست لمصلحة المعبود :

(أ) فهى تعبير فطرى من تعبيرات الكمال الانسانى الذى يبرهن به الانسان على سمو فطرته ، وكمال خلقه ، واستحقاقه ماكرمه الله به من خصائص ٠

(ب) وهى طريق الانسان الى السعادة الخالدة اذ خلقه الله فى هذه الحياة ليبلوه . وجعل سعادته الخالدة رهنا بأن يسلك صراط الله . الذى هو صراط الحق والخـير والهداية ، والذى يعبد بسلوكه ربه ، قال الله تعالى :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ٠ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ٠ ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (١) ٠

(ج) وفى العبادة راحة للنفس وسعادة روحية اذ يلبى الانسان بها حاجة فطريةمن حاجات نفسه الأساسية ٠

(د) وفى كل لون من آلوان العبادات حـكم ومصـالح تعـود فوائدها على العابدين آفرادا وجماعات . وسيأتى بيـان جوانب منها ٠

شمول العبـادة فى الاسـلام :

وتمتد مفاهيم العبـادة لله فى الاسـلام ، وتتسـع دائرة تعبيراتها فى السلوك ، حتى تكون هى الضابط لـكل سـلوك الانسان الداخلى والخارجى . والمحرك له، والفاعل الدائم فيه٠

فما من عمل ايجابى آو سلبى فكـرى أو قلبى أو نفسى أو جسدى يعمله الانسان بارادته الحرة ويعتبر مسؤولا عنه الا كان عبادة لله ، متى تحقق فيه شرطان :

---

(١) سورة الذاريات : الآيات ٥٦ . ٥٧ ، ٥٨ ٠

ـ **الشرط الأول :** كون العمل موافقا لأحكام شريعة الله لعباده ، فيما أمر به ، أو نهى عنه أو أذن به .

الشرط الثاني : ابتغاء مرضاة الله فى العمل .

(أ) فمن العبادة فعل ما أوجب الله فعله ، أو رغب بفعله ، اذا اقترن ذلك بابتغاء مرضاة الله سبحانه .

(ب) ومن العبادة ترك ما حرم الله فعله ، أو رغب بتركه ، اذا اقترن ذلك الترك بابتغاء مرضاة الله سبحانه .

(ج) ومن العبادة استباحة ما أباح الله فعله أو تركه ، اذا اقترنت هذه الاستباحة بابتغاء مرضاة الله تعالى والتقييد بأحكام شريعته لعباده ، وتزداد قيمة المباح فى مجال العبادة اذا اقترن فعله أو تركه بنية صالحة فيها مرضاة الله تعالى وتتناسب الزيادة مع مقدار اتساع دائرة النية الصالحة .

فمن أمثلة ذلك الطعام والشراب المباحان ، اذا فعلهما الانسان أو تركهما ملاحظا أن ما اختاره انما اختاره لأن الله تعالى اذن له بهذا الاختيار ، فان له أجر تقيده بحكم الله وشريعته . فاذا أضاف الى ذلك نية صالحة كنية التقوى على طاعة الله ، وكف نفسه عما حرم الله ، وصيانة نعمة الله بتكريمها ، أو أضاف الى اختياره الترك ايثار غيره ، أو مجانبة الاسراف ، أو عدم اذهاب الطيبات فى الحياة الدنيا ، أو أى غرض مما يحبه الله ، فان دائرة العبادة تتسع بمقدار اتساع هذه المعانى . ومن أمثلة ذلك أيضا ما جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن أبى ذر ، وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «وفي بضع أحدكم صدقة » قالوا : يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أريتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك اذا وضعها فى الحلال له أجر » .

والمعنى في ذلك أنه كف نفسه عن معصية الله بما أباح الله ، مبتغيا بكفه عن المعصية مرضاة ربه . فكان له أجر كف النفس عن المعصية . فاذا لاحظ مع ذلك ابتغاء ماكتب الله له من ذرية ، ليربيها تربية اسلامية ، ويقوم بواجبه نحوها ، فانه بذلك يحقق معنى آخر من معاني العبادة ، وكذلك سائر العبادات من مختلف المستويات . تتناسب قيمها مع النيات فتمتد أبعاد العبادة بقدر امتداد النية المقرونة بالعمل ومهما امتدت تصورات عبادة الله في النية الصالحة امتدت أبعادالعبادة في العمل ، ولو كان العمل أساسا من الأعمال المباحة في أحكام الشرع ، لأن المباحات تنقلب الى عبادات وطاعات بالنيات الصالحات ، وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » .

ولدى استقصاء ألوان العبادات نلاحظ أنها تناولت كل جوانب الانسان وقطاعاته الداخلية والخارجية . فلكل جهاز في النفس والانسان قسط من العبادة الايجابية والسلبية ، يتناول اختصاصاته الارادية ، للفكر عبادة التفكر والتدبر ، وللقلب عبادة الايمان بالله وصفاته ، والرضا عنه فيما تجرىبه مقاديره وحب الله ، وحب ما يحب، وكراهية مايكره. والكفر بالطاغوت وبكل باطل ... وهكذا .

وللنفس عبادات أخلاقية كثيرة ، منها التعلق بالمكارم والفضائل ، والتطلع الى معالي الامور التي يحبها الله ، ومجانبة سفاسفها ، ومنها مجانبة الحسد والحقد . والبعد عما تشتهي من المحرمات ، وكف النفس عن الغضب الذميم ، ومنها القناعة وكف النفس عن المطامع الدنيئة ، وتوجيهها لما عند الله من فضل عاجل أو آجل .

وللسان عبادات ايجابية وسلبية كثيرة ، منها الذكروتلاوة القرآن ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعليم الناس الخير ، وتقديم النصيحة، ومنها كفهعن الكذبوالغيبة والنميمة وايذاء الناس بالقول .

ولكل عضو من أعضاء الجسم عبـــادة تتعلق به ايجابيـة وسلبية • فللنظر عبادة النظر فى كتاب الله ، والنظر الى الكعبة المشرفة ، والنظر فى ملكوت السماوات والأرض للتدبر في بديع صنع الله ، والنظر بحنان وعطف للأهل . وللاخــوان فى الله ، وللنظر أيضا عبادة الكف عن محارم الله •

وللسمع عبـــادة استماع آيات الله ، واستماع المواعظ والنصائح ، والاصغاء الى حديث الجليس جبرا لخاطره ، وغير ذلك ، وله أيضا عبادة الكف عن استماع ماحرم الله استماعه ، من كذب ، وغيبة ، ونميمة ، وقول فحش ، ونحو ذلك •

ولليد عبادات . وللرجل عبادات ، وللبطن عبادات ولسائر الأعضاء عبادات سلبية وايجابية •

فكل عضو وكل مفصل يتحرك من أجل حاجات النفس عليه قسط من العبادة لله تعالى ، بالسعى في الخير ، باعانة ذى الحاجة ، باغاثة الملهوف ، ببذل المعروف ، بعبادة محضة لله تعالى •

وما هذه الا نماذج من العبـادات فى الاســلام ، اذ ليس باستطاعتنا فى بحث موجز أن نستوفيها .ولكن غرضنا من عرض هذه النماذج بيان مدى شمولها لكل قطاعات الانسـان النفسية والجسدية الايجابية والسلبية •

وبهذا المفهوم الشامل للعبادة فى الاسلام يستطيع الانسان المسلم أن يكون عابدا لله مدى حياته بعدد أنفاسه ، حتى في شرابه وطعامه . ويقظته ومنامه . وصمته وكلامه ، وفطره وصومه ، وسعيه فى اكتساب رزقه . وخطرات قلبه ، وأحاديث نفســه ، وانفعالاته ، وشهواته ، وحبه ، ورضاه ، وكرهه ، وسخطه ، من كل ما تستطيع ارادته التحكم به ، ما دام متقيدا فى كل ذلك بما شرع الله وفق أحكام دينه ، ملاحظا فى أعماله التقيد بما شرع وملاحظا ابتغاء مرضاته والتزام طاعته •

ولما كانت عبادة الله تستمر مع الانسان مدى حياته حتى موافاة منيته اذا أراد أن ينال مرتبة العابدين حقا قال الله لرسوله:

« **فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين · واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** » (١) ·

الاخلاص لله فى العبادة :

والتعبير فى السلوك الظاهر هو في أساسه كما عرفنا تعبير مادى عن جانب العبادة الداخلى ، وهذا التعبير فى السلوك الظاهر قد يكون تعبيرا صادقا ، اذ يكون متطابقا ومنسجما مع العبادة الداخلية . وقد يكون تعبيرا كاذبا اذ يكون غير متطابق ولا ينسجم مع ما فى النفس ، وعندئذ يكون السلوك الظاهر خاليا من مضمونه الحقيقى ومتى خلا من مضمونه الحقيقى كان نفاقا أو رياء أو عملا من أعمال العادة ، لا من أعمال العبادة ·

وفي هذه الحالة تكون العبادة الظاهرة عبادة صورية لا اخلاص فيها ، فالاخلاص فى السجود مثلا هو أن يكون خضوعا حقيقيا لله تعالى ، وتعبيرا عن خضوع القلب والنفس له جل وعلا ، وحين لا يكون القلب خاضعا لله حقا فان السجود الظاهر يكون صورة من الصور الميتة ، وعندئذ لا يكون له مضمون من مضامين العبادة ·

والكلمة الجامعة لمعنى الاخلاص هى أن يبتغى بالعمل وجه الله تعالى ونيل رضاه ·

والاخلاص له مستويات بعضها أعلى من بعض . فكلما كانت العبادة أكثر عمقا فى النفس كانت أكثر اخلاصا ، وتزيد العبادة عمقا فى النفس مهما ارتقى مستواها من عبادة الخوف والطمع الى عبادة الشكر على النعم ، الى عبادة التعظيم والاجلال والانتماء الى الله بالعبودية ، الى عبادة الحب، الى العبادة الجامعة لكل عناصر العبادة التى هى ردود أفعال النفس السوية للتصورات الايمانية · وهنا يكمن سر الاخلاص لله فى العبادة ، وبالاخلاص هذا تتحقق

---

(١) سورة الحجر : الآية ٩٨ ، ٩٩ ·

ذاتية العبادة . وبدون الاخلاص تكون العبادة أشكالا وصورا لاقيمة لها عند الله . ولذلك جاء في الحديث : « ليس للعبد من صلاته الا ما عقل » أى الا ما كان تعبيرا صادقا عما في النفس .

وروى الدارمي باسناد جيد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كم من صائم ليس له من صيامه الا الظمأ . وكم من قائم ليس له من قيامه الا السهر » . وفي هذه الحالة تنحصر قيمة العبادة في نتائجها الطبيعية الخاضعة للسنن الكونية . ولا يبخس العامل من عمله شيئا وفق هذه السنن ولكن ثواب الآخرة وزوائد عطاء الله مقرونة بالاخلاص لله في العبادة. وفي هذا يقول الرسول صلوات الله عليه : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى »

ويحدد الله تبارك وتعالى هذا الشرط الأساسي من شروط العبادة فيقول :

« وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (١) .

أى : وما أمروا بأوامر الشريعة وتكاليفها وسائر أحكامها الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين .

وخاطب الله رسوله بقوله :

« انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا لله الدين الخالص » (٢) .

وقال له :

« قل : اني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل : اني اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل : الله أعبد مخلصاً له ديني » (٣) .

فالرسول مكلف قبل كل انسان بعبادة الله والاخلاص لله فيها، ومكلف بالتزام شرائعه .

---

(١) سورة البينة : الآية ٥ .
(٢) سورة الزمر : الآية ٢ ، ٣ .
(٣) سورة الزمر : الآيات ١١ ــ ١٤ .

الغرض الأساسى من العبادة ذكر الله :

١ ـ لدى البحث عن الغرض الأساسى من العبادة فى الاسلام يتبين لنا أنه ذكر الله . ومعنى ذكر الله حالة استحضار فى التصور وتذكر لعناصر القاعدة الايمانية . الشاملة لصفات الله كلها ، وآياته الجليلة . ونعمه العظيمة . ووعده . ووعيده . وواجبات الانسان تجاهه ، وبهذا الاستحضار فى التصور تكون مراقبة الله المحيط بكل شىء قدرة وعلما ، ومعه تتحرك ردود الأفعال النفسية والقلبية الموجهة للسلوك على ما يرضى الله ٠

وتبيانا لهذا الغرض الأساسى من العبادة ألا وهو ذكر الله تعالى قال الله لموسى عليه السلام حين ناجاه بالوادى المقدس طوى :

« اننى أنا الله لااله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى٠ان الساعة آتية اكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ٠ فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى » (١) ٠

أى أقم الصلاة لتذكرنى فى عبادتك لى ، وهذا أحد المعنيين اللذين فسرت بهما الآية : والمعنى الآخر : أقم الصلاة اذا كنت ذاكرا غير نائم ولا ناس ٠

وعن معاوية بن الحكم السلمى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انما الصلاة لقراءة القرآن وذكر الله ، فاذا كنت فيها فليكن ذلك شأنك » رواه أبو داود والنسائى واسناده حسن ٠

وعن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انما جعل رمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة لاقامة ذكر الله » رواه الترمذى والدارمى وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ٠

ولما كان تذكر القاعدة الايمانية من شأنه أن يحرك النفوس والقلوب المؤمنة بعناصر العبادة التى هى ردود أفعال طبيعية فى النفوس والقلوب السوية . وهى بدرها توجه السلوك لما فيه مرضاة الله كان من شأن هذا التذكر الفعال أن ينهى عن الفحشاء

---

(١) سورة طه : الآيات ١٤ . ١٥ . ١٦ ٠

والمنكر ، ويدفع الى فعل الخير ، وقد بين ربنا هذه الحقيقة اذ خاطب رسوله محمدا صلوات الله عليه بقوله :

« اتل ما أوحي اليك من الكتاب وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون » (١) ٠

أي : فمن شأن الصـــلاة المســتوفية لعناصرها أن تنهى عن الفحشاء والمنكر ، لما تشتمل عليه من ذكر الله تعالى ، ولذكر الله الذى هو روح العبادة أكبر فى التأثير ، لأنه استمرار فى الذكر أوسع مدى من ذكـــر يأتى فى لمحات متقطعـــات وفي فتـــرات مخصصات للعبادة ، فمن كان ذاكرا لله في أحواله كلها كان أبعد عن المعصية ، وأسرع الى فعل مايرضى الله ٠

ولا تقتصر النصوص على بيان هذا فى موضوع الصلاة فقط ، بل ذكر الله هو روح سائر العبادات ٠ وقد بينت النصوص ذلك ، على أن المطلوب من المؤمن أن يكون ذاكرا لله فى أحواله كلها ، الا أن أغراض الدنيا وشهواتها ولذاتها وهمومها صوارف تصرف الانسان عن ذكر ربه ، وتأتى خطرات الايمان فتشده اليه ، ثم ينفلت بسرعة الى أمور دنياه ، لذلك كان الانســـان بحاجة الى حصص زمنية يفرغ فيها نفسه الزاما لعبادة ربه ، ويخصصها لذكر الله ، من هذا نلاحظ أن العبادات مخصصة لذكر الله فوق العادة ، وأما سائر أوقات الانسان وأحواله فعليه أن يذكر الله فيها ضمن حدود العادة ، ومع كل مناسبة تستدعى ذكر الله ٠

فعند الحاجة يذكر الله بالدعاء ، وعند النعمة يذكر الله بالحمد ، وعند العمـــل يذكر الله بالاستعانة ، وعند النظر فى آيات الله يذكر الله بالتسبيح ، وعند استعظام أى شيء يذكر الله بالتكبير وعند الخوف من أى شيء يذكر الله بالاستعاذة ٠

وهكذا يعطى كل مناسبة ما يلائمها من ذكر الله ٠

وهذا يوضح لنا أن أحوال العبادة فترات مخصصات لذكر الله بشكل يفوق الذكر المعتاد ، وفى غيرها يكون ذكر الله وفق

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٤٥ ٠

العادة ومع كل مناسبة. والأمران كلاهما مجالان واسعان يتسابق فيهما الذاكرون . فمن مقل ومن مستكثر .

وتبيانا لهذا وردت في القرآن طائفة من النصوص تأمر بذكر الله في العبادة . وتأمر بذكر الله كثيرا بعدها فمنها ما يلي :

(أ) خاطب الله المؤمنين بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » (١) .

فالسعي الى الصلاة يوم الجمعة كان الغرض منه السعي الى ذكر الله . ولذلك قال تعالى : (فاسعوا الى ذكر الله) وكانت الصلاة فترة محددة الزامية خاصة لهذا الذكر ، فاذا قضيت الصلاة جاء وقت الانتشار في الأرض وابتغاء الرزق من فضل الله . وعندئذ يأتي الواجب الدائم وهو ذكر الله وفق العادة ومع كل مناسبة ، ولذلك قال تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

(ب) والمحافظة على الصلاة المكتوبة لذكر الله مطلوبة في حالتي الأمن والخوف ، أي في حالتي السلم والحرب ، أما في حالة الخوف يصعب معه اقامة الصلاة وفق صورتها المعلومة فيؤديها الخائف راجلا أو راكبا على ما تيسر له . وأما في حالة الأمن فيؤديها الآمن وفق الصورة التي علمنا الله اياها .

قال الله تعالى :

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فان خفتم فرجالا أو ركبانا فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون » (٢) .

---

(١) سورة الجمعة : الآية ٩ . ١٠ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

فاذا قضينا الصلاة خائفين أو آمنين فعلينا أن نذكر الله فى كل أحوالنا قائمين أو قاعدين أو على جنوبنا ، قال الله تعالى فى معرض صلاة الخوف :

« فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ، فاذا إطمأننتم فأقيموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا»(١)٠

(ج) ومن الأغراض الأساسية لبناء بيوت العبادة ذكر الله والتسبيح له بالغدو والآصال ، وهذا ما دل عليه قول الله تعالى :

« فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » (٢)٠

(د) وفى الحج يقول الله لنا :

« واذكروا الله فى أيام معدودات ٠٠ » (٣) ٠

اشعارا بأن الغرض الأعظم من هذه العبادة هو ذكر الله فوق العادة . فاذا انتهى الحج وتم أداء المناسك جاء دور الذكر وفق العادة وعند كل مناسبة ، وقد بين الله لنا هذا بقوله :

« فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ، فمن الناس من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق، ومنهم من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » (٤)٠

ويتأكد ذكر الله فى أحوال خاصة ومواضع خاصة فى الحج، منها ذكر الله عند المشعر الحرام ٠

---

(١) سورة النساء : الآية ١٠٣ ٠

(٢) سورة النور : الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ٠

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٠٣ ٠

(٤) سورة البقرة : الآيات ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ٠

قال تعالى :

« فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحـــرام واذكروه كما هداكم » (١) ·

(هـ) وفى الصيام جاء ذكر الله بصيغة التكبير . فقال تعالى فى آيات الصيام :

« ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » (٢) ·

(و) وعند الصيد تذكر اسم الله عليه . قال الله تعالى :

« فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه » (٣) ·

وفى ذبائح الهدى والأضـــاحى وغيرها من الذبائح نذكر اسم الله عليها ، قال الله تعالى : (٤)

« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف · فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » (٥) ·

(ز) وفى الجهاد والقتال نذكر الله كثيرا . قال الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (٦) ·

(ح) وفى كل الأحوال أمر الله المؤمنين بأن يذكروه ذكرا كثيرا، فناداهم بقوله :

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٨ ·

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ ·

(٣) سورة المائدة : الآية ٤ ·

(٣) سورة المائدة : الآية ٤ ·

(٤) سورة الحج : الآية ٣٦ ·

(٥) القانع : المتعفف عن السؤال · والمعتر : السائل · وقيل : القانع هو السائل ، والمعتر هو الذى يتعرض ليعطى دون أن يسأل ·

(٦) سورة الأنفال : الآية ٤٥ ·

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا، هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما » (١) ٠

٢ ــ وذكر الله يهز قلوب المؤمنين بوجل ، ثم يجللها بخشوع، ثم يورثها طمأنينة سعيدة . فهى مراحل ثلاث تمر عليها قلوب الذاكرين لله ، أو هى مقامات ثلاثة تختلف باختلاف أحوال الذاكرين المؤمنين . فاذا كانوا فى أحوال الشعور بالمعاصى والتقصيرات هز ذكر الله قلوبهم بوجل ثم اذا انتقلوا الى الشعور بالطمع بفضل الله وعفوه وجوده وكرمه جلل ذكر الله قلوبهم بخشوع . فاذا انتقلوا الى الشعور بحب الله ورضا الله عنهم والثقة بالدخول فى كنف رحمته ومدده ومعونته سعدت قلوبهم بالطمأنينة ٠

أما المرحلة الأولى مرحلة الوجل فقد دل عليها قول الله تعالى:

« انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم . واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » (٢) ٠

فالمؤمنون الذين يعلمون مالله من قدرة وعلم وعدل . حينما يلاحظون وعيده للمسيئين المذنبين ويلاحظون معذلك ماهم فيه من مخالفات وتقصيرات ، لابد أن يهز ذكر الله قلوبهم بوجل وخوف من عقابه ، ومن لا يهز قلبه الوجل من عقاب الله حين يذكر بالله فانه ليس من المؤمنين المتحققين بالايمان ٠

وأما المرحلة الثانية مرحلة الخشوع فقد دل عليها قول الله تعالى :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » (٣) ٠

فالمفروض فى الذين آمنوا متى قضوا فترة فى الايمان أن ترتقى أحاسيسهم الايمانية في النضج حتى تخشع قلوبهم لذكر الله

(١) سورة الأحزاب : الآيات ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ٠
(٢) سورة الأنفال : الآية ٢ ٠
(٣) سورة الحديد : الآية ١٦ ٠

وما نزل من الحق ، فتجللها مشاعر السكينة ، وتلين خضوعا لله ، وطاعة له ، ورحمة بالمؤمنين ٠

وأما المرحلة الثالثة مرحلة الطمأنينة فقد دل عليها قول الله تعالى :

« **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** » (١)٠

فمن شأن الذين آمنوا وصدقوا واستقاموا أن تترقى احساساتهم الايمانية فى النضج حتى تصل قلوبهم الى مرحلة الطمأنينة السعيدة ، وهى الطمأنينة الرخيصة بقضاء الله وقدره، والرضية بأحكام شريعته، والطمأنينة على المصير الخالد السعيد بفضل الله ورحمته ورضوانه فى جنة الخلد التى وعد الله المتقين ٠

٣ ـ والغفلة عن ذكر الله تحرم القلب من الطمأنينة ، ثم من الخشوع ، ثم من الوجل ، وعندئذ تأتى مرحلة نستطيع أن نسميها بمرحلة العشى ، ومرحلة العشى تمكن للشيطان في نفس الغافل عن ذكر الله ، حتى يكون قرينا ملازما له يوسوس له ويغويه ، فيستجيب له ويتابعه فى خطواته ، وقد دل على هذه المرحلة قول الله تعالى :

« **ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين** » (١) ٠

ومتى كان الشيطان قرينا له ساقه الى مواقع المعصية والمخالفة ، فابتعد عن منهج المؤمنين بما أصابه من عشى بسبب غفلته عن ذكر الله ، وهذا العشى ضعف في البصيرة دون العمى٠

ثم تأتى من بعدها مرحلة الاعراض الكامل عن ذكر الله ، وهذه المرحلة تصيب بصيرة الانسان بالعمى ، فيعمى عن الحق وعن الهدى ، ويستغرق فى الضلالة ، وعندئذ يعاقبه الله بأن يعيش فى حياته الدنيا معيشة ضنكا ، اذ يفقد قلبه سعادة الطمأنينة وراحة السكينة مهما كان جسده فى متع اللذات ، وقد دل على هذه المرحلة وآثارها قول الله تعالى :

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢٨ ٠

(٢) سورة الزخرف : الآية ٣٦ ٠

« ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » (١) .

ألوان العبادات فى الاسلام وأنواعها :

وحين نستعرض ألوان العبادات فى الاسلام وتنوعها الى أنواع كثيرة نلاحظ أنها تشتمل على مختلف قطاعات الانسان العملية فى حياته ، فتأخذ حصة من كل منها لعبادة الله تبارك وتعالى . فتأخذ من كل عضو حصة للعبادة ، وتأخذ من كل فئة من فئات أعمال الانسان حصة أيضا للعبادة ، سواء أكانت هذه الفئات من الأعمال الداخلية فى كيان الانسان أو من الأعمال الخارجية الظاهرة . وفيما يلى لمحة تفصيلية لذلك :

الصلاة :

معظم يومنا لنا فى تفكيرنا وحركات نفوسنا ومشاعر قلوبنا وطعامنا وشرابنا ومنامنا وسعينا لخدمة أغراض دنيانا ومصالح أجسادنا ، فليكن منه حصة للصلة بخالقنا الذى خلقنا وأمدنا ويمدنا دائما بنعمه الظاهرة والباطنة ، ومن أجل ذلك كانت فريضة الصلاة حصة زمنية يسيرة من يومنا ، نتوجه فيها الى بارئنا ، فنستمد منه غذاء أرواحنا وعقولنا وقلوبنا ونفوسنا وأجسادنا .

والصلاة فى مستواها الرفيع انصراف كلى عن الأرضيات فى دقائق معدودات انصراف الفكر فى التأمل حول القاعدة الايمانية وحول وظيفة الانسان فى الحياة ومصيره الذى سينتهى اليه بعمله ، وفى تدبر القرآن والذكر ، والقلب فى الخشوع والحب والتعظيم والاجلال والتضرع والدعاء والرجاء ، والنفس فى التطلع الى منازل المقربين وجنات النعيم ، وفى الخوف من الخذلان والعذاب الاليم فى دركات الجحيم ، واللسان فى مناجاة الله بما تسرح به التأملات الايمانية والمشاعر القلبية والنفسية ، فهو

---

(١) سورة طه : الآيات ١٢٤ ـ ١٢٧ .

بين تعبيرات تأمل وتعبيرات خشـــوع وحب ، وتعبيرات حمـد وتعظيم واجـلال ، وتعبيرات تضرع ودعـاء ، والجسم كله فى الخشوع الكامل ان قائما فى الذكر والتلاوة ، أو راكعا خاضعا فى التسبيح باسم الرب العظيم • أو ساجدا متضرعا في التسبيح باسم الرب الأعلى ، وهو يتنقل من طور الى طور فى القرب من الله ، حتى يخرالى الله ساجدا ،فيبلغ أقصى مايستطيع من تعبيرات القرب الجسدى المناظر لحالة القرب القلبى والنفسى، وفي جلسة الختام يقدم المصلى طابع الختام بالتحية لله، والصلاة على مبلغ الرسالة وباعلان شهادتى الايمـان ، ثم يتذكر شيخ المرسـلين ابراهيم بالصلاة والسلام عليه وعلى آله ، وأخيرا يلتجىء المصلى الى ربه يدعوه بما يريد من خيرى الدنيا والآخرة ، فاذا أنهى دعاءه عاد من رحلته الروحية التى عرج فيها الى الله ، وعندئذ يسلم على أهل الأرض بعد أن انصرف عنهم بعيدا جدا فى صلاته وعبادته المحضة الخالصة لربه ، ويكرر هذه الرحـلة فى كل يوم خمس مرات يضيف اليها من النوافل ما سنه الرسول صلوات الله عليه •

الزكـــاة :

معظم الأمـوال التى يمنحنا الله اياها فى حياتنـا هى لنـا نستخدمها فى خدمة أجسادنا وأغراض دنيانا ومصالح أنفسنا وأهلينا •

فليكن منها مقدار سنوى يسير وليس بالكثير ، مما فاض عن نفقاتنا أو مما أخرجته أرضنا، نبذله عبادة لله وطاعة، ونضعه في مصالح الفقراء والمساكين ، وسائر مستحقى الزكاة ، كما أمرنا الله ، فيربيه الله لنا ، ويطهر به نفوسنا وأموالنا ، ويتم به صلاح أحوال مجتمعنا •

ومن لطائف الاسلام أن هذا الواجب الاجتماعى هو الركن الثانى من أركان العبـــادة لله تعالى ، ونضيف اليه من نوافل الصدقات ما نشاء •

الصـــوم :

معظم دهرنا لنا ننطلق فيه ملبين شـهوات بطوننا وفروجنا ضمن ما أباح الله لنا. فليكن منه دورة سنوية نشد فيها اللجام على شهوات البطون والفروج بالصوم عن المفطرات . عبادة لله تعالى وطاعة له . ولا غرض لنا فى ذلك الا التقرب الى الله بطاعته فى الامساك الذى أمر به فى الصوم .

وهذه الدورة السنوية نقوم بواجباتها خلال شهر كامل من الأشهر القمرية .

الحـــج :

معظم سعينا فى دهرنا وتطوافنا فى الأرض وأسفارنا لخدمة أجسادنا وأغراض دنيانا . فليكن من ذلك رحلة ربانية فى العمر الى بلد القبلة التى نتوجه اليها كل يوم فى صلاتنا لنؤدى فى هذا البلد الحرام مناسك لربنا .

وفى هذه العبادة العجيبة ألوان شتى كأنما لاحظت جوانب سعى الانسان فى حياته فأخذت من كل منها قسطا خاصا يعبد الانسان فيه ربه . يبتغى فيه وجهه سبحانه .

أيها الانسان أنت تســافر من أجل خدمة جسدك ودنياك . فسافر فى فترة من عمرك الى بلد الله عبادة لله فى سفرك وطاعة له .

أيها الانسان أنت تتجرد من ثيابك وأناقتك من أجل نفسك وشـــهواتك فى كثير من أحوالك . فتجرد فى فترة من عمـرك لعبادة ربك . ولا تبق على جســدك الا ما يشــبه أكفانك عند موتك . تستمر به سوأتك وترد به ما يؤذيك .

أما أنت أيتها الانســانة فقد اقتضت صيانتك اعفاءك من هذا . والاقتصار على جزء منه يسير فى وجهك وكفيك .

أيها الانسان : أنت فى أسفارك تتشعث وتترك رفاهيتك من أجل نفسك وأغراض دنياك . فليكن من ذلك حصة لعبادة ربك

وأنت محرم بحج أو عمرة . وابتعد عن أسباب الرفاهية وأنواع من المتع الجسدية عبادة لله وطاعة له .

أيهــا الانسان : انك تــكثر التطواف فى حيــاتك من أجل جسدك وأغراض دنياك ، فطف فى فترة من دهرك حول بيت الله العتيق ، عبادة لربك وطاعة له ، وتذللا وخضوعا على اعتابه، وكرره سبع مرات .

أيها الانسان : انك تسعى كثيرا فى حياتك من أجل جسدك وأغراض دنيـــاك ، فاسع فى فترة من دهرك بين شــعيرتين من شعائر الله ، بين الصفا والمروة ، عبادة لربك وطاعة له ، واجأر وأنت تسعى بالدعاء لله . والالحاح بالطلب ، واجعــل ذهابك وايابك سبعا .

أيها الانسان : انك تجتمع في حياتك بجماهير من الناس فى مجامع كثيرة وفى مناسبات شتى ، من أجل نفسك ، ومن أجل جسدك ، ومن أجل أغراض دنياك ، فاجتمع فى يوم دهرك يوم التاسع من شهر ذى الحجة فى عرفة ، وأنت محرم بالحج ، بوفود من اخوانك المسلمين المنبثين فى أقطار الأرض، وليكن حضورك هذا الاجتماع العظيم عبـــادة لربك وطاعة له . وقف داعيــا مستغيثا ، مستمطرا رحمة ربك ومغفرة ذنبك ، وسائلا رضوان الله والنعيم المقيم فى جنات الخلد .

أيها الانسان : انك تبيت، فى ليالى دهرك حيث شئت من أجل نفسك ومن أجل جسدك ومن أجل أغراضك الخاصة .

فليكن من مبيتك حصة خاصة تعبد فيها ربك فى مزدلفة وفى منى ، ولاحظ فى هذا المبيت أنك تفعله ، طاعة لربك وعبادة له ، ومنسكا من المناسك التى ليست لنفسك ، وانما تعبر بها عن عبادتك لربك فى قطاع من قطاعات حياتك .

أيها الانسان : انك تقاتل فى حياتك قتالا عنيفا ، وتخاصم خصاما شديدا ، من أجل نفسك ، من أجل جســدك ، من أجل مالك ، بدافع من غضبك لتحقيق غرض من أغراض دنياك .

فاعبد الله فى رجم لا ترى فيه من تقاتله ، وانما تفعله تعبيرا ماديا عن كفرك بالطواغيت التى كفرت بها اذ آمنت بالله وحده ٠

ولما كانت سبل الطواغيت متعددة كانت مواقع الرجم كذلك وهى ذات ثلاثة منافذ الى الانسان أما أحدها : فيصل الى فكره ومراكز عقيدته ، ومنه يحاول الشياطين دس الزيغ الاعتقادى، لأن الاعتقاد متى فسد فى الانسان فسد الانسان كله ، وهذا ما أوضحه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : (ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب)

وهذا المنفذ الى داخل الانسان هو أخطر المنافذ وأكبرها وهو يمثل أكبر عقبة فى كيان الانسان فمن اجتازها بنجاح فآمن بالله وأذعن له وأبعد عن نفسه الشياطين برجمها رجما معنويا وماديا نجا عند الله من الخلود فى العذاب ٠

وأما الثانى : فهو يصل الى مراكز العاطفة المؤثرة فى كيان الانسان ومنه يحاول الشياطين غمزها واثارتها لصد الانسان أو تحويله عن طاعة ربه ، والاستجابة الى وساوس المعصية ، ووساوس الكفر ، وهذا المنفذ الثانى يقع فى المرتبة الثانية الوسطى ، وخطره شديد وكبير ، الا أنه دون خطر المنفذ الأول، لكن الانغماس فيه قد يجر من المعاصى الكبرى الى مواقع الكفر ٠

وأما الثالث : فهو يصل الى مراكز الشهوة والهوى ذات الأثر الفعال فى سلوك الانسان ، ومن هذا المنفذ يحاول الشياطين غمز هذه المراكز واثارتها لقذف الانسان الى مواقع لذات الشهوات المحرمة ، والأهواء الجانحة ، وعندئذ يسهل استدراجه بالوساوس والتسويلات الى مواقع المنفذين الأولين ، اذ يغدو مخدرا باللذات والأهواء المحرمة ، فاقدا لقسط كبير من صموده فى مواقع الايمان والعواطف السامية ، وهذا المنفذ الثالث يقع فى المرتبة الثالثة الصغرى ٠

والمسلم العابد لربه يحارب شياطين كل هذه المنافذ فى حياته . ولا يتبع شيئا منها . حماية لنفسه من العواقب الوخيمة ومن سوء المصير . ويجاهد جهادا طويلا لالتزام صراط الله المستقيم . ويمتثل قول الله تعالى :

« وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١) .

ولا مانع من أن يكون ما أسميناه المنفذ الثالث هو الثانى . ويكون الثانى هو الثالث اذ الشهوات والأهواء قدتكون أقوى فى واقع الانسان من عواطفه . وأكثر صرفا له عن الخير. وندخل عواطف الجنس فى الأهواء والشهوات . وهذا الترتيب قد يلائم ماذكر من أن الشيطان عرض لأم اسماعيل عند الجمرة الوسطى ، ثم عرض لاسماعيل عند الجمرة الصغرى وكان من قبلهما قد عرض لابراهيم عند جمرةالعقبة وهى الجمرةالكبرى وقد رجموه عند هذه المواقع التى ظهر فيها .

أيها الانسان : انك تأكل وتشرب فى معظم حياتك من أجل نفسك ومطالب جسدك .

فلتكن أيام من أيام دهرك تآكل وتشرب فيها عبادة لربك وطاعة له . الا وهى أيام العيد . وأيام التشريق فى منى . ولا تصم فى هذه الأيام زاعما أن الصوم فيها عبادة ، بل الفطر فيها هو العبادة . فقد جاء فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم : (أيام منى أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل) .

أيها الانسان : انك تحلق شعرك أو تقصره فى أيام دهرك من أجل رفاهيتك وزينتك أو مصالح جسدك ، فليكن من ذلك حصة لعبادة ربك . فتحلل من الحج أو العمرة بحلق شعرك أو تقصيره . ولاحظ فى عملك هذا أنك تفعله عبادة لربك . ومنسكا من المناسك التى تبتغى فيها طاعة الله ورضوانه .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣ .

أيها الانسان : انك تذبح الذبائح فى معظم حياتك من أجل بطنك وشهوتك وحاجات أسرتك. فليكن من ذبائحك حصة خاصة لعبادة ربك ، فسق الهدى واذبح الأضاحى قاصدا بعملك وجه ربك . ومبتغيا به طاعته فى هذا القطاع من قطاعات تصرفاتك فى حياتك . وأنت تعلم أنه لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى من قلبك •

هذه لمحات من حكم تنوع العبادات ، يضاف اليها أن التنوع يدفع عن النفس السأمة والملل ويجدد فيها النشاط والعمل ، ويضاف اليها أيضا أن جميع أشكال العبادات وصورها تشتمل على حكم ومصالح للافراد والجماعات •

اشتمال العبادات فى الاسلام على حكم ومصالح عظيمة للعباد :

من فضل الله وكرمه أن جعل العبادات فى الاسلام مشتملة على حكم ومصالح قد ندرك بعضها . وقد يخفى عنا البعض الآخر منها ، على أن الله تبارك وتعالى لو كلفنا أن نعبده بما ليس فيه فوائد ومصالح لنا أفرادا وجماعات لكان علينا أن نعبده ونطيع أوامره ونواهيه . فهو خالقنا وبارئنا ، وهو الذى أحيانا ، وهو الذى يميتنا . وهو الذى بيده معائشنا . وهو الذى اليه معادنا ، وهو الذى اليه الخلق والأمر وهو على كل شىء قدير ، فمن حقه علينا أن نعبده بالتسليم الكامل . وحينما نبحث عن الحكم الخاصة فى العبادات فانما نبحث عنها لنكتشف فضل الله علينا ، ولنراعى ضوابط العمل التى تتحقق بها الحكم المقصودة فيه ، ولنكشف لضعفاء الايمان فوائد هذه العبادات للناس ، ولنسكت ألسنة الدساسين المشككين من أعداء الاسلام ، بيد أن المؤمن الصادق فى ايمانه انما يعبد ربه للطاعة لا لأجل الحكمة الخاصة التى تشتمل عليها العبادة ، مما ينفع الانسان فى جسمه أو نفسه •

وحين نستعرض ألوان العبادات فى الاسلام باحثين عما فيها من مصالح وحكم تعود على الافراد والجماعات بالخير العظيم تسلأ

قلوبنا الدهشة والاعجاب • فهى أولا تغذى قاعـــدة الايمـان بالمراقبة الدائمة لله تعالى والتدبر فى آياته وآلائه •

ثم تربى الوجدان على الحس الرفيع الذى يعشق الحق والخير والفضيلة والصالحات ، وينفر من الباطل والشر والرذيلة وفعل السيئات ، وتربيه أيضا على الفضائل الخلقية حتى تكون فضائل ملازمة متأصلة فى كيان الانسان لا يستطيع أن يجافيها وان أراد •

وتربى الجسد على السلوك الفاضل فى الحياة حتى يكون عادة مستحكمة متأصلة ، وجزءا من كيانه السلوكى •

وتربى الانســان فى حيـــاته على النظام والانضباط فى الاعمال ، والطاعة للقيادة •

وبعض العبادات للجســد صحة وراحــة ، وبعضــها للنفس صحة وراحة وتطهير ، وبعضها للفكر صحة وتقــويم وتنوير ، وبعضها للقلب طمأنينة وسكينة واشراق . وبعضها يجمع كل ذلك وبعض العبادات يحقق أغراضا اجتماعية عظيمة اذ يعبر عن مدى الأخــوة الايمــانية بين افــراد المؤمنين ، والمساواة فى الانسانية بين يدى الله ، ويشد أواصرها ويوثق عراها الى غير ذلك مما يطول شرحه ، وحكم العبادات فى الاسلام يمكن أن تفرد ببحوث خاصة ، وقد لا يستطيع الباحث التنبه الى كثير من دقائقها •

وتقتصر على ذكر لمحــات لهذه الحــكم ضمن حدود الأركان الاسلامية الكبرى الصلاة والزكاة والحج والصيام •

فاذا بحثنا فى واقع الصلاة وما يشترط لها من شروط نلاحظ أنها مسبوقة بشرط الطهارة ، وهى صورة حضارية عظيمة ، فيها صحة ولذة وجمال وأناقة ، وتخلص متكرر من القذارات التى يتعرض اليها الانسان فى يومه ، أو فى أكثر من ذلك ، فيزيلها بالوضوء وبالاغتسال ، وبالتطهير حتى يكون فى جسمه

وثيابه طاهرا نظيفا جميلا أنيقا . ولهذا آثار اجتماعية حضارية عظيمة جدا .

وفي أداء الصلاة في أوقاتها تدريب مستمر على النظام وأداء الواجب. والنظام ركن أساسي من أركان التقدم الحضاري وركن أساسي من أركان الانتاج في الأعمال . وعنصر من العناصر التي تحقق العدل في كثير من الحقوق الاجتماعية وفي أداء الصلوات المفروضة مع الجماعة تدريب على النظام من جهة ، وتدريب على الانضباط وطاعة القيادة من جهة أخرى ، وفيها يتفقد المسلمون بعضهم بعضا . ويؤازر بعضهم بعضا . ويعاون بعضها بعضا ، وبذلك تنمو في نفوسهم وقلوبهم أخلاق اجتماعية كثيرة ، تدعم فيها أواصر الجماعة وهذه المعاني تعظم في صلاة الجمعة وصلاة العيدين .

وأما الزكاة فركن من أركان الاسلام غني عن بيان حكمه ، انه الركن الاجتماعي الذي حقق الله به مبدأ التكافل الاجتماعي لكفالة العاجزين عن العمل الذين ليس لهم من أسرتهم من يكفلهم. ولكفالة الذين لم يكلفهم الاسلام أعمال الكسب . وفيه تربية للنفوس على خلق الجود والتخلص من داء الشح . فهو أحد الوسائل التي تربي في النفوس طائفة من فضائل الأخلاق .

وأما عبادة الصوم ففيها تدريب على النظام ، وفيها تربية خلق الصبر على كبح شهوات الأنفس والصبر على ملازمة الطاعة، وتربية خلق الرحمة بذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يسدون به حاجاتهم ، وفيها أيضا صحة للجسد ، اذ يتخلص الجسد بالصيام من كثير من الرواسب الضارة المسقمة للجسم . والطفيليات الضارة ، وفيها دورة رياضية نفسية وجسدية نافعة وفيها دورة روحية تعبدية تصل الانسان بربه صلة فوق العادة . خلال شهر من كل سنة .

وأما عبادة الحج فهي مشحونة بالحكم والمنافع الفردية والاجتماعية انها رياضة وسياحة ومؤتمر اسلامي ، وفيها

تربية أخلاق كثيرة ، ومنها الصبر على تحمل المشاق ، والصبر على تحمل الأذى ، ومخالفة أهواء الانفس ، وفيها جهاد نفسى وجسدى ، الى غير ذلك من منافع فردية واجتماعية ·

يسر العبادات فى الاسلام ورفع الحرج عنها :

ولدى التتبع أنواع العبادات فى الاسلام تلاحظ أنها مبنية على اليسر وليست مبنية على العسر ، فهى ملائمة لواقع الانسان فى مختلف طاقاته وقدراته النفسية والجسدية ، وليس فيها اعنات لمطالبه الخاصة النفسية أو الجسدية أيضا ·

وحيثما وكيفما وجدت المشقة أو الحرج وجدت أحكام التيسير ورفع الحرج ·

ففى السفر مثلا تقصر الصلاة ويباح الفطر ، ولدى وجود المشقة فى القيام فى الصلاة يباح القعود أو الاضطجاع فيها ، وعند المرض أو فقد الماء تأتى أحكام التيسير بالتيمم بدل الوضوء وبدل الغسل ، وعند حدوث العذر يرتفع التكليف بالنسبة الى الواجبات التى فيها مشقة أو حرج ·

فبالنسبة الى واجب الجهاد بالقتال فى سبيل الله : ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ·

ومن كان يشق عليه السفر لهرم أو مرض فلا يكلف أن يحج بنفسه ، وغير المستطيع لا يتوجه اليه التكليف اصلا ·

قال تعالى :

« **لا يكلف الله نفسا الا وسعها** » (١) ·

وقد جاء هذا عاما ضمن اعلان المؤمنين سمعهم وطاعتهم ودعاءهم ربهم ·

وقال تعالى :

« **لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها** » (٢)

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ ·
(٢) سورة الطلاق : الآية ٧ ·

وقد جاء فى مناسبة النفقة الواجبة والأمر بها ٠

فالله لا يكلف نفسا الا ضمن حدود وسعها من طاقات ذاتية . ولا يكلفها أن تبذل الا مما آتاها سبحانه . وفى مناسبة الأمر بالقسط . قال تعالى :

« وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها » (١)

وفى مناسبة ارضاع الوالدات أولادهن وتكليف المولود له نفقتهن بالمعروف ضمن حدود الاستطاعة قال الله تعالى :

« لا تكلف نفس الا وسعها لاتضار والدة بولدها ولامولود له بولده » (٢)٠

وفى مناسبة بيان اشتراط العمل الصالح لدخول الجنة ضمن حدود الاستطاعة قال الله تعالى :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ لانكلف نفسا الا وسعها ـ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » (٣) ٠

وفى مناسبة مسارعة المؤمنين فى فعل الخيرات قال الله تعالى :

« أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون . ولا نكلف نفسا الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون » (٤) ٠

اشارة الى أن المسارعة فى الخيرات تكون ضمن حدود الاستطاعة الانسانية العامة والاستطاعة الفردية الخاصة وبهذا يتضح لنا شمول القاعدة لكل جوانب الاستطاعة الجسدية والنفسية والمالية . وشمولها لكل قطاعات الانسان الداخلية والخارجية . ولكل المجالات التعبدية والحقوقية ٠

والزكاة نسبة يسيرة ومعظمها من فاضل المال بعد حول كامل ٠

والتقوى مقرونة بحدود الاستطاعة قال الله تعالى :

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٥٢ ٠
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٣٣ ٠
(٣) سورة الأعراف : الآية ٤٢ ٠
(٤) سورة المؤمنون : الآية ٦١ ، ٦٢ ٠

« فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (١) ٠

وفى كلام الرسول صلوات الله عليه وسلامه قوله : (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم) ٠

ولما بين الله حكم اباحة الفطر فى السفر فى شهر رمضان واباحة الفطر للمريض ، وتحويل الواجب الى عدة من أيام آخر قال سبحانه :

« ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٢) ٠

اشعارا بأن دين الله دين يسر وليس دين عسر ٠

ولما أوجب الهدى فى الاحصار بالحج أو العمرة قال سبحانه وتعالى :

« وأتموا الحج والعمرة لله فان أحصرتم فما استيسر من الهدى » (٣) ٠

فالتكليف منوط بالمتيسر ، والاحصار فى الحج والعمرة هو العجز عن اتمامها بمانع قاهر وفى هدى التمتع بالعمرة الى الحج قال الله أيضا فى الآية نفسها :

« فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى » ٠

وعلم الله أن عباده لا يطيقون المواظبة على قيام الليل الذى أوجبه على رسوله فخفف عنهم التكليف الى قراءة ما تيسر من القرآن ، قال تعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم :

« ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ماتيسر منه واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم » (٤) ٠

---

(١) سورة التغابن : الآية ١٦ ٠
(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ ٠
(٣) سورة البقرة : الآية ١٩٦ ٠
(٤) سورة المزمل : الآية ٢٠ ٠

فقوله تعالى : « علم أن لن تحصوه » أى علم أن لن تطيقوا المواظبة على قيام الليل ، لذلك تاب عليكم فخفف هذا الواجب عنكم ، ثم أمرنا الله بأن نقرأ ما تيسر من القرآن ٠

وأكد الله لرسوله مبدأ من مبادىء شريعته وسنة من سننه فقال له :

« فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا » (١) ٠

وأعلن الله تبارك وتعالى أنه ما يريد ليجعل علينا حرجا فى الدين ، فقال فى معرض أحكام الطهارة بالماء ، والتيمم الذى هو بدل عنه فى حالات العذر :

« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » (٢) ٠

فهو سبحانه لا يريد تكليفنا بالواجبات الدينية ليجعل علينا من حرج فى الدين ، ولكن يريد خيرنا وفائدتنا ، فاذا كلفنا أن نتوضأ وأن نغتسل فانه قد أراد سبحانه تطهيرنا ، وهو خيرنا وفائدتنا ونظافتنا وصحتنا ، وأراد سبحانه أن يتم علينا نعمته لعلنا نكون من الشاكرين فاذا لم نجد ماء نتطهر به أو كنا مرضى لا يناسبنا استعمال الماء قصدنا الى أرض طاهرة طيبة من حولنا فقدمنا عذرنا الى بارئنا ، فأجرينا صورة طهارة فى عملية موجزة نمسح بها وجوهنا وأكفنا ، وهذا هو التيمم ٠

وخاطب الله المؤمنين بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ٠٠ » (٣) ٠

فقوله تعالى : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) يدل على أنه حيثما وكيفما وجد الحرج جاءت أحكام التخفيف ، فكان التكليف ضمن حدود الاستطاعة التى ليس فيها مشقات

---

(١) سورة الشرح : الآيتين ٥ ٦ ٠
(٢) سورة المائدة : الآية ٦ ٠
(٣) سورة الحج : الآية ٧٧ ، ٧٨ ٠

محرجة ، و بهذا تبرز لنا سماحة هذا الدين و فسحته ، و أنه يلائم الفطرة الانسانية ، ولا يكلفها شططا ، ولا يحملها عنتا ٠

وأعلن الله رفع الحرج عن أصحاب الاعذار ، فقال تعالى :

« ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار ، ومن يتول يعذبه عذابا أليما » (١) ٠

ولكن العبادات هى من التكاليف على وجه العموم ، وأداؤها يحتاج الى قدر من الصبر ، و به يثاب العابدون . قال الله تعالى :

« فاعبده واصطبر لعبادته » (٢) ٠

لا وساطة فى العبادة بين العبد وخالقه :

ومما امتازت به العبادات فى الاسلام أنها صلة مباشرة بين العبد و ربه ، فليس فيها وساطة أى مخلوق من مخلوقات الله ، لا رئيس دينى ، ولا ملك ، ولا رسول . والمناجاة فيها تكون مع الله مباشرة وحظ الرسول من صلواتنا مخاطبته بالصلاة والتسليم . باعتبار أنه مبلغ رسالة ربه والدعاء له جزاء ما قدم لامته من خير ، وما تحمل فى سبيل هدايتها من متاعب وآلام ٠

وهذه الصلة المباشرة بين العبد وربه فى عباداته له هى الأمر الطبيعى المنطقى . المنسجم مع القاعدة الايمانية فى الاسلام اذ ان القاعدة الايمانية تتألف من عناصر لا تدخل الوساطة فى واحدة منها ، فمن هذه العناصر أن لا اله الا الله ، وأن العبادة لا تكون الا له ، وأن الله سميع بصير عليم بعباده قريب منهم . لا يخفى عليه منهم خافية ، وأن عبادة غيره معه ولو على سبيل الوساطة شرك به . والله تبارك وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك فما الداعى اذن لاتخاذ الوسطاء والعقيدة الاسلامية من أساسها قائمة على حقيقة أن لا وساطة فى الخلق ، فالله وحده هو الرب الخالق ، وأن لا وساطة فى الألوهية فالله وحده هو المستحق

---

(١) سورة الفتح الاية ١٧ ٠

(٢) سورة مريم : الآية ٦٥ ٠

للعبادة . وأن الله محيط بكل شيء قدرة وعلما . فهو غني عن الوسطاء . وأنه لا يبعد عن عاص اذا تاب فلا حاجة للوسطاء .

ولذلك لا نجد في العبادات في الاسلام أثرا لتدخل الوسطاء لا من قريب ولا من بعيد . وفي ذلك تحرير كامل من كل عبودية الا العبودية لله تعالى . والعابد لله حقا يحرر ضميره وعمله من قصد غير الله ومن توجيهه لغير الله .

فالنية في العبادة الصحيحة هي ابتغاء مرضاة الله . ومتى كانت لغيره لم تكن عبادة له . ومتى دخل فيها عنصر مشارك فان كان على وجه العبادة والتقرب فسدت العبادة . لأن الله تعالى لا يقبل الشركة في عبادته . وان كان على غير وجه العبادة كأن دخل فيها ملاحظة غرض من أغراض الدنيا ومصلحة من مصالحها حبط من العمل بمقدار العنصر الشريك في النية ويكون العمل عندئذ مشوبا بالرياء . وهو من قبيل التجارة بالدين .

ثم التلاوات والأذكار وسائر الأقوال والاعمال الثابتة لا نجد فيها أثرا للوسطاء بين العباد وبارئهم في العبادات الاسلامية ، والتكبير والتعظيم والثناء والتلبية كل ذلك لله تعالى . والاستعانة والاستعاذة تكون بالله وحده . والدعاء يتوجه اليه وحده . فلا يتوجه المؤمنون في دعائهم الى أية قوة غيبية الا الى الله تعالى . ولا يلتجئون الا اليه . والركوع والسجود والطواف والسعي وذبح القرابين والأضاحي والهدى ونحو ذلك كل اولئك لله وحده . لا شيء من ذلك لغير الله . والا دخل الشرك في العبادة . أو دخل الرياء الذي هو من ظلال الشرك قال الله تعالى :

« ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون » (١) .

---

(١) سورة فصلت : الآية ٣٧ .

وأعلن الله كذب ادعاء المشركين اذ عللوا عبادتهم لشركائهم بأن هؤلاء الشركاء يقربونهم الى الله زلفى ، فقال تعالى :

« الا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ان الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون ان الله لايهدى من هو كاذب كفار » (١) .

الأصل عدم انحصار العبادة فى مكان معين أو زمان معين :

ولما انعدمت الوساطة انعدمت معها المكانية فالامكنة والجهات كلها بالنسبة الى الله سواء وكل مكان من الأرض اليابسة أو البحر المائج أو الجو السامق أو الجبل الشاهق أو الغور السحيق كل ذلك صالح لعبادة الله فيه ، قال تعالى :

« ياعبادي الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون (٢) » .

ولكن اقتضى توحيد جهة المؤمنين تحديد مكان قبلتهم ، واقتضى تجميع كلمة المؤمنين وقلوبهم تفضيل المساجد التى هى بيوت الله للعبادة ، وتفضيل البيت الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى على سائر المساجد ، ولما فى هذه المساجد أيضا من ذكريات حملة الرسالات الربانية .

واقتضت بعض المناسك تحديد أمكنة وأزمنة لها ، فاختصت هذه الأمكنة والأزمنة بامتيازات خاصة اقتضتها مصالح العبادات نفسها ، والأغراض الدينية التى تهدف اليها .

وكان الأصل فى الجهات والأمكنة أنها سواء بالنسبة الى الله تبارك وتعالى ، ولذلك قال الله فى الجهات :

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » (٣).

وقال فى الأمكنة : « ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون » .

وتخصيص بعض الأزمنة لبعض العبادات اقتضته حكمة التنظيم وحكم أخرى .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٣

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٥٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١١٥ .

العبادات وجميع أحكام الاسلام هي من قبيل فعل الخير وترك الشر :

ومن الأسس العظيمة في العبادة في الاسلام أنها منحصرة في فعل الخير وترك الشر، وأن نسبة قوة أحكامها تلائم نسبة ما في العمل من خير أو شر . فعلى نسبة ما في العمل من خير يأتي التكليف بالفعل ، وعلى نسبة ما في العمل من شر يأتي التكليف بالترك .

وعلى هذا الأساس نجد التدرج في الأحكام من الفروض الكبرى الى الواجبات الى المندوبات الى المباحات الى المكروهات الى المحرمات الصغائر الى الكبائر الكبيرة الى الكفر والخروج عن الملة والعياذ بالله .

ويدل على انحصار العبادات في فعل الخير وترك الشر واقع حال العبادات في الاسلام وواقع حال كل الاحكام الاسلامية بدليل الاستقراء . وباستطاعتنا أن نستدل عليها بقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » (١) .

فكل خير يفعله الانسان يبتغي به رضوان الله تعالى يصلح ان يكون عبادة لله تعالى . وكل شر يتركه الانسان يبتغي بتركه رضوان الله تعالى يصلح ان يكون تركه عبادة لله تعالى ، ووجه الاستدلال بهذه الآية ما جاء فيها من الترقي من الخاص الذى هو الركوع والسجود ، الى العام الذي هو العبادة الى فعل الخير الذى هو أعم من العبادات المحضة . فالعطف فيها من قبيل عطف الأعم على العام وعطف العام على الخاص حلقات بعضها ضمن بعض .

لاتكون العبادة المحضة فيما لم يأذن به الله :

الا ان العبادات المحضة التي تؤدى بالاعمال والأشكال الجسدية والأقوال الخاصة لا تكون الا فيما شرعه الله لعباده ، أو أذن لهم به . وذلك لئلا يختلفوا . ولئلا يخترعوا من عند أنفسهم أشكالا من العبادات منافية للحكمة وللواقعية الانسانية.

---

(١) سورة الحج : الآية ٧٧ .

أو مصادمة للحق والخير والفضيلة ، أو مدخولة بمعانى الشرك بالله ، أو فيها اعنات للأنفس ومشقات زائدة للاجسام . أو فيها أهواء وشهوات واباحيات باسم ألوان من العبادات الى غير ذلك مما تتشعب اليه آراء الناس وأغراضهم واهواؤهم ومصالح الكهنة والسدنة وتجار بيوت العبادة والمشرفين على طقوسها وادارة تطبيقاتها ، وقد حدد لنا الاسلام الأشكال والصور العملية والقولية التى نعبد الله فيها . وأطلق لنا فى الأذكار والأدعية العامة بشرط أن لا تحل محل عبادة منصوص عليها وان لا تصادم أصلا من أصول الدين . أو من أصول العبادة فى الاسلام ، وأن لا تكون بألفاظ غامضة مجهولة المعانى لم ترد فى النصوص الدينية الثابتة وأفضل الأذكار والأدعية ما جاء منها فى الكتاب والسنة .

ومن الملاحظ أن أمما كثيرة لما انطلقت تبتدع فى دينها وعباداتها أحدثت أمورا عجيبة غريبة جعلتها من العبادات وهى لا تكاد تخطر على البال ، فبعض الناس يدفنون معظم أجسامهم فى الرمال تعذيبا لها ، زاعمين أن ذلك من عباداتهم ، وبعض الناس يستغرقون فى الفواحش الكبرى تقربا لآلهتم ، على زعم أن ذلك لون من ألوان العبادة ، وبعض الناس يتضمخون بالنجاسات على سبيل العبادة .. وهكذا الى صور كثيرة غريبة .

والابتداع فى الدين والاختراع فى العبادات منزلق خطير جدا يستدرج الشيطان به اتباع الدين الحق والمنتسبين اليه بصدق الى مواقع الشرك ، أو الى مواقع المعاصى والفجور . والى تحريف دين الله وتغييره ، ومن هذا المنزلق الخطير استدرج المشركون الى الشرك ، والمحرفون لدين الله الى تحريفاتهم، والمغالون فى الدين الى غلوهم .

وفى ذم ما اخترعه المشركون من عبادة فى البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فى الأنعام قال الله تعالى :

ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » (١) .

والبحيرة هى الولد الخامس للناقة اذا كان انثى بحروا أى شقوا أذنها ، وكانت حراما على النساء لحمها ولبنها والسائبة البعير الذى كان الجاهلي ينذر أن يسيبه لله تعالى أو للوثب فلا يحبس عن رعي ولا ماء ، ولا يركبه أحد ، والوصيلة ما فى البطن السابع للشاة ان كان توأما ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبح لمكانها ، وكان لحمه حراما على النساء وكان لبن الأنثى حراما على النساء الا أن يموت منهـا شيء فيأكله الرجال والنساء ، والحام : الفحـل اذا ركب ولد ولده ، أو أنتج من صلبه عشرة أبطن قالوا : قد حمى ظهره ، فلا يركب ولا يمنع من كـلأ .

وهذه العبادات من مخترعات الجاهلية ، ما أنزل الله بهـا من سلطان ، فهي مردودة ، وكل ما كان من مخترعات الناس من عبادات لم يأذن بها الله مردود .

وبما أن الحكم والتشريع لله ولا حكم الا له ، فقد سقط فى الضلالة الذين يشرعون أحكاما لم يأذن بها الله ، قال الله تعالى :

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وان الظالمين لهم عذاب اليم » (٢) .

وبما أن تشريع العبادات هو لله تعالى ، وليس للناس ، فقد شرع لنا من الدين ما وصى به الأنبياء السابقين وجعل لكل أمة منسكا ، قال تعالى :

« لـكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه » (٣) .

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٢١ .

(٣) سورة الحج : الآية ٦٧ .

خصائص العبـادة فى الاسـلام :

من كل ما سبق من بيانات وتحليلات يتضح لنا أن العبادات في الاسلام تتميز بخصائص يمكن تلخيصها بالعناصر التالية :

الاول : ارتباطها بالقـاعدة الايمانية المسـتندة الى الحق والواقع الذى تشهد به الدلائل العلمية والعقلية والفطرية .

الثانى : عمقها فى النفس الانسانية وكونها استجابة قلبية ونفسية فطرية أخلاقية للتصورات الايمانية .

الثالث : لا تكون عبادة حقا ما لم يلاحظ فيها ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى (وهو الاخلاص لله فى العبادة .)

الرابع : الغرض الأساسى من العبادة ذكر الله .

الخامس : شمولها لقطاعات الانسان الداخلية والخارجية .

السادس : اشتمالها على مصالح عظيمة للأفراد والجماعات .

السابع : يسرها وسهولتها وكونها لا حرج فيها .

الثامن : انحصارها فى فعل الخير وترك الشر .

التاسع : لا وساطة فيها بين العبد وربه .

العاشر : لا تكون عبادة الله فيما لم يأذن به الله .

الحادى عشر : الاصل فيها اطلاقها من حدود المكان والزمان الا أن بعض العبادات والمناسك الخاصة اقتضت مصلحة العبادة فيها وحكمتها تخصيصها فى مكان أو زمان خاص .

فأحمد الله على ما شرع لنا . والحمد لله على الاسلام . والحمد لله على العبادات فيه والحمد لله على كل ما جاءنا من عند ربنا .

القسم الثالث

الأخـــلاق

الفصل الأول

مبادىء واسس عامة

كتب هذا الفصـــل الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني



تحديد مفهوم الأخلاق وبيان مواقعها فى السلوك

لتمييز الأخلاق عن غيرها من الصفات الانسانية . وتمييز أنواع السلوك الأخلاقى عن غيره من أنواع السلوك الانسانى . لابد لنا من تحديد مفهوم الأخلاق ، وبيان مواقعها فى السلوك الانسانى الداخلى والخارجى .

تعريف الخلق :

باستطاعتنا أن نعرف الخلق بأنه صفة مستقرة فى النفس فطرية أو مكتسبة ذات آثار فى السلوك محمودة أو مذمومة .

فالخلق منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم . والاسلام يدعو الى محمود الأخلاق وينهى عن مذمومها .

ونستطيع أن نقيس مستوى الخلق النفسى عن طريق قياس آثاره فى السلوك ، فالصفة الخلقية المستقرة فى النفس اذا كانت حميدة كانت آثارها حميدة . واذا كانت ذميمة كانت آثارها ذميمة . وعلى مقدار قيمة الخلق فى النفس تكون فى العادة آثاره فى السلوك . الا أن توجد أسباب معوقة ، أو صوارف صادة عن ظهور آثار الخلق فى السلوك .

وليست كل الصفات المستقرة فى النفس من قبيل الأخلاق بل منها غرائز ودوافع لا صلة لها بالخلق ، فالذى يفصل الأخلاق ويميزها عن جنس هذه الصفات كون آثارها فى السلوك قابلة للحمد أو للذم ، وبذلك يتميز الخلق عن الغريزة ذات المطالب المكافئة لحاجات الانسان الفطرية .

ان الغريزة المعتدلة ذات آثار فى السلوك ، الا أن هذه الآثار ليست مما يحمد الانسان أو يذم عليه .

فالأكل عند الجوع بدافع الغريزة ليس مما يحمد أو يذم في باب السلوك الخلقى . لكن الشره الزائد عن حاجات الغريزة العضوية أمر مذموم ، لأنه أثر لخلق فى النفس مذموم ، هو الطمع المفرط ، وعكس ذلك أثر لخلق فى النفس محمود ، هو القناعة .

والحذر من وقوع مكروه أثر من آثار غريزة حب البقاء ، وليس محلا للمدح أو الذم فى باب السلوك الخلقى ، لكن الخوف الزائد عن حاجات هذه الغريزة أثر لخلق فى النفس مذموم ، هو الجبن ، أما الاقدام الذى لا يصل الى حد التهور فهو أثر لخلق فى النفس محمود ، هو الشجاعة .

وهكذا سائر الغرائز والدوافع النفسية التى لا تدخل فى باب الأخلاق ، انما يميزها عن الأخلاق كون آثارها فى السلوك أمورا طبيعية ليست مما تحمد ارادة الانسان عليه أو تذم .

أنواع السلوك الارادى للانسان :

ينقسم السلوك الارادى للانسان الى أقسام متعددة .

١ ـ فمنه ماهو أثر من آثار خلق فى النفس محمود أو مذموم ، كالعطاء عن جود . والامساك عن شح ، والاقدام عن شجاعة ، والفرار عن جبن ، والاقبال عن طمع ، والكف عن عفة ، والاعتراف عن حب للحق ،والانكار عن كبر وافراط فى الانانية ، والاغضاء عن حلم ، والتحمل عن صبر ، وهكذا .

٢ ـ ومنه ما هو استجابة لغريزة من غرائز الجسد أو النفس الفطرية ، ضمن حدود الحاجات الطبيعية لها ، كالأكل المباح عن جوع ، والشرب المباح عنظمأ ، ومعاشرة الزوجة عن طلب لذلك ، والنوم عن حاجة اليه ، والسعى فى اكتساب الرزق تلبية لداعى الفطرة ، والاستمتاع المباح بالجمال تلبية لطلب النفس ، والترويح عن النفس بشىء من مباحات اللهو واللعب ، وأمثال ذلك .

٣ ـ ومنه ما هو استجابة ارادية لترجيح فكرى ، كأن يرى الفكر مصلحة أو منفعة فى سلوك ما . فتتوجه الارادة لممارسته . أصاب الفكر فى ذلك أو أخطأ . كمعظم أعمال الناس اليومية فى وجوه الكسب وغيره .

وقد يرجع هذا فى جذوره الى تلبية دافع من دوافع الغرائز الجسدية أو النفسية . أو الى دافع أخلاقى ، او الى غير ذلك .

٤ ـ ومنه ما هو من قبيل الآداب الشخصية أو الاجتماعية ، كآداب الطعام والشراب واللباس والمشى والنظافة والنظام ، والآداب المتعلقة بالأناقة واصلاح مظاهر الجسد . كتنظيف الشعر وترجيله . وتقليم الأظافر . وابداء كل حسن وجميل احتراما لأذواق الناس وتكريما لهم . واسترضاء لمشاعرهم .

وربما يكون التزام بعض هذه الآداب أثرا من آثار خلق في النفس محمود . وربما يكون اهمالها أثرا من آثار خلق فى النفس مذموم .

٥ ـ ومنه ما هو طاعة للأوامر والتكاليف الربانية أو غير الربانية . وقد تكون هذه الأوامر والتكاليف ملزمة بسلوك أخلاقى . أو ملزمة بأعمال هى من قبيل العبادات المحضة ، أو ملزمة بأعمال هى من قبيل الآداب . أو ملزمة بأعمال تحقق المصالح للناس . أو غير ذلك .

ومن هذا النوع أوامر الشرائع ونواهيها ، وأوامر السلطات الحاكمة ونواهيها ، ونحو ذلك من الأوامر والنواهى .

٦ ـ ومنه ما هو من قبيل العادات التى تتأصل فى السلوك . وقد ترجع هذه العادات الى موجه أخلاقى ، أو موجه غرزى ، أو موجه تكليفى ، أو موجه اجتماعى ، أو نحو ذلك . وقد لا تكون أكثر من ممارسات عبث استحكمت بالعادة .

٧ ــ ومنه ما هو من قبيل التقاليد الاجتماعية . التى تسرى فى سلوك الأفراد بعامل التقليد المحض ، أو بقوة التأثير الاجتماعى ، وقد تكون هذه التقاليد حسنة ، وقد تكون سيئة .

وحين تكون قوة التأثير الاجتماعى هى العامل فى ممارسة السلوك فان السلوك حينئذ يرجع الى نوع الطاعة للمجتمع ، فى أوامر وتكاليف غير منصوص عليها فى العبارة .

من هذا يتبين لنا أن السلوك الارادى الانسانى منه ما هو سلوك خلقى ومنه ما هو غير ذلك ، وأن السلوك الواحد قد يكون أثرا لموجه خلقى تارة وأثرا لغير ذلك تارة أخرى :

ويخلط بعض الناس بين مختلف مظاهر السلوك الانسانى ، فيجعلها من قبيل السلوك الخلقى ، وهذا يرجع الى أنهم لا يملكون تحديدا واضحا للأخلاق ، أو يرجع الى أن رؤيتهم لحقيقة السلوك غير واضحة ، وحشر أنواع السلوك الانسانى تحت عنوان الأخلاق خطأ فادح ، يوقع فى أخطاء أخرى أكثر وأكبر منه .

ان الأصل فى السلوك الانسانى أنه يهدف الى تحقيق مطالب جسدية أو نفسية أو فكرية أو روحية ، سواء أكان ذلك لصالح الفرد أو لصالح الجماعة ، وأى سلوك لتحقيق مطلب من هذه المطالب اما أن يكون سلوكا خلقيا ، واما أن يكون سلوكا لا علاقة له بالأخلاق ايجابا ولا سلبا .

وحين نتتبع الأحكام الدينية نجد أن كثيرا منها هى أحكام أخلاقية ، لأن الدين الحق يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن رذائلها ، وكذلك نلاحظ أن كثيرا من أحكام العادات والتقاليد هى أحكام أخلاقية أيضا ، وأن كثيرا من السلوك الأخلاقى مشمول أيضا بأحكام ذوقية جمالية ، فهو من جهة ارتباطه بالأخلاق له حكم أخلاقى ، ومن جهة ارتباطه بالجمال له حكم جمالى ، ومن جهة أمر الدين به له حكم دينى .

وهكذا قد تتشابك الجهات وتلتقى على سلوك واحد ، وهذا التشابك هو الذى قد يلبس الأمر على الباحث ، فكان التمييز بحاجة الى بصر علمى نفاذ ، وتحر دقيق لكل نوع من أنـواع السلوك الانسانى ، لتحديد هويته ٠

دلالة السلوك الأخلاقى على الخلق الثابت فى النفس :

ان دلالة السلوك الأخلاقى على الخلق الثابت فى قرارة النفس دلالة ظنية ، وليست دلالة قطعية ، فقد لا يكون السلوك الأخلاقى صادرا عن خلق أصيل ثابت فى قرارة النفس ، اذ ربما يكون صادرا عن تكلف وتصنع ، أو عن خوف وطمع ، وعندئذ فقد يكون من قبيل الرياء ، وقد يكون من قبيل النفاق ، وقد يكون صاحبه مخلصا يريد تطويع نفسه وترويضها ، حتى تكتسب الخلق الكريم ، ولو لم يكن ذلك من أصل طبعها ٠

مواقع الأخلاق فى السلوك :

ظهر لنا من التحليل السابق أن الخلق صفة فى النفس ثابتة فطرية أو مكتسبة ، وهذه الصفة لها ظواهر فى السلوك ٠

ولكن السلوك الانسانى منه ماهو سـلوك داخلى كحركات الفكر والنفس والقلب ، ومنه ما هو سلوك خارجى يظهر فى تصرفات الانسان الظاهرة ٠

وحين يكون السلوك أثرا لخلق فى النفس فطرى أو مكتسب فهو سلوك خلقى ٠

الكليات العامة التى تنضوى تحتها مفردات مكارم الأخلاق

نستطيع بالتأمل النظرى والاستقراء غير التام أن نكتشف عدة أصول وكليات عامة ترجع اليها مفردات مكـارم الأخلاق ، وهى أصول ثلاثة :

الأصل الأول :

كل دافع ذاتي فى الانسان سواء أكان فطريا أو مكتسبا ، يدفعه الى أن يعترف لغيره بما له من صفات كمال ، أو بما له من حق ، ولو كان فى ذلك الاعتراف مساس بما يشتهى الانسان لنفسه ، من كمال ، أو مجد ، أو أى حظ من حظوظ النفس أو الجسد ، هو من أصول مكارم الأخلاق وكلياتها العامة .

ونقيض هذا الأصل هو أحد أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة .

وتفريعا على هذا الأصل العام من أصول مكارم الأخلاق وما يقابله . نستطيع أن نعتبر الاعتراف للخالق العظيم بكمال ربوبيته وألوهيته ، والاذعان لذلك ، بدافع ذاتي فى الانسان ، من بدهيات أمثلة الكمال الخلقى فيه .

أما الالحاد بالله وجحود ربوبيته وألوهيته بعد قيام الأدلة على ذلك فى فكر الانسان وشعوره ، فذلك من أبرز أمثلة الانحطاط الخلقى ، ومن أخس دركاته .

ونستطيع أن ندخل فى أمثلة رذائل الأخلاق فى حدود هذا الأصل العام الاعتراف للوالدين بفضلهما ، والاعتراف للمعلم ولكل ذى فضل بفضله . والاعتراف لكل ذى مزية علمية أو فكرية أو ادارية أو عملية أو جسدية بمزيته وعدم غمطه حقه ، والاعتراف لكل ذى حق بحقه . مهما كانت العوامل النفسية محرضة على الغمط والجحود .

ونستطيع أن ندخل فى أمثلة رزائل الأخلاق فى حدود هذا الأصل العام جحود فضل ذوى الفضل ، وانكار مزايا ذوى المزايا وغمط الحق لأصحابه . استجابة لدافع من دوافع النفس الأنانية ، أو لشهوة من شهواتها ، ونحو ذلك من رذائل .

الأصل الثانى :

كل دافع ذاتي فى الانسان فطرى أو مكتسب يدفعه الى أن يؤدى الحقوق التى عليه كاملة . أو لينعم على غيره بعطاء

من علمه ، أو من قدرته ، أو من جاهه ، أو من ماله ، متجاوزا في ذلك عوامل نفسه الأنانية ، هو من أصول مكارم الأخلاق وكلياتها العامة .

ونقيض هذا الأصل أحد أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة .

وتفريعا على هذا الأصل العام من أصول مكارم الأخلاق وما يقابله نستطيع أن نسرد جملة كبيرة من مكارم الأخلاق ، ثم جملة كبيرة مما يقابلها من رذائل الأخلاق .

الأصل الثالث :

كل دافع ذاتي في الانسان ، فطري أو مكتسب ، يدفعه الى أن ينظر الى كل المنح التي يختص الله بها عباده ، ويوزعها بينهم ، انما هي مظاهر حكمة الله وعدله ، فهو ينظر الى ما لديه منها بعين القناعة والرضا ، دون أن تمتد عينيه الى ما وهب الله غيره منها امتداد اعتراض أو حسد ، هو من أصول مكارم الأخلاق وكلياتها العامة .

ونقيض هذا الأصل أحد أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة .

وتفريعا على هذا الأصل العام من أصول مكارم الأخلاق وما يقابله نستطيع أن نسرد عددا من مكارم الأخلاق ، ثم عددا من رذائل الأخلاق .

أسس الأخلاق

لدى التحليل يتبين لنا أن أسس الأخلاق عقلية ، وفطرية وجدانية ، وايمانية تدعو الى الأخذ بها القاعدة الايمانية في الاسلام ، لكل ذلك فهي ربانية ، لأن الله تبارك وتعالى هو الذي منح العقول موازين ادراكاتها . وأودع في الفطر الوجدانية أحاسيسها ومشاعرها ، وهو الذي أنزل على رسله قواعد الايمان وأحكام التشريع .

أما كونها عقلية فلأن مكارم الأخلاق يؤيدها العقل ويستحسنها ، ويحث عليها ، ويوجب ما يوجب منها • ولأن رذائل الآخلاق يؤيد العقل اجتنابها ويستقبحها . ويحث على البعد عنها ، ويحرم منها •

وأما كونها فطرية وجدانية فلأن فى فطر الناس الوجدانية ميلا الى مكارم الأخلاق . ورغبة داخلية بالتزامها وممارسة كل سلوك تدفع اليه • ولأن فى فطر الناس الوجدانية نفورا واشمئزازا من رذائل الأخلاق ، ورغبة داخلية باجتنابها ، واجتناب كل سلوك هو من آثارها •

وأما كونها ايمانية فلأن القاعدة الايمانية فى الاسلام تلزم بطاعة الله فى أوامره ونواهيه ، وترغب بالعمل بوصاياه ، وقد اشتملت أوامر الله ونواهيه ووصاياه على التوجيه للعمل بمكارم الأخلاق واجتناب رذائلها ، وقرنت ذلك بالوعد بالثواب لمن أطاع ، والوعيد بالعقاب لمن عصى •

على أنه يوجد تشابك جذرى بين أسس الأخلاق وأسس الايمان •

فالفضيلة الخلقية التى يدركها العقل ويستحسنها ، وتميل الفطر الوجدانية السليمة الى ممارستها ، توجب الاعتراف بعناصر القاعدة الايمانية فى الاسلام ، وتوجب الاذعان لها والعمل بما تقتضيه ، وتنفر وتشمئز من الجحود والاستكبار والتمرد ، وذلك لأن عناصر القاعدة الايمانية عناصر حق كبرى ، والفضيلة الخلقية توجب الايمان بالحق والاذعان له والعمل بمقتضاه ، وتنفر وتشمئز من جحود الحق والاستكبار عليه والتمرد على العمل بما يقتضيه •

وكذلك عناصر القاعدة الايمانية فى الاسلام ، فهى تدفع المؤمنين بها الى أن يتحلوا بالفضائل الخلقية ، وأن يتخلوا عن الرذائل الخلقية . وأن يلتزموا فى حياتهم كل سلوك خلقى تدعو اليه مكارم الأخلاق ، وتعد على ذلك بالظفر برضوان الله واغتنام الأجر العظيم عنده ، وتحذر من مغبة ممارسة

الرذائل الخلقية المحظورة ، وممارسة ظواهرها فى السلوك ، وتنذر بسخط الله وبالعقاب الأليم عنده ٠

وهكذا فالايمان بالاسلام سلوك ارادى توجبه فضائل الأخلاق التى تدركها العقول وتستحسنها ، كما تستقبح أضدادها ، وتميل الفطر الوجدانية السليمة الى ممارستها ، وتنفر وتشمئز من أضدادها ٠ وفضائل الأخلاق وما تقتضيه من سلوك أمور يوجبها أو يحسنها الايمان بالاسلام ، ويحث عليها ٠

لقد ظهر لنا بالتحليل وجود التشابك الجذرى بين الأخلاق والقاعدة الايمانية فى الاسلام ، وعليه نستطيع أن نقول : ان أسس الأخلاق هى أسس عقلية وفطرية وجدانية وايمانية ، كما أن أسس القاعدة الايمانية فى الاسلام هى أسس عقلية وفطرية وجدانية ، وأخلاقية ٠

الضمير الأخلاقى

لقد أودع الخالق العظيم فى مدارك العقول وفى مشاعر الوجدان الفطرية ما تدرك به فضائل الأخلاق ورذائلها ، ونستطيع أن نسمى ذلك « الحس الأخلاقى » ٠

وهذا ما يجعل الناس يشعرون بقبح العمل القبيح وينفرون منه ، ويشعرون بحسن العمل الحسن ويرتاحون اليه ، وبذلك يمدحون فاعل الخير ، ويذمون فاعل الشر ٠

وقد أرشدت النصوص الاسلامية الى وجود هذا الحس الأخلاقى فى الضمائر الانسانية ، وأحالت المسلم المؤمن الى استفتاء قلبه فى حكم السلوك الذى قد تميل نفسه الى ممارسته ٠

ففى القرآن الكريم يقول الله تعالى :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها (١) » .

فالنفس الانسانية منذ تكوينها وتسويتها ألهمت فى فطرتها ادراك طريق فجورها وطريق تقواها ، وهذا هو الحس الفطرى الذى تدرك به الخير والشر ، ولذلك كان على الانسان أن يزكى نفسه ويطهرها من الاثم حتى يظفر بالفلاح ، والا خاب سعيه .

ويقول الله تعالى :

« بل الانسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره (٢) » .

فالانسان لديه بصيرة ، يستطيع بها أن يحاسب نفسه محاسبة أخلاقية على أعماله ومقاصده منها ، ولو حاول فى الجدل اللسانى الدفاع عن نفسه والقاء معاذيره .

ويقول الله تعالى :

« لقد خلقنا الانسان فى كبد أيحسب أن لن يقدر عليه أحد يقول أهلكت مالا لبدا أيحسب أن لم يره أحد ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين (٣) » .

فالانسان كما لديه أدوات الحس الظاهر ، لديه حس باطن يدرك به طريقى الخير والشر ، وهما النجدان الممتدان فى أرض حياته الدنيا ، يختار منها لسلوكه ما يشاء ، وعليه بعد ذلك أن يتحمل نتائج عمله .

وهذا الحس الباطن يشمل ما تدركه العقول بموازينها التى فطرها الله عليها ، ويشمل ما تحس به الضمائر بمشاعرها الوجدانية التى فطرها الله عليها ، ومن ذلك يتكون فى الانسان حسه الأخلاقى .

---

(١) سورة الشمس : الآيات ٧ ـ ١٠ .

(٢) سورة القيامة : الآيات ١٤ ، ١٥ .

(٣) سورة البلد : الآيات ٤ ـ ١٠ .

وروى الامام مسلم عن النواس بن سمعان ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« **البر حسن الخلق ، والاثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس** » .

فهذا الحديث يدل على أن فى النفس الانسانية حسا خلقيا بالاثم ، ولذلك يكره فاعل الاثم أن يطلع عليه الناس ، لأنه يعلم أنهم يشعرون بمثل ما يشعر ، وذلك بحس أخلاقى موجود فى أعماق نفوسهم ، وهذا الحس الأخلاقى هو ما اكتشفه الباحثون الأخلاقيون من الفلاسفة وأسموه (الضمير) .

وروى الامام أحمد والدرامى باسناد حسن عن وابصة بن معبد قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « جئت تسأل عن البر ؟ » قلت : نعم . فقال « استفت قلبك . البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وان أفتاك الناس وأفتوك » .

ففى هذا الحديث تبيان واضح للحس الأخلاقى ، وهو ما يسمى بالضمير الأخلاقى ، وهذا الضمير اذا كان نقيا صافيا سليما من العلل والأمراض فانه يستطيع أن يحس بفضائل الأخلاق ومحاسن السلوك ، وأن يميز بين الصنفين ، وقد جمع الرسول صلوات الله عليه فضائل الأخلاق تحت عنوان (البر) وجمع رذائل الأخلاق تحت عنوان (الاثم) .

وفى هذا الحديث أيضا اشارة الى مواقع الحس الأخلاقى داخل النفس الانسانية ، وهو ما يطلق عليه اسم الضمير ، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى الحديث : « البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب » وهذا يدل على أن في النفس الانسانية قدرة على الاحساس بالبر ، أو حاسة خاصة تحس به ، ومثل ذلك يوجد أيضا فى القلب ، بل القلب أحرى بمثل هذه الحاسة وأجدر بها ، فالضمير أو الحس الأخلاقى موجود فى النفس وموجود فى القلب ، أو أن آثاره تظهر فيهما .

فالبر المفسر فى الحديث بأنه حسن الخلق ، يفعله الانسان السوى وهو مطمئن القلب ، ومطمئن النفس ، أما الاثم فان الانسان السوى لا يقــدم عليه الا وفى نفسه قلق منه ، وفى صدره تردد واضطراب ·

والطمأنينة فى النفس والقلب علامة على أن العمل هو من أعمال البر ، والتردد والاضطراب فيهما وخوف اطلاع الناس على العمل أو على الغرض منه علامة على أنه من أعمال الاثم ·

ولكن قد يختلط الأمر فى بعض الأعمال على العقل والضمير، ويلتبس عليهما وجه الحق ، فيكونان حينئذ بحاجة الى هداية وتبصير ، وقد تطغى عليهما الأهواء والشــهوات أو العــادات والتقاليد ، أو يؤثر عليهما القــادة المضلون ، أو الشــياطين الموسوســون من الجن والانس ، وفى هــاتين الحــالتين تقف الشريعة الربــانية فيها هــداية وتبصير ، فتدل بنصوصــها أو بأماراتها على نوع الحكم الأخلاقى وعلى درجته ·

وسبب اختــلاط الأمر والتباسه على الحس الأخــلاقى فى الانسان قد يكون راجعا الى اشتباه القضية الأخلاقية ، وغموض مدرك الحكم فيها ، وعدم ظهور وجه الحق والخير ·

وطريقة المسلم فى هذه الحالة هى اتقاء الشبهات ، فاذا كان اتقاء الشبهات فى جانب الترك ، لأن الأمر مشتبه بين الحلال والحرام كان الأفضل والخير للمسلم أن يترك العمــل المشتبه فيه ، خشية الوقوع فى الحرام ، واذا كان اتقاء الشبهات فى جانب الفعــل ، لأن الأمر مشتبه بين المبــاح والواجب ، كان الأفضل والخير للمسلم أن يأتى بالعمــل المشتبه فيه ، خشــية الوقوع فى الحرام ، لأن ترك الواجب حرام ·

والدليل على هذه الطريقة التى ينبغى للمسلم أن يتبعها ما رواه البخارى ومسلم من عدة طرق ، عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« **ان الحلال بين ، وان الحرام بين ، وبينهما مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام . كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وان لكل ملك حمى ، ألا وان حمى الله محارمه ، وألا وان في الجسد مضغة ،اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب** » .

فهذا الحديث يحدد ويصور بمنتهى الدقة والروعة واقع حال ادراك الناس للخير والشر ، والحق والباطل ، فمن ذلك ما هو واضح لا غموض فيه . ومنه ما هو مشتبه يخفى واقع حاله على كثير من الناس ، وهنا يقع الخلاف ، ويقع الالتباس ، والأفضل للمسلم دائما اتقاء الشبهات ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه عند الله ، واستبرأ لعرضه عند الناس .

ويدل عليه ما رواه الترمذى باسناد صحيح عن الحسن بن على بن أبى طالب ، قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« **دع ما يريبك الى مالا يريبك ، فان الصدق طمأنينة والكذب ريبة** » .

أي : اترك ما تشك فى حله ، واعدل الى ما لا تشك فى حله .

ولما كان الانسان مزودا فى فطرته بحس أخلاقى كاف لادراك الخير والشر والحق والباطل ، كان قادرا على أن يحاسب نفسه على عمله حسابا دقيقا ، ولذلك يقال له يوم القيامة عند تسليمه كتاب عمله الذى عمله فى الحياة الدنيا :

« **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** » .

قال الله تعالى :

« **وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (١)** » .

ثم تجرى محاسبته بعد ذلك ليرى أن محكمة العدل الربانية محكمة لا تظلم أحدا .

---

(١) الاسراء : الآيات ١٣ ، ١٤ .

تربية الضمير الأخلاقى :

يخضع الضمير الأخلاقى الفطرى لأصول التربية وقواعدها، اذ هو قابل للتنمية بممارسة عواطف الخير . وبدراسة كمال فضائل الأخلاق ، وما تعطيه من ثمرات فردية واجتماعية عاجلة وآجلة ، وبمواعظ الهداية الدينية والنصائح والوصايا الربانية ، وبوسائل الترغيب والترهيب . والقدوة الحسنة ، وقصص البطولات الأخلاقية ، وغير ذلك من وسائل تربوية • وخير ضابط له ، وأفضل قائد وموجه . التزام طاعة الله وخير صيانة له صيانته بتقوى الله وخوف عقابه ورجاء ثوابه •

واهمال تربية الضمير الأخلاقى الفطرى مما يضعفه ، ويجعله يضمر ويتناقص حتى يفقد الحس ثم يموت ، وقد يفسد ويتحول بوسائل التربية المفسدة حتى يكون جنديا من جنود شيطان الانسان ، ومؤازرا له فى وساوسه ونزغاته •

الغاية من السلوك الأخلاقى

لدى دراسة النصوص الاسلامية ، والتدبر فى المفاهيم العامة المقتبسة منها نلاحظ أن الغاية من التزام فضائل الأخلاق والابتعاد عن رذائلها تنقسم الى عنصرين :

العنصر الأول :

اكتساب مرضاة الله تعالى الخالق الرازق المنعم المحيى المميت ، الذى يجازى على الحسنة بأضعافها ، ويجازى على السيئة بمثلها ، فانه سبحانه يحب فعل الخير ، ويكره فعل الشر . ومن استطاع أن يرضى الله تعالى بعمله الصالح ظفر بمقدار عظيم من سعادة الحياة الدنيا فى دار الابتلاء ، وظفر بمقدار أجل . وأعظم من سعادة الآخرة فى دار الجزاء •

والتزام مكارم الأخلاق التى أمر بها الاسلام أو رغب بفعلها، واجتناب نقائص الأخلاق التى نهى الاسلام عنها أو رغب بتركها ، من الأعمال الصالحات التى يظفر عاملوها بنسب من مرضاة الله تعالى ملائمة لمقادير أعمالهم ونياتهم ، ولذلك يكون

نصيبهم من سعادة القلب وسعادة الجزاء المعجل فى الحياة الدنيا على مقدار ما حققوه بأعمالهم ونياتهم من مرضاة الله تعالى ، ويكون نصيبهم المضاعف من السعادة العظمى فى الآخرة ملائما لما حققوه بأعمالهم ونياتهم من مرضاة الله جل وعلا ٠

وباكتساب مرضاة الله تعالى تتحقق النجاة من الشقاوة والتعاسة ، التى يجلبها الانسان لنفسه باسخاط ربه فيما يقوم به من أعمال سيئات ٠

وهذا الجزاء المسعد لايظفر به من ابتغى مرضاة الله ، فأخلص له النية فيما يقوم به من صالح العمل ٠

العنصر الثاني :

تحقيق أقساط من السعادة المستطاعة التحقيق فى ظروف الحياة الدنيا ، وهى أنواع السعادة التى تمنحها سنن الله فى كونه ، الشاملة لجميع خلقه ، من آمن به منهم ومن كفر به ، والنجاة من أقساط من الشقاوة التى تجلبها الجرائم والجنايات، وفق سنن الله فى كونه ، الشاملة لجميع خلقه ، من آمن به منهم ومن كفر به ٠

والتزام قواعد الأخلاق الاسلامية كفيل بتحقيق أكبر نسبة من هذه السعادة ، للفرد الانسانى ، وللجماعة الانسانية ، ثم لسائر الشركاء فى الحياة على هذه الأرض ، وذلك بطريقة بارعة جدا ، يتم فيها التوفيق بالنسب المستطاعة بين حاجات ومطالب الفرد من جهة ، وحاجات ومطالب الجماعة من جهة أخرى ، ويتم فيها اعطاء كل ذى حق حقه ، أو قسطا من حقه ، وفق نسبة عادلة اقتضاها التوزيع العام المحفوف بالحق والعدل ٠

ومن الواضح فى هذا العنصر ، أن أسس الأخلاق الاسلامية لم تهمل ابتغاء سعادة الفرد الذى يمارس فضائل الأخلاق ويجتنب رذائلها ، ولم تهمل ابتغاء سعادة الجماعة التى تعامل فيما بينها بفضائل الأخلاق مبتعدة عن رذائلها ٠

وروعة الأخلاق التى أرشد اليها الاسلام تظهر فيما اشتملت عليه من التوفيق العجيب بين المطالب المختلفة للفرد من جهة ، وللجماعة من جهة أخرى . وتظهر فيما تحققه من وحدات السعادة الجزئية فى ظروف الحياة الدنيا . بقدر ما يسمح به سنن الكون الدائمة الثابتة . التى تشمل جميع العاملين ، مؤمنين بالله أو كافرين . أخلصوا له النية أو لم يخلصوا ٠

بخلاف العنصر الأول فانه لا يتحقق الا لمن آمن بالله وأخلص له العمل ٠

عناصر السعادة :

وحين نتساءل عن العناصر التى يشعر الانسان فيها بالسعادة ، نجد أن أهم هذه العناصر مشاعر اللذات ومشاعر الخلو من الآلام ٠

ولذات الجسد وآلام الجسد أهون اللذات والآلام قيمة ، ولكنها تدخل ضمن الوحدات الجزئية التى تمنح الانسان قسطا من السعادة ، كرذاذ سريع الجفاف ، ولا يملأ ساحة النفس والقلب والروح ٠

وفوقها تأتى لذات النفس وآلامها . فهى أعمق . وأشمل ، ومدة بقائها أطول ٠

وفوقها تأتى لذات الروح وآلامها . فهى أعمق منهما ، وأشمل منهما . وأبقى منهما ٠

وقد تطغى لذة النفس على ألم الجسد . فلا يشعر الانسان بألم الجسد ، وقد تطغى لذة الروح على ألم النفس ، فلا يشعر الانسان بألم النفس . فمغانم السعادة تأتى على مقدار قيمتها الحقيقية ٠

وقد تطغى آلام النفس على لذات الجسد . فلا تكون للذات الجسد أية قيمة . وقد تطغى آلام الروح على لذات النفس ، فلا

تكون للذات النفس أية قيمة ، فمصائب التعاسة والشقاء تأتى على مقدار قيمتها الحقيقية .

فأعلى أنواع السعادة ما يأتى عن طريق لذات الروح ، وينبع من داخل كيان الانسان ، وأشد أنواع التعاسة والشقاء ما يأتى عن طريق آلام الروح ، وينبع من داخل كيان الانسان .

ودون ما يأتى عن طريق الروح ما يأتى عن طريق النفس .
ودونهما ما يأتى عن طريق الجسد .

وهذا الذى نبهت عليه النصوص الاسلامية هو ما انتهى اليه معظم عقلاء الفلاسفة والأخلاقيين والمفكرين المنصفين .

ومما لا ريب فيه أن أنواع اللذات كلها قد تساهم مساهمة ما فى اغتنام أقساط من السعادة ، مالم تعارضها آلام أشد منها وأقوى وأدخل فى أعماق كيان الانسان ، وكذلك أنواع الآلام كلها قد تساهم مساهمة ما فى الاصابة بأقساط من التعاسة والشقاء ، ما لم تعارضها لذات أشد منها وأقوى ، وأدخل فى اعماق كيان الانسان .

والاسلام لم يهمل أى نوع من أنواع اللذات والآلام ، ولكنه قد أدخلها جميعا فى حسابه ، ثم أقام قواعد التوفيق الأخلاقى على هذا الأساس .

وبالاضافة الى ملاحظة اللذات والآلام لاغتنام أكبر قسط مستطاع من السعادة للفرد والمجتمع ، أدخلت الأخلاق الاسلامية فى حسابها الذى أقامت عليه قواعد الأخلاق ، المصالح والمفاسد ، والمنافع والمضار ، العاجل من كل ذلك والآجل ، للفرد وللجماعة ، وأجرت بين المتعارضات منها موازنات وتوفيقات عجيبة ، كفيلة بجلب أعظم نسبة مستطاعة من الخير ، ودفع أكبر نسبة يستطاع دفعها من الشر ، مع المحافظة على العدل بين ذوى الحقوق ضمن ظروف هذه الحياة الدنيا .

وفى الشريعة الاسلامية وفرة من النصوص التى تشير الى السعادة بوصفها غاية منشودة ، والى اللذة بوصفها أمرا قد توجد به أو معه السعادة . ووفرة أيضا من النصوص التى

تشير الى الشقاء الذى يدخل الحذر منه واتخاذ الوسائل لتفاديه ضمن الغاية المنشودة ، ومن النصوص التى تشير الى الألم بوصفه أمرا قد يوجد به أو معه الشقاء ٠

المسئولية عن السلوك الأخلاقى

السلوك الأخلاقى كسائر أنواع السلوك الانسانى من جهة المسؤولية ، لا فرق بينه وبينها ٠

شروط ترتيب المسؤولية :

ومسؤولية الانسان الحقيقية عن عمله منوطة باستيفاء شروط ستة :

الشرط الأول :

أن يكون صاحب العمل أهلا لتحمل المسئولية ٠ وقد حدد الشارع أهلية تحمل المسؤولية الدينية ذات العقاب الأخروى بالعقل والبلوغ ، أما فاقد العقل فلا مسؤولية عليه بداهة ، ولا اعتبار لأى عمل من أعماله ، وأما غير البالغ فقد أعفاه الله من المسؤولية الأخروية وان كان مميزا ، دون أن يحرمه من ثواب عمله الصالح ، وذلك لتكون فترة ما قبل البلوغ فترة تربية وتعليم وانضاج فكرى ونفسى ، وخفف مسؤوليته الدنيوية الى مستوى المسؤولية التربوية ، التى يتولاها أولياؤه المربون له ، فيؤدبونه بمختلف وسائل التأديب التى أذن بها الشارع ٠

الشرط الثانى :

أن يكون العمل عملا اراديا أى صادرا عن ارادة صاحب العمل ، ومتى اختل هذا الشرط سقطت المسؤولية ، وبناء على ذلك فان الأعمال التى لا تكون ارادة الانسان الحرة ذات وساطة ما فى وجودها ، لا يكون الانسان مسؤولا عنها ، كالرعشات ، وكحركة النائم ، وكالملجأ الى الأمر الجاء ٠

الشرط الثالث :

أن تتوافر فى العمل النية والقصد لما ينجم عنه فعلا من نتائج خير أو شر ٠

فاذا كان لصاحب العمل نية أو غاية أخرى غير ذلك فان المسؤولية الحقيقية عند الله تكون وفق نيته وغايته ، دون ظاهرة السلوك وما نجم عنه . وأما السلوك الظاهر فيكون عندئذ من قبيل العمل الملغى .

ولذلك تلغى عند الله أعمال المرائين والمنافقين . مهما كان مظهرها مظهر خير وصلاح .ويحاسبون على نياتهم وغاياتهم التى كانوا يضمرونها فى قلوبهم ..

ويتجاوز الله عن أعمال المسيئين . اذا كانت نياتهم التى يضمرونها فى قلوبهم نيات صالحة . بشرط أن يكونوا معذورين فى أخطائهم بممارسة الأعمال السيئة .

وهذا الشرط معلن فى نصوص اسلامية كثيرة منها الحديث الصحيح المشهور :

« **انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى** » .

ولما كان الخطأ خاليا من القصد القلبى كان من مقتضى العدل الربانى رفع الجناح عنه ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

« **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما** » (١) .

الشرط الرابع :

العلم بالعمل . وبما يؤدى اليه العمل من خير أو شر . وبحكم العمل الأخلاقى أو الشرعى .

فمن الظاهر فى مفاهيم الشريعة الاسلامية أنه لا مسؤولية مع الجهالة التى يعذر بها صاحبها . أما الجهالة التى لا يعذر بها صاحبها فلا ترتفع معها المسؤولية .

الشرط الخامس :

كون العمل مستطاع الفعل والترك .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٥ .

فلا مسؤولية عن العمل مع العجز ، سواء أكان عجزا عن الفعل ، أو كان عجزا عن الترك ، وبداهة العقول تقضى بأن الاستطاعة شرط لترتب المسؤولية ٠

ونصوص الشريعة الاسلامية الدالة على هذا الشرط متعددة، منها قول الله تعالى :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها (١) » ٠

لذلك فاننا نستطيع أن نقول فى باب الأخلاق : ان المفطور على سرعة الانفعال حتى لا يستطيع أن يملك نفسه ملكا تاما ، تخف مسؤوليته فى مجال خلق الحلم الى المقدار الذى يملكه من نفسه بارادته، بخلاف المفطور على بطء الانفعال .فان مسؤوليته فى مجال خلق الحلم تكون أكبر وأعظم . فاذا هو أسرع بالغضب مع قدرته على ضبط نفسه ، فانه يلام بنسبة أكبر من النسبة التى يلام بها المفطور على سرعة الانفعال ، نظرا الى أنه أقدر على ضبط نفسه منه ٠

الشرط السادس :

أن يكون صاحب العمل متمتعا بحريته عند أداء العمل ، غير مكره عليه ٠

والاكراه هو الالزام على سبيل القهر والغلبة بالقيام بعمل من الأعمال المادية الظاهرة ، تحت تأثير قوة ملجئة ، أو تهديد بانتقام أشد ضررا وشرا من الضرر أو الشر الذى يفضى اليهما العمل الذى حصل الاكراه عليه ، والملزم بالقيام بالعمل كاره له ، مقهور عليه ، مغلوب على أمره فيه ٠

ومن المعلوم أن الارادة لا تكون تامة الحرية فى حالة الاكراه ، بل هى مغلوبة مستكرهة ، لذلك نلاحظ أن الأحكام الاسلامية قررت رفع مسؤولية الانسان عن الأعمال المادية التى يستكره على فعلها ، وذلك ضمن شروط وتفصيلات مبينة فى كتب الفقه ٠

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ ٠

ويدل على رفع المسؤولية فى حالة الاكراه ما رواه ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« ان الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

أخرجه ابن ماجه والبيهقى وهو حديث صحيح .

ومن الشروط فى رفع المسؤولية عن المكره ألا تتفق ارادته القلبية مع ارادة من استكرهه على العمل .

وليس من الاكراه حمل الانسان على ارتكاب اثم كبير عن طريق تهديده بانزال ضرر فيه دون الضرر الذى يتحقق بذلك الاثم .

شـــمول الأخـــلاق

دخول الأخلاق فى كل القطاعات الانسانية :

لـكل قطاع من القطاعات الانسانية المختلفة الداخليـــة والخارجية أخلاق ، للفكر أخلاق ، وللاعتقاد أخـلاق ، وللقلب أخلاق وللنفس أخلاق ، وللسلوك الظاهر أخلاق .

١ ــ فمن فضائل أخلاق الفكر تحرى الحقيقة بانصاف وتجـرد وحياد ، والصبر على التفكر والتدبر ، والبحث عن كل نافع مفيد من الأفكار والمعارف والعلوم ، والبعد عن سـفاسف الأفـكار وتوافهها ، والاشـــتغال بتذكر كل صـــالح مفيد ، ونسيان الأحداث المثيرة للأحقاد والضغائن أو الباعثة على الغضب والانفعالات غـير الحسنة ، وعـدم التطلع الى مثيرات الحسد أو مثيرات الشهوات والأهواء المحرمة ، الى غير ذلك من فضائل .

ويقابل هذه الفضائل من فضائل أخلاق الفـكر نقائص ورذائل يجب على الانسان اجتنابها أو يحسن به اجتنابهـــا ليظفر بالارتقاء فى سلم الكمال الخلقى فى مجـال أخـلاق الفـــكر .

٢ ــ ومن فضائل أخلاق الاعتقاد أن لايسمح الانسان لنفسه بأن يتتبع الأوهام والظنون الضعيفة فيحلها فى مراكز عقائده

الثابتة الراسخة ، وأن لايجعل مركز عقائده فريسة للتقليد الاعمى والضلالات الشائعة . أو فريسة لما تمليه الأهواء والشهوات من أفكار ومذاهب . أو فريسة لما يمليه القادة المضلون والشياطين المدسوسون من الانس والجن . الى غير ذلك .

ويقابل هذه الفضائل من فضائل أخلاق الاعتقاد نقائص ورذائل يجب على الانسان اجتنابها . أو يحسن به اجتنابها ، ليظفر بالارتقاء فى سلم الكمال الخلقى فى مجال أخلاق الاعتقاد .

٣ ــ ومن فضائل أخلاق القلب حب الحق وحب الخير ، وكراهية الباطل والشر ، وعدم تحمل الأحقاد والضغائن . والشجاعة . الى غير ذلك من أمور .

ويقابل فضائل أخلاق القلب نقائص ورذائل خلقية يطالب الانسان باجتنابها والبعد عنها .

٤ ــ ومن فضائل أخلاق النفس الصبر ، والعفة ، ومجانبة الحسد ، والترفع عن سفاسف الأمور ، والنظر الى معاليمها ، وعلو الهمة ، وجود النفس ، وتسامحها ، وعفوها عن اساءة المسيء ، الى غير ذلك من أمور كثيرة .

٥ ــ أما فضائل أخلاق السلوك الظاهر فكثيرة ، وهي في حقيقتها الصادقة تعبير عما فى داخل الانسان من أخلاق ، ويقابلها نقائص ورذائل خلقية يطالب الانسان باجتنابها والبعد عنها .

وبهذا تبين لنا شمول الأخلاق الاسلامية لكل قطاع من القطاعات الانسانية المختلفة الداخلية والخارجية .

تناول الأخلاق لجانبى السلوك الفردى والسلوك الاجتماعى :

والأخلاق تتناول جانب السلوك الفردى ، وجانب السلوك الاجتماعى .

١ ـ فمن الأخلاق التى تتناول جانب السلوك الفردى القناعة الذاتية والزهد المحمود ، والأناة فى العمل ، وبعض حالات الصبر ، والاتقان . والنظام . والحزم ، والتفاؤل •

٢ ـ ومن الأخلاق التى تتناول جانب السلوك الاجتماعى : الحلم ، والصدق ، والأمانة ، والصبر على أذى الآخرين . والعفة ، والتسامح ، والعفو ، وحب العطاء ، والشجاعة ، والتواضع ، ولين الجانب ، والوفاء •

وقاعدة الأخلاق الاجتماعية الكبرى تتلخص بأن يعامل الانسان الآخرين بما يحب أن يعاملوه به ، انه يحب أن يعاملوه بالعفو اذا أساء فليكن عفوا عن اساءاتهم ، ويحب أن يكونوا معه أمناء فليكن معهم أمينا . ويحب أن يصدقوه ولا يكذبوه فليصدقهم ولا يكذبهم . ويحب منهم العفة عن محارمه فليكن عفيفا عن محارمهم . وهكذا ••

ويكره منهم أضداد هذه الأمور فلا يعاملهم بما يكره أن يعاملوه به •

وقد بلغت الأخلاق الاجتماعية فى الاسلام مبلغا من الرقى العظيم ، جعلها فى مركز القمة . بما اشتملت عليهمن تفصيلات موثقة للراوبط الاجتماعية بين الأفراد ، ومؤثرة تأثيرا عميقا فى تغذية وحدة الجماعة الاسلامية ، وتنمية روابط المودة والاخاء بين المسلمين •

وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام فضائل العفو، والاحسان، والتعاون ، والتضحية ، والايثار ، واكرام الضيف ، واكرام الجار ، والتواضع ، ولين الجانب ، وحسن المعاشرة ، والتزاور فى الله ، وعيادة المرضى ، والتهادى ، والقرض الحسن ، ونحو ذلك •

تقسيم الأخلاق باعتبار علاقاتها

لدى تصنيف مفردات الأخلاق باعتبار علاقاتها نلاحظ أنها تنقسم الى أربعة أقسام :

القسم الأول :

ما يتعلق بوجوه الصلة القائمة بين الانسان وخالقه ·

والفضيلة الخلقية فى حدود هذا القسم تفرض على الانسان أنواعا كثيرة من السلوك الأخلاقى ، منها الايمان به لأنه حق ، ومنها الاعتراف له بكمال الصفات والأفعال ، ومنهـا شكره على نعمه التى لا تحصى ، ومنها طاعته فى أوامره ونواهيه ، وتقبل نصائحه ووصاياه ، والاستجابة له فيما يدعو عباده اليه ، لأن له الخلق والأمر وله حق الطاعة ، ومنها تصديقه فيما يخبرنا به ، لأنه هو صاحب الحق فى أن يحكم علينا بما يشاء ، فكل هذه الأنواع من السلوك أمور تدعو اليها الفضيلة الخلقية ·

أما دواعى الكفر بالخالق بعد وضوح الأدلة على وجوده ، فهى حتما دواع تستند الى مجموعة من رذائل الأخلاق ، منها الكبر ، ومنها ابتغـاء الخـروج على طاعة من تجب طاعته ، استجابة لأهـواء الأنفس وشـهواتها ، ومنها نكران الجميل وجحود الحق ·

وقد نبـه القرآن على رذيلة خلق الكبر الدافعة الى انكار الآخرة وعدم الايمان بها ، فقال تبارك وتعالى :

« الهكم اله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخـرة قلوبهم منـكرة وهم مستكبرون (١) » ·

لقد استكبروا عن طاعة الله ، فلزم من ذلك أن لا يؤمنوا بالآخرة ، فغدت قلوبهم منكرة لاتتقبل الأنبـاء الصـادقة التى تحدثهم عن يوم الجزاء الأكبر ·

ونبه القرآن على رذيلة ارادة الفجور ، الدافعة الى جحود قانون الجزاء الربانى ، وانكار يوم القيامة ، فقال الله تعالى :

« بل يريد الانسان ليفجر أمامه · يسأل : أيان يوم القيامة (٢) » ·

---

(١) سورة النحل : الآية ٢٢ ·

(٢) سورة القيامة : الآيات ٥ ، ٦ ·

والفجور : هو التدفق الوقح الى فعل الشرور والآثام ، وهو لا محالة من قبائح رذائل الأخلاق .

القسم الثاني :

ما يتعلق بوجوه الصلة بين الانسان وبين الناس الآخرين .

وصور السلوك الأخلاقى الحميد فى حدود هذا القسم معروفة وظاهرة ، منها الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والعدل ، والاحسان ، والعفو ، وحسن المعاشرة ، وأداء الواجب ، والاعتراف لذى الحق بحقه ، والاعتراف لذى المزية بمزيته ، والمواساة ، والمعونة ، والجود ، وهكذا الى آخر جدول فضائل الأخلاق التى يتعدى نفعها الى الآخرين من الناس .

أما صور السلوك الأخلاقى الذميم فى حدود هذا القسم فهى أيضا معروفة وظاهرة ، منها : الكذب ، والخيانة ، والظلم ، والعدوان ، والشح ، وسوء المعاشرة ، وعدم أداء الواجب ، ونكران الجميل ، وعدم الاعتراف لذى الحق بحقه ، وهكذا الى آخر جدول رذائل الأخلاق التى يتعدى ضررها الى الآخرين من الناس .

القسم الثالث :

ما يتعلق بوجوه الصلة بين الانسان ونفسه .

وصور السلوك الاخلاقى الحميد فى حدود هذا القسم كثيرة منها الصبر على المصائب ، ومنها الأناة فى الأمور ، ومنها النظام والاتقان فى العمل ، ومنها عدم استعجال الأمور قبل أوانها ، وكل ذلك يدخل فى حسن ادارة الانسان لنفسه ، وحكمته فى تصريف الأمور المتعلقة بذاته .

وصور السلوك الأخلاقى الذميم فى حدود هذا القسم تأتى على نقيض صور السلوك الأخلاقى الحميد .

القسم الرابع :

ما يتعلق بوجوه الصلة بين الانسان والأحياء غير العاقلة .

ويكفى أن نتصور من السلوك الأخلاقى الحميد فى حدود هذا القسم : الرحمة بها ، والرفق فى معاملتها ، وتأدية حقوقها

الواجبة ، أما ظلمها والقسوة عليها ، وحرمانها من حقوقهـا فهى من قبائح الأخلاق ، وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر :

« عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار ، لاهى أطعمتها وسقتها اذ حبستها ، ولا هى تركتها تأكل منخشاش الأرض » (١)٠

ولابد من ملاحظة أن كثيرا من الأخلاق لها عددمن الارتباطات والتعلقات ، ولذلك فقد تدخل فى عدد من هذه الأقسام فى وقت واحد ، اذ قد تكون لفائدة الانسان نفسه ، وتكون مع ذلـك لفائدة الآخرين ، وهى أيضا محققة لمرضاة الله تبارك وتعالى ٠

ضرورة مكارم الأخلاق للمجتمعات الانسانية

ان أى مجتمع من المجتمعات الانسانية لايستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ، مالم تربط بينهـم روابط متينة من الأخلاق الكريمة ٠

ان مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية ، لا يستغنى عنهـا مجتمع من المجتمعات ، ومتى فقدت الأخـلاق التى هى الوسط الذى لابد منه لانسجام الانسان مع أخيه الانسان ، تفكك أفراد المجتمع وتصارعوا ، وتناهبوا مصالحهم ، ثم أدىبهم الى الانهيار، ثم الى الدمار ٠

كيف تكون الثقة بالعلوم والمعارف والأخبار وضمانالحقوق لولا فضيلة الصدق ؟!

كيف يكون التعايش بين النـاس فى أمن واستقرار لولا فضيلة الأمانة ؟!

كيف تكون أمة قادرة على انشاء حضارة مثلى لولا فضائل التآخى والتعاون والمحبة والايثار ؟!

كيف تكون جماعة مؤهلة لبنـاء مجد عظيم لولا فضـيلة الشجاعة فى رد عدوان المعتدين وظلم الظالمين ، ولولا فضـائل العدل ، والرحمة ، والاحسان ، والدفع بالتى هى أحسن ؟!

---

(١)خشاش الارض : هوامها وحشراتها ٠

كيف يكون انســـان مؤهلا لارتقاء مراتب الكمال الانسانى اذا كانت أنانيته مسيطرة عليه ، صارفة له عن كل عطـــــاء وتضحية وايثار ؟!

لقد دلت التجربات الانسانية ، والأحـداث التاريخية ، أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها فى سلم الأخلاق الفاضلة ، وتتناسب معه ، وأن انهيـار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها ، ومتناسب معه ، فبـين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردى دائما صاعدين وهابطين .

وذلك لأن الأخلاق الفاضلة فى أفراد الامم والشعوب تمثل المعاقد الثابتة التى تعقد بهـا الروابط الاجتمــاعية ، ومتى انعدمت هذه المعاقد أو انكسرت فى الأفراد لم تجـد الروابط الاجتماعية مكانا تنعقد عليه ، ومتى فقدت الروابط الاجتماعية صارت الملايين فى الأمة المنحلة عن بعضها مزودة بقوة الأفراد فقط ، لابقوة الجماعة ، بل ربما كانت القوى المبعثرة فيهـــا بأسا فيما بينها مضافا الى قوة عدوها .

واذا كانت الأخلاق فى أفراد الأمم تمثل معــاقد الترابط فيما بينهم ، فان النظم الاسلامية الاجتماعية تمثل الأربطة التى تشد المعاقد الى المعاقد ، فتكون الكتلة البشرية المتماسكة القوية التى لا تهون ولا تستخذى .

موقف أعداء المسلمين من الأخلاق الاسلامية

لقد أدرك أعداء المسلمين قيمة الأخلاق الاسلامية فى تكوين الأمة المترابطة القوية المتينة ، فعملوا على افساد أخلاق المسلمين بكل ما أوتوا من مكر ودهاء ، وبكل ما أوتوا من وسائل مادية وشياطين اغواء ، ليبعثروا قواهم المتماسكة بالأخلاق الاسلامية العظيمة ، وليفتتوا وحدتهم التى كانت مثل الجـــبل الراســخ الصلب قوة ، ومثل الجنة الوارفة المثمرة خضرة وبهاء ، وثمرا ومــاء .

ان أعداء المسلمين قد عرفوا أن الأخـــلاق الاسلامية فى أفراد المسلمين تمثل معاقد القوة ، فجندوا لغزو هذه المعــاقد وكسرها جيوش الفساد والفتنة ٠

وكان غزوهم للأخلاق الاسلامية من عدة جهات :

أولا :

لقد عرفوا أن النبع الأساسى الذى يزود الانســـان المسلم بالأخلاق الاسلامية العظيمة ، انما هو الايمـــان بالله واليوم الآخر ، فصمموا على أن يكسروا مجارى هـــذا النبع العظيم ، ويسدوا عيونه ، ويقطعوا شرايينه ٠

ثانيا :

وعرفوا أن تفهم مصادر الشريعة الاسلامية تفهمــا سليما هو الذى يمد نبع الايمان بما يتطلبه من معـــارف ، فمكروا بالعلوم الاسلامية ، وبالدراسات المتعلقة بها مكرا بالغا وذلك ما بين حجب لها تارة ، وتلاعب بمفاهيمها أخرى ، وتشويه لها أو جحـــود ، ومضايقة لروادها ومبلغيها . كل ذلــك فى حرب مستمرة لاتعرف كللا ولا مللا ٠

ثالثا :

وعرفوا قيمة الافساد العملى التطبيقى ، فوجهوا جنودهم لغمس أبناء المسلمين فى بيئات مشحونة بالانحـــلال الخلقى ، بغية اصابتهم بالرذائل الخلقية عن طريق العـــدوى ، وسراية الفساد بقوة تأثير البيئة ، واستمراء الشهوات المرتبطة برذائل الأخـــلاق ٠

رابعا :

وعرفوا قيمة افساد المفاهيم والأفكار ، فجنـــدوا جيوش المضللين الفكريين ، الذين يحملون الى أبناء المسلمين الأفكار والمفاهيم والفلسفات الباطلة ، ضمن واردات المعارف المــادية الصحيحة ، ذات المنجزات الحضارية المدهشة ، وعن طريق هــذا الغزو الفكرى الخطير يدخلون السم فى الدسم ٠

الحكم الأخلاقى وتفاوت درجاته

ليست مفردات الأخلاق على مستوى واحد فى قوة حكمها الأخلاقى بل هى على مستويات متفاوتات الزاما أو ترغيبا ، بالفعل أو بالترك .

وتبعا لاختلاف نسب وجود الحق أو الخير أو الجمال من الناحيتين الكمية والكيفية ، فى القضايا الأخلاقية ، يكون الحكم الأخلاقى فى الاسلام . وتكون نسبته الزاما أو ترغيبا بالفعل أو بالترك .

فبعض القضايا الأخلاقية ترتفع الى مرتبة ايجاب الفعل والالزام به . وبعضها تنزل فيها هذه النسبة الى مادون الوجوب، ثم تتفاوت درجات الترغيب بالفعل ، من الترغيب الشديد الى الترغيب الخفيف .

وبعض القضايا الاخلاقية ترتفع الى مرتبة التحريم والالزام بالترك ، وبعضها تنزل فيها هذه النسبة الى ما دون التحريم ثم تتفاوت درجات الترغيب بالترك ، من الترغيب الشديد الى الترغيب الخفيف .

وقد تتعارض مقتضيات الفعل والترك فى القضية الأخلاقية ، ويكون لبعضها رجحان على بعض . وتبعا لذلك تكون نسبة الحكم الأخلاقى ونوعه .

وحين تتكافأ مقتضيات الفعل والترك تكافؤا تاما من غير ترجيح لأحد الطرفين على الآخر . أو حين لا يوجد أى مقتض أخلاقى للفعل أو الترك، فان مستوى القضية حينئذ يكون صفرا، والحق المطلق حينئذ يكون لحرية الانسان الشخصية ، والحكم الأخلاقى فى هذه الحالة هو حكم الاباحة ، وفى هذا المجال تنطلق الحريات الشخصية دون أى الزام أو ترغيب .

وعلى هذا فالسلوك الأخلاقى المطلوب فيه القيام بعمل ما تتفاوت نسبة الحكم الأخلاقى فيه . فمنه ما هو واجب ، ومنه ما

هو دون ذلك ، وتتنازل النسبة حتى أول درجة المبـاح . على أن الواجبات تتفاوت فيما بينها تفاوتا ظاهرا ، فمن الواجبـات ما تركه كفر ، ومنها ماتركه كبيرة كبرى ، ومنها ماتركه كبيرة، ومنها ماتركه صغيرة .

والسلوك الأخلاقى المطلوب فيه الكف عن عمل ما تتفاوت نسبة الحكم الأخلاقى فيه ، فمنه ما هو حرام ، ومنه ما هو دون ذلك ، وتتنازل النسبة حتى أول درجة المباح،على أن المحرمات تتفاوت فيما بينها تفاوتا ظاهرا ، فمن المحرمات ما فعله كفر ، ومنها ما فعله كبيرة كبرى ، ومنها ما فعـله كبيرة ، ومنهـــا ما فعله صغيرة .

وكل من السلوك الأخلاقى سواء أكان فعلا أو تركا حـق مسلط على ارادة الانسان بنسب متفاوتة ، فاذا وصلنا الى درجة المباح جاء حق حرية الارادة المطلقة فى أن تختار ماتشاء ، وهذا الحق حينئذ مسلط على الآخرين ، اذ يطلب منهـم عنـدئذ أن يحترموه ، فيمنحوا الفرد حقه هذا ، دون معارضة ولا حجـز للحرية .

مصـدر اكتساب الحـق :

أما مانح أصل الحقوق المقتضية للأحكام الأخلاقية فهو الله الخالق تبارك وتعالى ، وقد جعل الله فى فطر الناس الوجدانية ، وفى موازينهم العقلية ، ما يدركون به هذه الحقوق ، اذا كانت هذه الفطر والموازين في الأفراد سليمة من العوارض والأمراض، وسليمة مما يغشى عليها .

عنـــاية القــرآن والســنة بتزكيــة النفس وتهذيبهـــا

لمـا كان الأصل فى السلوك الظاهر أن يكون مظهرا تعبيريا لأحوال النفس وحركاتها ، ولمـا كان السلوك الظاهر عرضـة لأحوال النفاق والرياء والعادة التى لاتعبر عن صدق فى الاتجاه القلبى والنفسى .

ولما كان كل ذلك كانت عناية الاسلام موجهة بالدرجة الأولى لتزكية النفس وتهذيبها ، والمراد من تزكية النفس تطهيرها من نزغات الشر والاثم ، وازالة حظ الشيطان منها ، وتنمية فطرة الخير فيها ، ومتى حصلت فى النفس هذه التزكية غدت صالحة لغرس فضائل الأخلاق فيها ، وتهذيب طباعها تهذيبا مصلحا ومقوما وكابحا وموجها ، وبتهذيب طباع النفس يتهيأ المناخ النفسى الصالح لتفجر منابع الخير ٠

وطبيعى أنه متى تزكت النفس وتهذبت طباعها ، استقام السلوك الداخلى والخارجى لا محالة ٠

بخلاف توجيه العناية الى تقويم السلوك الظاهر فقط ، فانه بناء على غير أساس ، وكل بناء على غير أساس عرضة للانهيار ، يضاف الى ذلك ان السلوك الظاهر قد لا يكون معبرا تعبيرا صادقا عن أحوال النفس الداخلية ٠

ولذلك كان نظر الله تبارك وتعالى فى مراقبته لأعمال عباده موجها لما فى قلوبهم ونفوسهم ٠

روى الامام مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى لا ينظر الى أجسامكم ولا الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم » ٠

ولذلك كانت قيمة الأعمال فى تقرير الجزاء عند الله على قدر قيمة نيات العاملين لها ، ففى الحديث الصحيح المشهور :

« انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى »

وأشار الرسول صلوات الله عليه الى أن القلب هو مكان التقوى ٠

وأبان القرآن أن من زكى نفسه فقد أفلح ، وأن من دس نفسه ــ أى : غمسها فى أدناس الكفر والمعصية ــ فقد خاب ، فربط الفلاح بتزكية النفس بالايمان والتقوى ، وربط الخيبة بتدنيس النفس بالكفر والعصيان ، قال الله تعالى :

« ونفس وما سواها • فالهمها فجورها وتقواها . قد افلح من زكاها • وقد خاب من دساها (١) » •

واذ أبان الله أنه قد ألهم كل نفس معرفة طريق فجـــورها وطريق تقواها علمنا أن تزكية النفس انما تكون بالتقوى. وأن غمسها فى الأدناس انما يكون بالفجور •

وقال تبارك وتعالى :

« قد أفلح من تزكى • وذكر اسم ربه فصلى (٢) » •

وحينما يكون العمل تعبيرا صادقا عمـــا فى النفس يكون ممارسة صادقة من ممارسات تزكية النفس ، قال الله تعالى :

« فانذرتكم نارا تلظى . لايصلاها الا الأشقى • الذى كـــذب وتولى • وسيجنبها الأتقى • الذى يؤتى ماله يتزكى • وما لأحد عنده من نعمة تجزى • الا ابتغاء وجه ربه الأعلى • ولسوف يرضى (٣) » •

فهذا يؤتى ماله مخلصا . جاهدا فى تزكية نفسه وتطهيرها من حظ الشيطان •

وقد يكون صدق العمل فى بعض الطاعات سببا فى تزكية النفس وتطهيرها من ممارسات أخرى فيها دنس . ولذلك جعل الله من وسائل مداواة الذين خلطوا عملا صالحا وآخـــر سيئا واعترفوا بذنوبهم . أخذ قسط من أموالهم على سبيل الصـــدقة لتطهيرهم وتزكيتهم ، قال الله تعالى :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم • خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليهم • ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم (٤) » •

---

(١) سورة الشمس : : الآيات ٧ ــ ١٠ •

(٢) سورة الأعلى : الآيات ١٤ ، ١٥ •

(٣) سورة الليل : الآيات ١٤ ــ ٢١ •

(٤) سورة التوبة : الآيات ١٠٢ ــ ١٠٤ •

وللتربية أثر عظيم فى تزكية النفس ، ولذلك كانت من مهمات الرسول التربوية تزكية نفوس أصحابه . قال الله تعالى :

« كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون . فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون (١) » .

وقال الله تعالى :

« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين (٢) » .

موقف الاسلام من الدوافع النفسية وتوجيهاته فيها

ان الاسلام لم يحرم الانسان المسلم من تلبية دوافعه النفسية . ولم يمنعه من أن يستجيب لغرائزه التى فطره الله عليها ، ولم يعتبر الاسلام من فضائل الأخلاق ولا من تزكية النفس حرمانها الكلى من تلبية دوافعها الفطرية وغرائزها . وانما وجه لضبط تلبية هذه الدوافع والاستجابة لهذه الغرائز .

ويتلخص الضبط الذى وجه اليه الاسلام بتحريم مافيه ضرر أو أذى للفرد أو للمجتمع . والترغيب بترك مالا مصلحة فيه ، وبالتقليل من الترف المفسد للأنفس . والمبطر لها .

والضرر الذى ناط به الاسلام التحريم وأمر بضبط الأنفس دونه ، ولو تعلقت به أهواؤها وشهواتها . اما أن يمس جانب الدين فى عقائده أو عباداته . واما أن يمس جانب العقل ، واما أن يمس جانب الصحة الجسمية أو النفسية واما أن يمس الأنساب والأعراض ، واما أن يمس حقوق الناس المالية .

---

(١) سورة البقرة : الآيات ١٥١ ـ ١٥٢ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٦٤ .

ووفق هذا الأساس أباح الاسلام الأطعمة والاشربة والألبسة واتخاذ المساكن وتأثيثها بأنواع الاثاث من غير اسراف مضر ولا تبذير مفسد . باستثناء ما علم فيه ضررا ما كشرب الخمر وأكل الميتة . وأكل لحم الخنزير وأكل ما أهل به لغير الله . ولبس الذهب والحرير للرجال . واتخاذ أواني الذهب والفضة . ونحو ذلك .

وحث الاسلام على الزواج تلبية للغريزة الجنسية ، وتأدية لوظيفة من وظائف الحياة ، وجعل الطريق المشروع هو السبيل الوحيد لتلبية هذه الغريزة . لأنه هو الطريق الذى لا ضرر فيه، ولذلك حرم الزنا . لما فيه من ضرر على الأنساب ، ولما فيه من عواقب سيئة على المجتمع . ومنها نشر الأمراض الجنسية الخطيرة .

ولما كان دافع التملك احد الدوافع الفطرية في الانسان، جعل الاسلام من أسس نظامه الاقتصادى صيانة الملكية الفردية الحاصلة بطريق مشروع . الا فى حدود الحق الذى يوجب على الفرد أن يؤديه من ماله .

ولما كان حب الزينة والاستمتاع بالجمال الفنى من دوافع الانسان الفطرية أباح الاسلام اتخاذ الزينة والاستمتاع بالجمال . الا ما علم فيه ضررا ما . كالأوثان . وكتمجيد صور الأحياء . وتصويرها . ومن وراء ما حرم مأذونات كثيرة لا حصر لها .

أما الدافع الى التعليم ومعرفة حقائق الأشياء فقد حث الاسلام على تلبيته. وأوجب طائفة ضرورية منه. تتصل بالدين وخدمة الحياة الدنيا . ولم يحرم منه الا ما علم أنه مفسد للنفوس أو مناف للايمان بالله كالسحر ،

ونظير ذلك الدافع الى العمل واتخاذ القوى المادية ، فالاسلام قد حث على تلبيته ، وأوجب منه ما يتصل بواجب الدين وما يتصل بحفظ الحياة ، وحماية جماعة المسلمين ، وما

يتصل منه بحراسة الدين . ونشر مبادئه وتعاليمه بين الناس . ورغب ببناء صروح الحضارة الاسلامية به .

حرص الاسلام على تقويم الأخلاق

ان ثمرات الخلق القويم للسلوك الديني وللسلوك الاجتماعي وللسلوك الشخصي عظيمة جدا . وهي لدى المقارنة أجل من الثمرات التي تحققها المبالغة في أداء كثير من العبادات المحضة. لأن حسن الخلق هو عبادة لله من جهة حين يبتغي فيه مرضاة الله تعالى . وهو من جهة ثانية ذو فوائد شخصية واجتماعية كثيرة . يضاف الى ذلك أن مقاومة أهواء النفس ونزغاتها فيه أبلغ من مقاومة النفس في أداء العبادات المحضة .

ولدى الموازنة نلاحظ أن سلامة النفس من المساوىء الخلقية قد يكون أهم من سلامة السلوك الظاهر من كثير من المعاصي والذنوب الظاهرة .

ولذلك يتحقق بحسن الخلق من رضوان الله تعالى أكثر مما يتحقق بالاستكثار من نوافل العبادات المحضة كالصلاة والصيام والأذكار .

والأدلة على قيمة حسن الخلق في الاسلام كثيرة . منها النصوص التالية :

١ – روى الترمذي باسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامه من حسن الخلق . وان الله يبغض الفاحش البذيء » .

٢ – وروى أبو داود عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » .

٣ – وروى أبو داود عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وان كان محقا . وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وان كان مازحا . وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه » .

٤ ـ وروى الترمذى باسناد صحيح عن أبى هريرة قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال :

« **تقوى الله وحسن الخلق** » .

٥ ـ وروى الترمذى باســـناد حسن عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« **ان من أحبكم الى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وأن أبغضكم الى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون المتفيهقون** »

المتشدقون : الذين يتكلمون بملء أفواههم ، ويتصنعون القول تصنعا مع التعاظم به . والتعالى به على الناس .

المتفيهقون : هم المتكبرون كما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاء فى تتمة الحديث ، قالوا : يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون . فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبرون » .

٦ ـ وروى الترمذى باسناد صحيح عن أبى هـريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« **أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم** » .

ولمـــا كان حسن الخلق يحتل هذه القيمة العظيمـــة فى الاسلام كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا . روى البخارى ومسلم عن أنس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا » .

« **وانك لعـلى خلق عظيم** » .

الوســـائل التربوية

لاكتساب مكارم الأخلاق وتنميتها والخلاص من الامراض الخلقية

قابلية الناس لاكتساب الأخلاق :

حظوظ الناس من الطبائع النفسية التى فطروا عليهـــا حظوظ متفاوتة . فالخوف الفطرى عند بعض الناس أشد منـــه عند فريق آخر . والطمع الفطرى عند بعض الناس أشد منـــه

عند فريق آخر ، وكذلك نسب سرعة الغضب وبطئه ، ونسب حب العطاء ، ونسب قوة الارادة ، الى غير ذلك .

ولكن لدى كل انسان عاقل قدرة على اكتساب حد ما من الفضائل الخلقية ، عن طريق التحويل ، أو عن طريق التعديل ، ولولا وجود هذا الاستعداد لما تعلقت بالانسان مسؤولية خلقية تخالف مافطر عليه ، ولما توجهت التكاليف الشرعية لسريع الغضب مثلا بأن لايغضب وبأن يكون حليما ، ونحو ذلك .

على أن كثيرا من ظواهر السلوك الخلقي يطالب الانسان بممارستها ولو كلفه ذلك مخالفة ما تميل اليه فطرته ، ولولا أن لديه الاستعداد لهذه المخالفة لما توجه اليه التكليف ، ومعلوم من أصول الشريعة أن التكليف منوط بالاستطاعة : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

ان أسرع الناس استجابة لانفعال الغضب مثلا ، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقدارا من خلق الحلم ، ومتى صمم بارادته أن يكتسب ذلك فانه يستطيعه . لذلك فهو مسؤول عن اكتساب مايستطيع منه ، فاذا هو أهمل تربية نفسه.وتركها من غير تهذيب تنمو نمو أشواك الغاب ، فانه سيحاسب على اهماله ، وسيجنى ثمرات تقصيره .

وكذلك المفطور على نسبة كبيرة من الجبن . يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالارادة والتصميم مقدارا من خلق الشجاعة ، قد لا يبلغ به مبلغ المفطور على نسبة عالية من الشجاعة ، ولكنه مقدار يكفيه لتحقيق مايجب عليه فيه أن يكون شجاعا ، وضمن الحدود التى هى مسؤول فيها .

وهكذا نستطيع أن نقول فى سائر الفضائل الخلقية . الا أن الناس من بعد ذلك يتفاوتون فى مدى قدرتهم على السبق والارتقاء فى سلم الفضائل . وعليه تتفاوت مسؤوليات الأفراد بحسب تفاوت استعداداتهم لاكتساب الفضائل الخلقية .

ثم ان الأخلاق الفطرية قابلة للتنمية والتوجية والتعديل ، وتشهد لهذه القابلية التجارب التربوية على الانسان ، والملاحظات المتكررة على أفراد الناس ، من مختلف البيئات الانسانية ·

الوسائل التربوية لاكتساب الأخلاق :

لم تلجأ التربية الاسلامية الى محاولة الغاء أصل الطبائع الفطرية للناس ، لتضع بدلها طبائع جديدة مكتسبة لم تكن هى ولا الاستعداد اليها من الأمور الفطرية ·

ولكن لجأت التربية الاسلامية الى عمليات التقويم والتعديل والتوجيه والتهذيب والتنمية والتضمير ، واتخذت لذلك عدة وسائل ، منها الوسائل التالية :

الوسيلة الأولى : الاقناع الفكرى :

ان الاقناع بالمفاهيم الأخلاقية الايمانية عن طريق التعليم المباشر أو غير المباشر ، أو عن طريق الجدال بالتى هى أحسن ، من شأنه أن يولد الحافز الذاتى على التطبيق ، ومع تولد الحافز الذاتى الذى يحتل ساحة التصور تتجه الارادة للممارسة التطبيقية المتكررة ، والتكرار يولد العادة . والعادة فى السلوك الخلقى خلق مكتسب ·

وقد اعتمد الاسلام فى منهجه التربوى على الاقناع الفكرى لتوليد الحافز الذاتى عند الانسان ·

الوسيلة الثانية : التدريب العملى والرياضة النفسية :

والتدريب العملى والممارسة التطبيقية لفضائل الأخلاق ـ ولو رافق ذلك التكلف فى أول الأمر وقسر النفس على غير ما تهوى ـ من الأمور التى تكسب الانسان العادة السلوكية طال الزمن أو قصر ، والعادة لها تغلغل فى النفس يجعلها أمرا

محببا . وحين تتمكن العادة فى النفس تكون بمثابة الخلق الفطرى فيها . واذا تركها صاحبها شعر بفراغ نفسى موحش . لا يملأه الا ممارستها •

وقد اعتمد الاسلام على وسيلة التدريب العملى . ليكتسب المسلمون الفضائل التى آمرهم بها أمر الزام أو ترغيب ، وليكتسبوا اجتناب الرذائل والنقائص التى نهاهم عنها •

وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه حياة تدريبات عملية وممارسات تطبيقية •

والعبادات العملية الدورية فى الاسلام . والزكاة . والنفقات الواجبة . والجهاد فى سبيل الله . من أمثلة التدريب العملى •

الوسيله الثالثة : الغمس فى البيئات الصالحة :

ان من طبيعة الانسان آن يكتسب من البينة التى ينغمس فيها ويتعايش معها ما لديها من أخلاق . وعادات ، وتقاليد . وأنواع سلوك ، عن طريق السراية ، والمحاكاة ، والتقليد . وقوة ضغط الجماعة ، بذلك تتم العدوى النافعة أو الضارة •

وفى الحكم السائرة أن الطبع للطبع يسرق •

وحينما ينخرط الفرد فى سلك جماعة من الجماعات يجد انه مدفوع بقوة ضاغطة لالتزام طريقتها . ثم بتعاطفه معها يستحسن الأشياء التىيراها مستحسنة لديها ، وأخذه بها ، ويستقبح الأشياء التى يراها مستقبحة لديها ، ونافرة منها ، وبذلك يكتسب الفرد من دون آن يشعر أخلاق الجماعة التى ينتسب اليها وينخرط فيها ، وتسرى اليه آلوان سلوكها •

وقد اعتمدت التربية الاسلامية على ايجاد البيئة الصالحة أولا ، من النماذج الممتازة المنتقاة التى استجابت لدعوة الحق دون أن تجد عقبات كبرى فى نفوسها ، ثم استفادت من هذه

البيئة الصالحة فى تربية الناس . وصهر الوافدين اليها فى بوتقة السلوك الأفضل ، والخلق الأمثل . وكان أصحاب رسول الله الأولون هم البيئة الصالحة لمن بعدهم ، وهكذا نمت البيئة الصالحة ، وعظمت قوة ضغطها على كل من ينتسب اليها وينخرط فى سلك جماعتها .

الوسيلة الرابعة : القدوة الحسنة

ان القدوة الحسنة هى المثال الواقعى للسلوك الأمثل ، وهذا المثال الواقعى قد يكون مثالا حسيا مشاهدا يقتدى به ، وقد يكون مثالا حاضرا فى الذهن بأخباره وسيره وما أثر عنه من أقوال وأفعال .

والقدوة الحسنة تكون للأفراد على صفة أفراد مثاليين ممتازين ، وتكون للجماعات على صفة جماعات مثالية ممتازة .

وسر تأثير القدوة الحسنة يرجع الى عدة أسباب :

منها ما تحتله القدوة الحسنة فى المجتمعات الانسانية من مرتبة ذات مجد تمتاز به عن غيرها ، وتكون هذه المرتبة محفوفة بالتقدير والثناء والاطراء والاعجاب من الناس ، وهذا يولد فى الفرد المحروم من أسباب هذا المجد حوافز ذاتية قوية تحفزه الى تقليد القدوة الحسنة ومحاكاتها فى أخلاقها وسلوكها ، وعن طريق التقليد فى الفضائل تكتسب الفضائل ، اذ يتحول التقليد الى عادة . ثم تتحول العادة الى خلق مكتسب .

ومنها ما تثير القدوة الحسنة فى نفس الفرد البصير العاقل من استحسان واعجاب وتقدير ومحبة . ومع هذه الأمور تتهيج دوافع الغيرة لديه ، ثم يأخذ بمحاولات التقليد ، وعن طريق التقليد تكتسب الفضائل .

وقد اتخذ الاسلام القدوة الحسنة وسيلة من وسائله التربوية ، لترقية المجتمعات المسلمة فى سلم الكمال الخلقى والسلوكى ، ولذلك وجه القرآن المؤمنين الى أن يتخذوا رسول الله أسوة حسنة لهم . فقال تبارك وتعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا (١) » .

الوسيلة الخامسة : الرقابة الاجتماعية من قبل المجتمع المسلم :

للمجتمع سلطة معنوية فعالة ومؤثرة على نفوس الأفراد ، وترجع هذه السلطة المعنوية الى أن الفرد جزء من المجتمع الذى يعيش فيه ، وله من مجتمعه مصالح كثيرة مادية ونفسية .

فاذا كان المجتمع رقيبا على سلوك الأفراد ، مؤنبا فى مواطن التأنيب ، مثنيا مادحا عند مقتضيات المدح والثناء ، آمرآ بالمعروف ناهيا عن المنكر ، كان له من الأثر القوى على تقويم سلوك الأفراد بقوة الضغط الجماعى مالا يوجد نظيره فى أكثر الوسائل ، من جهة شمول أثره فى مجال التربية الجماعية .

ولذلك فرض الاسلام على المجتمع الاسلامى أن يكون رقيبا على ما يظهر من سلوك أفراده ، وأن يكون آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر ، وممارسا لأساليب التربية العامة بصفة جماعية .

الوسيلة السادسة : قواعد الجزاء :

ان الجزاء على العمل الحسن بالمثوبة وعلى العمل السيء بالعقوبة من وسائل التربية النافعة المفيدة ، ولذلك كانت من

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢١

وسائل التربية الاسـلامية ، رمن وسـائل التربية الربانية للناس ٠

وأحكام الحدود في الاسلام هي أحكام تربوية للناس قبل أن تكون أحكام انتقام ٠

واذا لم تكن العقوبة تربية للمعاقب نفسه فهي تربية لكل من تحدثه نفسه بأن يعمل مثل عمله ، ويسيء مثل اساءته ٠

وعطاءات النصر والتأييد الربانية . واباحة الظفر بالمغانم، والاطراء والثناء على فعل الخير ، كل ذلك من التربية بالمثوبة ٠

وبهذه الوسيلة تكتسب مجموعة من فضائل الأخلاق ، وتقوم مجموعة من نقائص الأخلاق ٠

الوسيلة السابعة : العبادات ومراقبة الله فيها :

ان حسن الصلة عن طريق العبادات المختلفة مع مراقبة الله فيها ، توجه نظر المؤمن ونفسه الى فضل الله وثواب الآخرة ، ومع تعلق النفس برضوان الله وثواب الآخـرة تخف تعلقاتها بالدنيا وعاجل لذاتها ، وبذلك تتحول نسبة عظمى من طبـائع الانسان متجهة في صعود الى ما عند الله ، وبذلك يكون تقويمها واصلاحها ٠

فبدل أن يكون الانسان شديد الطمع بالدنيا متطلعا الى مافي أيدى الناس منها ، يكون شديد الطمع بالآخرة متعلق النفس بما عند الله ، فيعف عما في أيدى الناس ، ويرضى بما قسم الله له ٠

وبدل أن يكون جبانا رعديدا خائفا من الموت حريصا على الحياة ، يكون شديد الاقبال على الآخرة مشوقا للظفر بما في الجنة من نعيم مقيم ، وبذلك يزهد بالحياة الدنيا ، فلا يخاف الموت ، ولا يكون شديد الحرص على الحياة ٠

وهكذا الى سائر الأخلاق ٠

الفصـــل الثـــانى

طائفة من الأخلاق الاسلامية

كتب هذا الفصل الأستاذ الشيخ محمـد الغزالى



الصــدق

ان الله خلق السموات والأرض بالحق . وطلب الى الناس أن يبنوا حياتهم على الحق . فلا يقولوا الا حقا . ولا يعملوا الا حقا .

وحيرة البشر وشقوتهم . ترجع الى ذهولهم عن هذا الأصل الواضح ، والى تسلط أكاذيب وأوهام على أنفسهم وأفكارهم ، أبعدتهم عن الصراط المستقيم . وشردت بهم عن الحقائق التى لابد من التزامها ..

ومن هنا كان الاستمساك بالصدق فى كل شأن ، وتحريه فى كل قضية ، والمصير اليه فى كل حكم ، دعامة ركينة فى خلق المسلم ، وصبغة ثابتة فى سلوكه . وكذلك كان بناء المجتمع فى الاسلام قائما على محاربة الظنون . ونبذ الاشاعات ،واطراح الريب . فان الحقائق الراسخة وحدها هى التى يجب أن تظهر وتغلب ، وأن تعتمد فى اقرار العلاقات المختلفة ..

قال رسول لله صلى الله عليه وسلم :

« اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث (١) » .

وقال :

« دع مايريبك الى مالا يريبك ، فان الصدق طمأنينة والكذب ريبة (٢).

وقد نعى القرآن على أقوام جريهم وراء الظنون التى ملأت عقولهم بالخرافات ، وأفسدت حاضرهم ومستقبلهم بالأكاذيب. فقال الله تعالى :

---

(١) أخرجه البخارى .

(٢) أخرجه الترمذى .

« ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى (١) » .

وقال أيضا :

« وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا (٢) » .

والاسلام ـ لاحترامه الشديد للحق ـ طارد الكذابين ، وشدد عليهم بالنكير .

روى الامام أحمد عن عائشة قال : « ما كان من خلق أبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب » .

وكانت المعالم الأولى للجماعة المسلمة صدق الحديث ، ودقة الأداء ، وضبط الكلام .

أما الكذب والاخلاف ، والتدليس والافتراء . فهى امارات النفاق ، وانقطاع الصلة بالدين .

والكذب رذيلة محضة تنبىء عن تغلغل الفساد فى نفس صاحبها ، وعن سلوك ينشىء الشر انشاء . ويندفع الى الاثم من غير ضرورة مزعجة . أو طبيعة قاهرة .

ولا عذر البتة لمن يتخذون الكذب خلقا ، ويعيشون به على خديعة الناس ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يطبع المؤمن على الخلال كلها الا الخيانة والكذب (٣) » .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم . قيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال نعم . قيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : لا » (٤) .

---

(١) سورة النجم : الآية ٢٣ .
(٢) سورة النجم : الآية ٢٨ .
(٣) اخرجه أحمد .
(٤) أخرجه الامام مالك .

وكلما اتسع نطاق الضرر اثر كذبة يشيعها أفاك جرىء كان الوزر عند الله اعظم . فالصحافي الذى ينشر على الألوف خبرا باطلا . والسياسى الذى يعطى الناس صورا مقلوبة عن المسائل الكبرى . وذو الغرض الذى يتعمد سوق التهم الى الكبراء من الرجال والنساء . أولئك يرتكبون جرائم أشق على أصحابها ، وأسوأ عاقبة .

والكذب على دين الله من أقبح المنكرات ، وأول ذلك نسبة شىء الى الله أو الى رسوله لم يقله . وهذا الضرب من الافتراء فاحش فى حقيقته ، وخيم فى نتيجته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان كذبا على ليس ككذب على أحد فمن كذب على معتمدا فليتبوأ مقعده من النار (١) » .

ويدخل فى نطاق هذا الافتراء ، سائر ما ابتدعه الجهال ، وأقحموه على دين الله من محدثات لا أصل لها ، عدها العوام دينا ، وما هى بدين . ولكنها لهو ولعب .

وقد نبه النبى صلى الله عليه وسلم أمته الى مصادر هذه البدع المنكرة ، وحذر من الانقياد الى تيارها ، ودعا المسلمين الى التمسك بأى كتابهم وسنة سلفهم ، فقال :

« يكون فى آخر أمتى اناس دجالون كذابون يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فاياكم واياهم . لا يضلونكم ولا يفتنونكم (٢) » .

والاسلام يوصى أن تغرس فضيلة الصدق فى نفوس الأطفال حتى يشبوا عليها ، وقد ألفوها فى أقوالهم وأحوالهم كلها .

فعن عبد الله بن عامر قال : دعتنى أمى يوما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد فى بيتنا . فقالت : تعال اعطك ، فقال لها صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أخرجه البخارى .

(٢) أخرجه مسلم .

« ما أردت أن تعطيه ؟ » ، قالت : اردت أن أعطيه ثمرا ، فقال لهـا :
« أما انك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كذبة (١) » .

وعن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« من قال لصبى : تعال ، هاك ، ثم لم يعطه فهى كذبة (٢) » .

فانظر كيف يعلم الرسول صلى الله عليه وسلم الأمهات والآباء أن ينشئوا أولادهم تنشئة يقدسون فيها الصدق ، ويتنزهون عن الكذب .

الأمانة

الاسلام يرقب من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ ، تصان به حقوق الله وحقوق الناس ، وتحرس به الأعمال من دواعى التفريط والاهمال . ومن ثم أوجب على المسلم أن يكون أمينا .

والأمانة فى نظر الشارع واسعة الدلالة ، وهى ترمز الى معان شتى ، مناطها جميعا شعور المرء بتبعيته فى كل أمر يوكل اليه ، وادراكه الجازم بأنه مسؤول عنه أمام ربه ، على النحو الذى فصله الحديث الكريم :

« كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.فالامام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع فى أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ، وهى مسؤولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته (٣) » .

والعوام يقصرون الأمانة فى أضيق معانيها وآخرها ترتيبا، وهو حفظ الودائع ، مع أن حقيقتها فى دين الله أضخم وأثقل .

انها الفريضة التى يتواصى المسلمون برعايتها ويستعينون بالله على حفظها . حتى انه عندما يكون أحدهم على أهبة سفر ، يقول له أخوه : « استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) أخرجه أبو داود .
(٢) أخرجه أحمد .
(٣) أخرجه البخارى عن ابن عمر .

وعن أنس قال :

« ما خطبنا رسول الله الا قال : لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له (١) » .

ولما كانت السعادة القصوى أن يوقى الانسان شقاء العيش فى الدنيا . وسوء المنقلب فى الأخرى . فان رسول الله جمع فى استعاذته بين الحالين معا اذ قال :

« اللهم انى أعوذ بك من الجوع فانه بئس الضجيع . واعوذ بك من الخيانة فانها بئست البطانة (٢) » .

فالجوع ضياع الدنيا . والخيانة ضياع الدين . .

وكان رسول الله فى حياته الأولى قبل البعثة يلقب بين قومه بالأمين .

ومن معانى الأمانة وضع كل شىء فى المكان الجدير به ، واللائق له ، فلا يسند منصب الا لصاحبه الحقيق به ، ولا تملأ وظيفة الا بالرجل الذى ترفعه كفايته اليها .

واعتبار الولايات والأعمال العامة أمانات مسؤولة ثابت من وجوه كثيرة :

فعن أبى ذر قال : « قلت يارسول الله الا تستعملنى ؟ قال : فضرب بيده على منكبى ، ثم قال : يا أباذر ، انك ضعيف وانها امانة ، وانها يوم القيامة خزى وندامة ، الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها (٣) » .

ان الكفاية العلمية أو العملية ليست لازمة لصلاح النفس . فقد يكون الرجل رضى السيرة ، حسن الايمان ، ولكنه لا يحمل من المؤهلات المنشودة ما يجعله منتجا فى وظيفة معينة .

فالأمانة تقضى بأن نصطفى للأعمال أحسن الناس قياما بها ، فاذا ملنا عنه الى غيره ــ لهوى أو رشوة أو قرابة ــ فقد ارتكبنا بتنحية القادر وتولية العاجز خيانة فادحة .

---

(١) أخرجه أحمد .
(٢) أخرجه أبو داود .
(٣) أخرجه مسلم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه . فقد خان الله ورسوله والمؤمنين (١) »

والأمة التى لا أمانة فيها هى الأمة التى تعبث فيها الشفاعات بالمصالح المقررة ، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء ، لتهملهم وتقدم من دونهم ، وقد أرشدت السنة الى أن هذا من مظاهر الفساد ، الذى سوف يقع آخر الزمان ·

جاء رجل يسأل رسول الله : متى تقوم الساعة ؟ فقال له :

« اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » فقال : وكيف اضاعتها ؟ قال : « اذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة (٢) » ·

ومن الأمانة أن يحرص المرء على أداء واجبه كاملا فى العمل الذى يناط به ، وأن يستنفد جهده فى ابلاغه تمام الاحسان · وخيانة هذه الواجبات تتفاوت اثما ونكرا ، وأشدها شناعة ما أصاب الدين ، وجمهور المسلمين ، وتعرضت البلاد لأذاه ·

ومن الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه الذى عين فيه لجر منفعة الى شخصه أو قرابته . فان التشبع من المال العام جريمة ·

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا . فما أخذ بعد ذلك فهو غلول (٣) » ·

لأنه اختلاس من مال الجماعة . الذى ينفق فى حقوق الضعفاء ، والفقراء ، ويرصد للمصالح الكبرى ، قال الله تعالى :

« ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون (٤) » ·

---

(١) أخرجه الحاكم ·
(٢) أخرجه البخارى
(٣) أخرجه أبو داود ·
(٤) سورة آل عمران ١٦١ ·

أما الذى يلتزم حدود الله فى وظيفته ، ويأنف من خيانة الواجب الذى طوقه فهو عند الله من المجاهدين لنصرة دينه واعلاء كلمته .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العامل اذا استعمل فأخذ الحق ، وأعطى الحق . لم يزل كالمجاهد فى سبيل الله حتى يرجع الى بيته » (١) .

ومن معانى الأمانة أن تنظر الى حواسك التى أنعم الله بها عليك . والى المواهب التى خصك الله بها ، والى ما حبيت من أموال وأولاد ، فتدرك أنها ودائع الله الغالية عندك . فيجب أن تسخرها فى قرباته . وأن تستخدمها فى مرضاته ، قال الله عز وجل :

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ، وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ، واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم (٢) .

ومن معانى الأمانة أن تحفظ حقوق المجالس التى تشارك فيها ، فلا تدع لسانك يفشى أسرارها ، ويسرد أخبارها .

فكم من حبال تقطعت ، ومصالح تعطلت . لاستهانة بعض الناس بأمانة المجلس ، وذكرهم ما يدور فيه من كلام ، منسوبا الى قائله ، أو غير منسوب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اذا حدث رجل رجلا بحديث ثم التفت ، فهو أمانة (٣) » .

وحرمات المجالس تصان ، مادام الذى يجرى فيها مضبوطا بقوانين الأدب وشرائع الدين ، والا فليست لها حرمة . وعلى كل مسلم شهد مجلسا يمكر فيه المجرمون بغيرهم ، ليلحقوا به الأذى ، أن يسارع الى الحيلولة دون الفساد جهد طاقته .

---

(١) أخرجه الطبرانى .
(٢) سورة الأنفال : الآيات ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) أخرجه ابو داود .

قال رســول الله :

« المجلس بالأمانة ، الا ثلاثة مجالس : مجلس سفك دم حرام ، أو فرج حرام . أو اقتطاع مال بغير حق » .

وما يضمه البيت من شؤون العشرة بين الرجل وامرأته ، يجب أن يطوى فى أستار مسبلة ، فلا يطلع عليه أحد مهما قرب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان من أعظم الامانة عند الله يوم القيامة : الرجل يفضى الى امرأته وتفضى اليه ، ثم ينشر سرها (١) » .

والودائع التى تدفع الينا لنحفظها حينا ، ثم نردها الى ذويها حين يطلبونها هى من الأمانات التى نسأل عنها .

واعتبار الوديعة غنيمة باردة هو ضرب من السرقة الفاجرة .

الحلم والصفح

تتفاوت درجات الناس فى الثبات أمام المثيرات ، فمنهم من تستخفه التوافه ، فيستحمق على عجل . ومنهم من تستفزه الشدائد ، فيبقى على وقعها الأليم محتفظا برجاحة فكره وسجاحة خلقه (٢) .

ومع أن للطباع الأصيلة فى النفس دخلا كبيرا فى أنصبة الناس من الحدة والهدوء ، والعجلة والأناة ، والكدر والنقاء ، الا أن هناك ارتباطا مؤكدا بين ثقة المرء بنفسه وبين أناته مع الآخرين ، وتجاوزه عن خطئهم . فالرجل العظيم حقا كلما حلق فى آفاق الكمال اتسع صدره ، وامتد حلمه ، وعذر الناس من أنفسهم ، والتمس المبررات لأغلاطهم . فاذا عدا عليه غر يريد تجريحه نظر اليه من قمته كما ينظر الفيلسوف الى صبيان يعبثون فى الطريق ، وقد يرمونه بالأحجار .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) سجاحة الخلق : لينة وحسنة .

وقد رأينا الغضب يشتط بأصحابه الى حد الجنون . عندما تقتحم عليهم نفوسهم . ويرون أنهم حقروا تحقيرا لا يعالجه الا سفك الدم .

أفلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله يحس بوخز الألم على هذا النحو الشديد ؟ . كلا . ان الاهانات تسقط على قاذفها قبل أن تصل الى مرماها البعيد .

وهذا المعنى يفسر لنا حلم هود . وهو يستمع الى اجابة قومه بعد ما دعاهم الى توحيد الله : قالوا :

« انا لنراك فى سفاهة ، وانا لنظنك من الكاذبين . قال : يا قوم ليس بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين (١) » .

ان شتائم هؤلاء الجهال لم يطش لها حلم هود ، لأن الشقة بعيدة بين رجل اصطفاه الله رسولا ، فهو فى الذؤابة من الخير والبر ، وبين قوم سفهوا أنفسهم ، وتهاووا على عبادة الأحجار ، يحسبونها ــ لغبائهم ــ تضر وتنفع ! كيف يضيق المعلم الكبير بهرف هذه القطعان ؟ .

وقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم أصحابه هذا الدرس فى الأناة وضبط النفس ، فروى أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئا ، فأعطاه ثم قال له : أحسنت اليك ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت . فغضب المسلمون وقاموا اليه ، فأشار اليهم أن كفوا . ثم قام ودخل منزله . فأرسل اليه وزاده شيئا ، ثم قال له : أحسنت اليك ؟؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : انك قلت ما قلت آنفا ، وفى نفس أصحابى من ذلك شىء ، فان احببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى ، حتى يذهب ما فى صدورهم عليك ، قال : نعم ، فلما كان الغد جاء ، فقال

---

(١) سورة الأعراف : الآيات ٦٦ ــ ٦٨ .

النبي صلى الله عليه وسلم : ان هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضي ، أكذلك ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه ، فأتبعها الناس ، فلم يزيدوها الا نفورا ، فناداهم صاحبها ، فقال لهم : خلوا بيني وبين ناقتي ، فاني أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذ من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت ، واستناخت . وشد عليها رحلها واستوى عليها ... واني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه ، دخل النار » .

ان الرسول الحليم لم تأخذه الدهشة لكنود الأعرابي أول الأمر ، وعرف فيه طبيعة صنف من الناس مرد على الجفوة في التعبير والاسراع بالشر ، وأمثال هؤلاء لو عوجلوا بالعقوبة لقضت عليهم ، ولما كانت ظلما .

لكن المصلحين العظماء لا ينتهون بمصاير العامة الى هذا الختام الأليم ، انهم يفيضون من أناتهم على ذوى النزق ، حتى يلجئون الى الخير الجاء ، ويطلقوا ألسنتهم تلهج بالثناء .

وثمن ذلك لا يضن به الواجد الأريب ، ولو كان عطاء سخيا . فما بذل المال الى جانب ملك الأنفس ؟ .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستغضب أحيانا غير أنه ما يجاوز حدود التكرم والاغضاء ، والمحفوظ من سيرته أنه ما انتقم لنفسه قط ، الا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله بها .

ان الشخص الغضوب كثيرا ما يذهب به غضبه مذاهب حمقاء ، فقد يسب الباب اذا استعصى عليه فتحه ، وقد يكسر آلة تضطرب في يده ، وقد يلعن دابة جمحت به .

وحدث أن رجلا نازعته الريح رداءه فلعنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا تلعنها فانها مأمورة مسخرة ، وانه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه (١) » .

وسيئات الغضب كثيرة . ونتائجه الوخيمة أكثر ، ولذلك كان ضبط النفس عند سوراته دليل قدرة محمودة وتماسك كريم .

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما تعدون الصرعة فيكم ؟ قالوا : الذى لا تصرعه الرجال . قال : ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب (٢) » .

قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم :

« أوصنى ولا تكثر على ، لعلى لا أنسى ، قال : « لاتغضب (٣) » .

وهذه الاجابة المقتضبة خير ما يرد به على سؤال يصاغ فى هذه العبارة !

وقد كان صلى الله عليه وسلم ينصح من جاءوه مسترشدين بما يلائم طباعهم ، ويوافق بيئتهم ، وقد يوجز أو يطنب ، وفق ما تقضى به الأحوال .

وكلما ربا الايمان فى القلب ربت معه السماحة وازداد الحلم .

الصبر ..

« الصبر ضياء (٤) » .

اذا استحكمت الأزمات ، وتعقدت حبالها ، وترادفت الضوائق وطال ليلها . فالصبر وحده هو الذى يشع للمسلم النور العاصم من التخبط ، والهداية الواقية من القنوط . والصبر فضيلة يحتاج اليها المسلم فى دينه ودنياه . ولابد أن يبنى عليها أعماله وآماله . والا كان هازلا .

(١) أخرجه الترمذى .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مالك .
(٤) من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم .

يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر ، وانتظار النتائج مهما بعدت ، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت ، بقلب لم تعلق به ريبة ، وعقل لاتطيش به كربة ، يجب أن يظل موفور الثقة بادى الثبات . لايرتاع لغيمة تظهر في الأفق. ولو تبعتها أخرى وأخرى ، بل يبغى موقنا بأن بوادر الصفو لابد آتية . وأن من الحكمة ارتقابها فى سكون ويقين .

وقد أكد الله أن ابتلاء الناس لامحيص عنه . حتى يأخذوا أهبتهم للنوازل المتوقعة . فلا تذهلهم المفاجآت ويذلوا لها .

قال الله تعالى :

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم (١) »

ولا شك أن لقاء الأحداث ببصيرة مستنيرة . واستعداد كامل ، أجدى على الانسان . وأدنى الى احكام شؤونه ، قال الله تعالى :

« وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور (٢) » .

والصبر يعتمد على حقيقتين خطيرتين :

أما الأولى فتتعلق بطبيعة الحياة الدنيا . فان الله لم يجعلها دار جزاء وقرار . بل جعلها دار تمحيص وامتحان . والفترة التى يقضيها المرء فيها فترة تجارب متصلة الحلقات . يخرج من امتحان ليدخل فى امتحان آخر . قد يغاير الأول مغايرة تامة، أى : ان الانسان قد يمتحن بالشىء وضده . مثلما يصهر الحديد فى النار ثم يرمى فى الماء . وهكذا .

وأما الحقيقة الأخرى . فتتعلق بطبيعة الايمان . ان الايمان صلة بين الانسان وبين الله عز وجل . واذا كانت صلات الصداقة بين الناس لايعتد بها ولا ينوه بشأنها الا اذا أكدها مر الأيام ، وتقلب الليالى. واختلاف الحوادث، فكذلك الايمان،

---

(١) سورة محمد : الآية ٣١ .
(٢) سورة آل عمران . الآية ١٨٦ .

لابد أن تخضع صلته للابتلاء الذى يمحصها . فاما كشف عن طيبها ، واما كشف عن زيفها . قال الله تعالى :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين (١) » .

على هاتين الحقيقتين يقوم الصبر . . ومن أجلهما يطالب الدين به . بيد أن الانسان من عادته تجاهل الحقائق ، يدهش للصعاب اذا لاقته . ويتبرم بالآلام اذا مسته . ويقوم له من طبعه الجزوع مايبغض له الصبر . ويجعله فى حلقه كريه المذاق . فاذا أحرجه أمر . أو صدمته خيبة . أو نزلت به كارثة . ضاقت عليه الأرض بما رحبت . وضاقت عليه الأيام مهما امتدت . وحاول أن يخرج من حالته بأسرع من لمح البصر .. وهى محاولة قلما تنجح ، لأنها ضد طبيعة الدين والدنيا ، وأولى بالمسلم أن يدرب نفسه على طول الانتظار. قال الله تعالى:

« خلق الانسان من عجل ، سأريكم آياتى فلا تستعجلون (٢) » .

وفى الحديث : « ... ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر (٣) » .

والصبر من معالم العظمة وشارات الكمال . ومن دلائل هيمنة النفس على ما حولها . ولذلك كان « الصبور » من أسماء الله الحسنى . فهو سبحانه يتمهل ولا يتعجل . ويبطىء بالعقاب ان أسرع الناس بالجريمة . ويرسل أقداره لتعمل عملها على اتساع القرون ، لا على ضيق الأعمار . وفى نطاق الزمن الرحب . لا فى حدود الرغبات الثائرة والمشاعر الثائرة . قال الله تعالى :

« ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده ، وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون (٤) » .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٢ ، ٣ .
(٢) سورة الأنبياء : الآية ٣٧ .
(٣) رواه البخارى .
(٤) سورة الحج : الآية ٤٧ .

والصبر من عناصر الرجولة الناضجة ، والبطولة الفارعة، فان أثقال الحياة لا يطيقها المهـــازيل ، ولا ينهض برسالتها الكبرى ، ولا ينقلها من طـور الى طـور الا رجال عمـالقة ، وأبطال صبارون ·

ومن ثم كان نصيب القادة من العناء والبلاء مكافئا لمـــا أوتوا من مواهب ، ولمـا أدوا من أعمال ·

« سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الناس على قدر دينهم ، فمن ثخن دينـه اشتد بلاؤه ، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه وان الرجل ليصيبه البـــلاء حتى يمشى على الأرض ما عليه خطيئة (١) » ·

فاختلاف أنصبة الناس من الجهد والتبعة والهموم الكبيرة يعود الى طاقتهم فى التحمل والثبات ·

ومن هنا كرم الاسلام أهل البلاء ، وواسى المتعبين مواساة تطمئن بالهم وتخفف آلامهم ·

قل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثـل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح ، تصرمها مرة وتعد لهـــا أخرى ، حتى يأتيه أجله ، ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذبة على أصلها لا يصيبها شىء حتى يكون انجعافها مرة واحدة (٢) » ·

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من يرد الله به خيرا يصب منه (٣) » ·

وقال أيضا : « اذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط (٤) » ·

---

(١) أخرجه ابن حيان ·

(٢) رواه مسلم · وانعجافها يعنى قلعها : ·

(٣) رواه البخارى ·

(٤) رواه الترمذى ·

فالمتعرض لآلام الحياة ، يدافعها وتدافعه ، أرفع عند الله درجات من المنهزم القابع بعيدا ، لا يخشى شيئا ولايخشاه شيء .

وما ادخره الله لأولئك العانين الصابرين يفوق ما ادخره لضروب العبادات الأخرى من ثواب جزيل .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يود أهل العافية يوم القيامة ، حين يعطى أهل البلاء الثواب ، لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض (١) »

والصبر أنواع : صبر على الطاعة ، وصبر على المعصية ، وصبر على النوازل .

فأما الصبر على الطاعة ، فأساسه أن أركان الاسلام اللازمة تحتاج فى القيام بها والمداومة عليها الى تحمل ومعاناة .

والصبر عن المعاصى ، هو عنصر المقاومة للمغريات التى بثت فى طريق الناس ، وزينت لهم اقتراف المآثم المحظورة .

والصبر على مايصيب المؤمن فى نفسه أو ماله ، أو منزلته أو أهله . وتلك كلها أعراض متوقعة ، وهيهات أن تخلو الحياة منها ، واذا لم يصب أحد بسيلها الطام ضربه رشاشها المتناثر .

والتواصى بالصبر قرين التواصى بالحق ، وقد أقسم الله عز وجل على أن فلاح البشر منوط بهما :

« والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

الجود والكرم

الاسلام دين يقوم على البذل والانفاق ، ويضيع على الشح والامساك . ولذلك حبب الى بنيه أن تكون نفوسهم سخية ، وأكفهم ندية ، ووصاهم بالمسارعة الى دواعى الاحسان ووجوه

---

(١) رواه الترمذى .

البر · وأن يجعلوا تقديم الخير الى الناس شغلهم الدائم لا ينفكون عنه صباحا أو مساء ، قال الله تعالى :

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار ، سرا وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١) » ·

ومن الواجب على المسلم أن يقتصد فى مطالب نفسه ، حتى لا تستنفد ماله كله · فان عليه أن يشرك غيره فيما آتاه الله من فضله ، وأن يجعل فى ثروته متسعا يسعف به المنكوبين ويريح المتعبين · قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا ابن آدم ، انك ان تبذل الفضل خير لك ، وان تمسكه شر لك · ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول . واليد العليا خير من اليد السفلى (٢) ·

وقد أشار القرآن الى هذا المعنى حين قرن النهى عن التبذير بأمر الانفاق على القرابة والمساكين · فان المبذر متلاف سفيه ، يضيع فى شهواته الخاصة زبدة ماله · فماذا يبقى بعد للحقوق الواجبة والعون المفروض ؟؟ قال الله تعالى :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ولا تبذر تبذيرا · ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا (٣) » ·

ومضى السياق فى الايصاء بالمحتاجين وصيانة وجوههم فأمر المسلم أن يرجيهم الخير ، وأن يرد بميسور من القول اذا كان لا يملك ايتاءهم ما يبتغون ، فقال تعالى :

« واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولا ميسورا (٤) » ·

ودعوة الاسلام الى الجود والانفاق مستفيضة مطردة ، وحربه على الكزازة والبخل موصولة متقدة ·

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٤ ·

(٢) رواه مسلم ·

(٣) سورة الاسراء : الآية ٢٦ ، ٢٧ ·

(٤) سورة الاسراء : الآية ٢٨ ·

وفي الحديث : « السخي قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النـــار . ولجاهل ســخي أحب الى الله تعالى من عـابد بخيل (١) » .

انه لم يوجد فى الدنيا ـ ولن يوجد ـ نظام يستغنى البشر فيه عن التعاون والمواساة ، بل لابد لاستتباب السكينة وضمان السعادة من أن يعطف القوى على الضعيف. وأن يرفق المكثر بالمقل مادامت طبيعة المجتمع البشرى أن تتجاوز فيه القوة والضعف، والاكثار والاقلال .

ولن تنجح أمة فى هذا المضمار الا اذا وثقت الصلات بين أبنائها . فلم تبق محروما يقاسى ويلات الفقر ، ولم تبق غنيا يحتكر مباهج الغنى .

وفى الاسلام شرائع محكمة لتحقيق هذه الأهداف النبيلة، من بينها تنشئة النفوس على فعل الخير واسداء العون ، وصنائع المعروف . ونتائج هذه التنشئة السمحة لا يسعد بها الضعفاء وحدهم . بل يرتد آمانها واطمئنانهـا الى البـاذلين أنفسهم ، فتقيهم زلازل الأحقاد،وعواقب الأثرة العمياء . قال الله تعالى :

« ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله . فمنكم من يبخل . ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه . والله الغنى وأنتم الفقراء (٢) » .

لكن الانسان مجبول على حب المال والحرص على اقتنائه ، يضرب فى مناكب الأرض وللأثرة فى نفسه ايحـــاء شديد ، أكثر تفكيره فى نفسه ، وأقله فى الآخرين .

لو أنه أوتى ما فى الأرض جميعـــا ، بل لو أنه امتلـك خزائن الرحمة العليا لمـا طوعت له نفسه أن تنفق منها بسعة ولقامت له من طبيعته الضيقة علل شتى تضع فى يده الأغلال ، قال الله تعـــالى :

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) سورة محمد : الآية ٣٨ .

« قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لأمسكتم خشية الانفاق ، وكان الانسان قتورا (١) » .

وقد عد الاسلام هذا الشعور من النزعات الخسيسة التى يجب أن تخاصم بعنف ، وأن تقاوم دسائسها بيقظة ونشاط ، وبين أن الفوز بخيرى الدنيا والآخرة لا يحرزه الا من نجح فى قمع دوافع البخل فى نفسه . حتى عودها على الكرم والسخاء . قال الله تعالى :

« فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا . وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (٢) » .

وقد رغب الاسلام كثيرا بالبذل والانفـــاق فى سبيل الله وابتغاء مرضاته . وحذر من البخل واكتناز الأموال . ومنـع الحقوق التى فرضها الله فيها .. ففى الحديث :

« يقول العبد مالى مالى : وانما له من ماله ثلاث : ماأكل فأفنى . أو لبس فأبلى . أو أعطى فأفنى (أى : ملك) وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس (٣) » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة . واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم(٤)» .

وعن أبى ذر ، قال : انتهيت الى النبى صلى الله عليـه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة . فلما رآنى قال :

« هم الأكثرون أموالا . الا من قال : هكذا وهـكذا وهكذا . من بين يديه . ومن خلفه . وعن يمينه . وعن شماله . وقليل ماهم (٥) » .

---

(١) سورة الاسراء : الآية ١٠٠ .

(٢) سورة التغابن : الآية ١٦ .

(٣ ، ٤) رواه مسلم .

(٥) متفق عليه .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع (أى : ثعبانا تساقط شعر رأسه لـكثرة سمه) له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه ، يعنى شدقيه ، ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك »·

ثم تلا قوله تعالى :

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السماوات والارض ، والله بما تعملون خبير (٢) ·

وعن أبى ذر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من رجل يكون له ابل أو بقر أو غنم لا يؤدى حقها ، الا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه ، تطؤه بأخفافها ، وتنطحه بقرونها ، كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها ، حتى يقضى بين الناس (٣) »

الوفـــاء ··

اذا أبرم المسلم عقدا فيجب أن يحترمه ، واذا أعطى عهدا فيجب أن يلتزمه · ومن الايمان أن يكون المرء عند كلمته التى قالها ، ينتهى اليها كما ينتهى المـاء عند شطآنه ، فيعرف بين الناس بأن كلمته موثق غليظ ، لاخوف من نقضها ، ولامطمع فى اصطيادها ·

العهد لابد من الوفاء به ، كما أن اليمين لابد من البر بها، ومناط الوفاء والبر أن يتعلق الأمر بالحق والخير ، والا فلا عهد فى عصيان ، ولا يمين فى مأثم ·

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه ، وليفعل الذى خير (٤) » ·

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨٠ ·
(٢) رواه البخارى ·
(٣) متفق عليه ·
(٤) رواه مسلم ·

ولا يسوغ لامرىء الاصرار على الوفاء بيمين ، الحنث فيها أفضـــــل ٠

وفى الحديث :

« لأن يلج أحدكم بيمينه فى أهله آثم له عند الله تعالى من أن يعطى كفارته التى افترض الله عليه (١) » ٠

ومن ثم فلا تعهد الا بمعروف . فاذا وثق الانسان عهـدا بمعروف . فليصرف همته في امضائه . مادامت فيه عين تطرف. وليعلم آن منطق الرجولة وهدى اليقين . لايتركان له مجـالا للتردد والانثناء ٠

روى أنس بن مالك قال :

« غاب عمي أنس بن النضر عن قتال« بدر » فقال : يا رسول الله ، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن أشهدنى الله مع النبى قتال المشركين ليرين ما أصنع ؟؟ فلما كان يوم « آحد » انكشف المسلمون . فقال : اللهــم انى أعتذر اليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى أصحابه ـ وابرأ اليك ممـا صنع هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ ثم تقدم ٠٠ فاستقبله سعد بن معاذ ٠ فقال : يا سعد بن معاذ . الجنة ورب النضر . انى أجد ريحها من دون أحد !!

قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع . ثم تقدم ٠

قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين . ما بين ضربة بالسيف . وطعنة بالرمح ، ورمية بسهم . ووجدناه وقد مثل به المشركون . فما عرفه الا أخته. بشامة . أو ببنانه ٠

قال انس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه :

« من المؤمنين رجال صـدقوا ما عاهـدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه . ومنهم من ينتظر . وما بدلوا تبديلا (٢) » ٠

---

(١) رواه البخارى ٠

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٣ ٠

والعهود التي يرتبط المسلم بها درجات . فأعلاها مكانة . وأقدسها ذماما . العهد الأعظم . الذى بين العبد ورب العالمين . فان الله خلق الانسان بقدرته . ورباه بنعمته. وطلب منه أن يعرف هذه الحقيقة . وأن يعترف بها . وألا تشرد به المغويات . فيجهلهاأو يجحدها . قال الله تعالى :

« ألم أعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم (١) » .

واذا كان هناك من البشر من لم يستمع الى المرسلين . ولم يستهد بما جاءوا به . فان له من فطرته سائقا يحدوه الى ربه . ويبصره بخالقه . مهما حفلت البيئة بصنوف الفساد . وضروب التخريف ..

ووفاء الانسان بهذا العهد أساس كرامته في الدنيا . وسعادته في الآخرة .

وقد كان رسول الله ـ وهو يدعو الناس الى الاسلام ـ يبايع الوفود المقبلة عليه بتعاليم ـ يتخيرها من بين التعاليم الكثيرة التي حفل بها الدين ـ على حسب مايرى من طاقتهم النفسية والعقلية .

فعن عوف بن مالك قال : كنا عند النبي ـ تسعة او ثمانية أو سبعة ـ فقال « الا تبايعون رسول الله ؟ » فبسطنا أيدينا وقلنا : نبايعك يارسول الله. قال : « على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا . وتصلوا الصلوات الخمس . وتسمعوا وتطيعوا » وأسر كلمة خفية قال « ولا تسألوا الناس شيئا » .

قال عوف بن مالك : « **فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم . فما يسأل أحد أن يناوله اياه » .**

فانظر الى الوفاء بالبيعة ودقة تنفيذها .

---

(١) سورة يس : الآية ٦٠ ، ٦١ .

والاسلام يوصى باحترام العقــود ، التى تسجل فيهـــــا الالتزامات المالية وغيرها،ويأمر بانفاذ الشروطالتى تتضمنها، وفى الحديث :

« **المسلمون عند شروطهم (١)** » ٠

ولا شك أن انتشار الثقة فى ميدان التجارة وفى شـــتى المعاملات الاقتصادية أساسه افتراض الوفاء فى أى تعهد ٠

ويجب أن تكون الشروط متفقة مع حدود الشريعة ، والا فــلا حرمة لهــا ، و لايكلف المسلم بوفائها ٠

وقد تتابعت آيات القرآن تحض على الوفاء وتخـــوف من الغدر ، قال الله تعالى :

« **وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا (٢)** » ٠

وقال تعـــالى :

« **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ماتفعلون ٠ ولا تكونوا كالتى نقضتغزلها من بعد قوة انكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينـكم أن تكون أمة هىأربى من أمة ، انما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامه ما كنتم فيه تختلفون(٣)**» ٠

والوفاء بالحق واجب مع المؤمن بالاسلام ومع الكافر به . فان الفضيلة لاتتجزأ ، فيكون المرء خسيسا مع قوم . كريمـا مع آخرين . والمدار على موضوع العهد . فما دام خيرا فاقراره حتم مع كل فرد وفى كل حين ٠

عن عمر بن الحمق ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« **أيما رجل أمن رجلا على دمه ، ثم قتله . فأنا من القاتل برىء ، وان كان المقتول كافرا (٤)** » ٠

---

(١) رواه البخارى ٠
(٢) سورة الاسراء : الآية ٣٤ ٠
(٣) سورة النحل : الآيات ٩١
(٤) رواه ابن ماجه ٠

الحيــــاء ..

الحياء أمارة صادقة على طبيعة الانسان ، فهو يكشف عن قيمة ايمانه ، ومقدار أدبه . وعندما ترى الرجل يتحرج من فعل مالا ينبغى ، أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهـــه اذا بدر منه مالا يليق ، فاعلم أنه حى الضمير ، نقى المعـــدن ، زكى العنصر . واذا رأيت الشخص صفيقا بليد الشعور ، لا يبالى ما يأخذ أو يترك ، فهو امرؤ لا خير فيه ، وليس له من الحيـاء وازع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب الدنايا .

وقد وصى الاسلام نبيه بالحياء . وجعل هذا الخلق السامى أبرز ما يتميز به الاسلام من فضائل .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان لكل دين خلقا ، وخلق الاسلام الحياء (١) » .

وقد أراد النبى الكريم أن يجعل من حساسية المسلم بمـــا فى الفضيلة من خير ، وبما فى الرذيلة من شر أساسا يدفعه الى الاستمساك بالأولى ، والاشمئزاز من الأخرى . حياء من ترك الخير ومن فعل الشر ، بغض النظر عن الثواب والعقاب ، كما قال ابن القيم :

هب البعث لم تأتنـــا رسله   وجاحمة النـــار لم تضرم (٢)

أليس من الواجب المستحق حياء العباد من المنعم ؟

وكان النبى صلى الله عليه وسلم أرق الناس طبعا ، وأنبلهم سيرة ، وأعمقهم شعورا بالواجب ، ونفورا من الحرام .

عن أبى سعيد الخدرى :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان اذا رأى شيئا يكرهه عرفناه فى وجهه (٣) » .

---

(١) رواه مالك .
(٢) جاحمة النار : أى جهنم . وتضرم : توقد .
(٣) رواه مسلم .

ان الايمان صلة كريمة بين العباد وربهم . ومن حق هذه الصلة ، بل أثرها الأول تزكية النفوس . وتقويم الأخلاق . وتهذيب الاعمال • ولن يتم ذلك الا اذا تأسست فى النفس عاطفة حية . تترفع بها ابدا عن الخطايا . وتتشعر الغضاضة من سفاسف الأمور • أما الالمام بالمحاقر (١) دون تورع . والوقوع فى الصغائر دون اكتراث . فذلك دلالة فقدان النفس لحيائها • ثم فقدانها لايمانها :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« **الحياء والايمان قرناء جميعا . فاذا رفع أحدهما رفع الآخر (٢)** » •

وعلة ذلك أن المرء حينما يفقد حياءه يتدرج من سيء الى أسوأ ، ويهبط من رذيلة الى أرذل . ولا يزال يهوى حتى ينحدر الى الدرك الأسفل •• وقد روى عن رسول الله حديث يكشف عن مراحل هذا السقوط . الذى يبتدىء بضياع الحياء . وينتهى بشر العواقب . فقال صلى الله عليه وسلم :

« **ان الله عز وجل اذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء • فاذا نزع منه الحياء لم تلقه الا مقيتا ممقتا نزعت منه الأمانة • فاذا نزعت منه الأمانة لم تلقه الا خائنا مخونا • فاذا لم تلقه الا خائنا مخونا نزعت منه الرحمة • فاذا نزعت منه الرحمة لم تلقه الا رجيما ملعنا • فاذا لم تلقه الا رجيما ملعنا نزعت منه ربقة الاسلام (٣)** » •

وهذا ترتيب دقيق فى وصفه لأمراض النفوس . وتتبعه لأطوارها ، وكيف تسلم كل مرحلة خبيثة الى أخرى أشد نكرا • فان الرجل اذا مزق الحجاب عن وجهه ، ولم يتهيب على عمله حسابا ، ولم يخش فى سلوكه لومة لائم ، مد يد الأذى للناس ، وطغى على كل من يقع فى سلطانه • ومثل هذا الشخص الشرس لن يجد قلبا يعطف عليه ، بل انه يغرس الضغائن فى القلوب وينميها •

---

(١) المحاقر : الأمور الحقيرة •
(٢) رواه الحاكم •
(٣) رواه ابن ماجه •

وأى حب لامرىء جرىء على الله وعلى الناس ، لايرده عن الآثام حياء ؟ فاذا صار الشخص بهذه المثابة لم يؤتمن على شىء اذ كيف يؤتمن على أموال لا يخجل من أكلهـــا أو على أعراض لا يستحى من فضحها • أو على موعد لا يهمه أن يخلفـــــه • أو على واجب لا يبالى أن يفرط فيه . أو على بضاعة لا يتنزه عن الغش فيها ؟ •

وللحياء مواضع يستحب فيها • فالحياء فى الكلام يتطلب من المسلم أن يطهر فمه من الفحش، وأن ينزه لسانه عن العيب وأن يخجل من ذكر العورات ، فان من ســـوء الأدب أن تفلت الألفاظ البذيئة من المرء غير عابىء بمواقعها وآثارها •

قال رسول الله صلى عليه وسلم :

« الحياء من الايمان ، والايمان فى الجنة . والبذاء من الجفاء ، والجفاء فى النار (١) » •

ومن الحياء أن يخجل الانسان من أن يؤثر عنه سوء ، وأن يحرص على بقاء سمعته نقية من الشـــوائب ، بعيـــدة عن الاشاعات السيئة •

فان الغيبة انما تحرم فيمن سترت حاله ، أما مـــن كشف صفحته ، وأظهر سوءته ، فان الناس لن يبلغوا منـــه ما يبلغ من نفسه ، ولذلك أمر رسول الله من لوثته قاذورات المعاصى أن يتوارى عن الأعين •

ان الحياء ملاك الخير ، وهو عنصر النبل فى كل عمـــل يشوبه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما كان الفحش فى شىء الا شـــأنه ، وما كان الحياء فى شىء الا زانه (٢) » •

فلو تجشم الحياء لكان رمز الصلاح والاصلاح •

عن عائشة أن رسول الله قال لها :

---

(١) رواه أحمد •

(٢) رواه الترمذى •

« لو كان الحياء رجلا لكان رجلا صالحا ، ولو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء (١) » .

والحياء شعبة من الايمان . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الايمان بضع وسبعون شعبة ، فافضلها قول لا اله الا الله . وأدناها اماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الايمان (٢) » .

سلامة الصدر من الأحقاد

ليس أروح للمرء . ولا أطرد لهمومه . ولا أقر لعينه من أن يعيش سليم القلب . مبرأ من وساوس الضغينة . وثوران الأحقاد . اذا رأى نعمة تنساق الى أحد رضى بها . وأحس فضل الله فيها . وفقر عباده اليها . وذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك . فلك الحمد ولك الشكر (٣) » .

واذا رأى أذى يلحق أحدا من خلق الله رثى له ، ورجا الله أن يفرج كربه . ويغفر ذنبه . وذكر مناشدة الرسول ربه :

« أن تغفر اللهم تغفر جما . وأى عبد لك ما ألما » .

وبذلك يحيا المسلم ناصع الصفحة . راضيا عن الله وعن الحياة ، مستريح النفس من نزعات الحقد الأعمى ، فان فساد القلب بالضغائن داء عياء . وما أسرع أن يتسرب الايمان من القلب المغشوش ، كما يتسرب السائل من الاناء المثلوم .

ونظرة الاسلام الى القلب خطيرة . فالقلب الأسود يفسد الأعمال الصالحة . ويطمس بهجتها . ويعكر صفوها .

أما القلب المشرق فان الله يبارك فى قليله ، وهو اليه بكل خير أسرع .

---

(١) رواه الطبرانى .
(٢) رواه البخارى .
(٣) أخرجه أبو داود .

عن عبد الله بن عمرو . قيل : يا رسول الله ، أى النـــاس أفضل ؟ قال :

« كل مخموم القلب صدوق اللسان » قيل : صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ؟ قال : « هو التقى النقى ، لا اثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسـد (١) » .

ومن ثم كانت الجماعة المسلمة حقـا هى التى تقوم على عواطف الحب المشترك ، والود الشائع ، والتعاون المتبـادل ، والمجاملة الدقيقة ، لامكان فيها للفردية المتسلطة الكنود ، بل هى كما وصف الله بقوله :

« والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنـا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنـا غلا للذين آمنوا . ربنـا انك رءوف رحيـم (٢) » .

ان الخصومة اذا نمت وغارت جذورها ، وتفرعت أشواكها شلت زهرات الايمان الغض ، وأذوت ما يوحى به من حنـان وسـلام .

وكثيرا ما تطيش الخصومة بألباب ذويها ، فتتدلى بهم الى اقتراف الصغائر المسقطة للمروءة ، والكبائر الموجبة للعنـة وعين السخط تنظر من زاوية داكنة ، فهى تعمى عن الفضائل، وتضخم الرذائل ، وقد يذهب بها الحقد الى التخيل وافتـراض الأكاذيب . وذلك كله مما يسخطه الاسلام ويحـاذر وقوعه . ويرى منعه أفضل القربات .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى ، قال : اصلاح ذات البين ، فان فساد ذات البين هو الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين (٣) » .

---

(١) أخرجه أبو داود .
(٢) سورة الحشر : الآية ١٠ .
(٣) رواه الترمذى .

ربما عجز الشيطان أن يجعل من الرجل العاقل عابد صنم. ولكنه ـ وهو الحريص على اغواء الانسان وايراده المهالك ـ لن يعجز عن المباعدة بينه وبين ربه. حتى يجهل حقوقه أشد مما يجهلها الوثني المخرف. وهو يحتال لذلك بايقاد نيران العداوة فى القلوب. فاذا اشتعلت استمتع الشيطان برؤيتها. وهى تحرق حاضر الناس ومستقبلهم وتلتهم علاقتهم وفضائلهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« ان الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب. ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم (١) ».

ذلك أن الشر اذا تمكن من الأفئدة فتنافر ودها. وانكسرت زجاجتها. ارتد الناس الى حال من القسوة والعناد، يقطعون فيها ما أمر الله به أن يوصل. ويفسدون فى الأرض.

وقد تيقظ الاسلام لبوادر الجفاء. فلاحقها بالعلاج. قبل أن تستفحل وتستحيل الى عداوة فاجرة. والمعروف أن البشر متفاوتون فى أمزجتهم وأفهامهم. وأن التقاءهم فى ميادين الحياة قد يتولد عنه ضيق وانحراف. ان لم يكن صدام وتباعد. ولذلك شرع الاسلام من المبادىء ما يرد عن المسلمين عوادى الانقسام والفتنة. وما يمسك قلوبهم على مشاعر الولاء والمودة. فنهى عن التقاطع والتدابر.

نعم قد يحدث أن تشعر باساءة موجهة اليك. فتحزن لها وتضيق بها. وتعزم على قطع صاحبها. ولكن الله لا يرضى أن تنتهى الصلة بين مسلم ومسلم الى هذا المصير.

قال النبى صلى الله عليه وسلم:

« لا تقاطعوا ولا تدابروا. ولا تباغضوا ولا تحاسدوا. وكونوا عباد الله اخوانا. ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث (٢) ».

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخارى.

وفى رواية :

« لايحل لمؤمن أن يهجر مؤمنا فوق ثلاث · فان مرت به ثلاث فليلقه فليسلم عليه ، فان رد عليه السلام فقد اشتركا فى الأجر · وان لم يرد عليه فقد باء بالاثم ، وخرج المسلم من الهجرة (١) » ·

وهذا التوقيت فترة تهدأ فيها الحدة ، وينفثئ الغضب ، ثم يكون لزاما على المسلم بعده أن يواصل اخوانه ، وأن يعود معهم سيرته الأولى ، كأن القطيعة غنيمة ، ما ان تجمعت حتى هبت عليها الريح فبددتها ، وصفا الأفق بعد عبوس ·

وقد اعتبر الاسلام من دلائل الصغار وخسة الطبيعة ، أن يرسب الغل فى أعماق النفس فلا يخرج منها ، بل يظل يموج فى جوانبها كما يموج البركان المكتوم ·

روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أنبئكم بشراركم ؟ » قالوا : بلى ، ان شئت يا رسول الله · قال : « ان شراركم الذى ينزل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رفده ، أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ » قالوا : بلى ان شئت يا رسول الله ، قال : « من يبغض الناس ويبغضونه » قال : « أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا : بلى ، ان شئت يارسول الله ، قال : « الذين لايقيلون عثرة ، ولا يقبلون معذرة ، ولا يغفرون ذنبا » قال : « أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « من لايرجى خيره ولا يؤمن شره (٢) » ·

والأصناف التى أحصاها هذا الحديث أمثلة لأطوار الحقد عندما تتضاعف علته ، وتفتضح سوأته ، ولا غرو ، فمن قديم أحس الناس حتى فى جاهليتهم ، أن الحقد صفة الطبقات الدنيا من الخلق ، وأن ذوى المروءات يتنزهون عنه،قال عنترة:

لايحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

---

(١) رواه أبو داود ·
(٢) أخرجه الطبرانى ·

مراجع للمستوى الأول (١٠١)

الكتاب	المؤلف
العقيدة الاسلامية وأسسها	عبدالرحمن حسن حبنكةالميدانى
عقيدة المسلم	محمد الغزالى
العقائد الاسلامية	سيد سابق
تعريف عام بدين الاسلام	على الطنطاوى
نظام الاسلام العقيدة والعبادة	محمد المبارك
الاسلام يتحدى	وحيد الدين خان
الله ، الرسول ، الاسلام	سعيد حوا
العبادة فى الاسلام	يوسف القرضاوى
خلق المسلم	محمد الغزالى
الأخلاق	أحمد أمين
محاضرات في الثقافة الاسلاية	أحمد محمد جمال

فهـــرس

الموضـــــوع | صفحة

الموضوع	صفحة